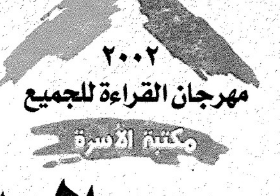


الجزء الأول ١

محمود البدوى

العذراء والليل

الأعمال الكاملة

الابداعية

اهداءات ٢٠٠٤
أسرة المخرج / إبراهيم الصحن
القاهرة

١

- العذراء والليل
- الأعرج فى الميناء
- حدث ذات ليلة

المجلد الأول

محمود البدوى



على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً فى المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص. ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى «**مكتبة الأسرة**» .. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ **سوزان مبارك**..

د. سمير سرحان



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

سلسلة الأعمال الكاملة

العذراء والليل - الأعرج فى الميناء - حدث ذات ليلة

المجلد الأول

محمود البدوى

الغلاف والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

الإخراج الفنى والتنفيذ:

صبرى عبدالواحد

المشرف العام :

د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التمية المحلية

وزار ة الشــباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

مقدمة

حضرت منذ سنوات حفلة موسيقية فى دار الأوبرا المصرية . . لفرقة فينا فيلهارمونيك المشهورة . . وقد خرج المايسترو فى أثناء الاستراحة إلى الجمهور ليشكره . . وقال :

« اننا نعطيكم موسيقى حية لأننا نأخذ منكم وعلى قدر العطاء يكون البذل » . . وقد رنت كلمات هذا الرجل فى أذنى وأدركت منها لماذا تموت الفنون والآداب فى بلدان العالم . . ولماذا تحيا . .

ولقد تطورت القصة فى العالم قبل الحرب الأخيرة وبعدها . . وأصبحت تحتل المكان الأول من بين فنون الأدب جميعا . . أعطاها الناس كل فراغهم لأنها أقرب الأشياء إلى قلب الإنسان . . ولهذا ظهرت منها الطبعات الشعبية على نطاق واسع فى أوروبا وأمريكا . . وأصبحت توزع من القصة الواحدة ثلاثة وأربعة ملايين نسخة فى كل طبعة ! . .

يحدث هذا فى الوقت الذى يتحدث فيه ديهاميل وأضرابه عن مستقبل الكتاب . . بعد السينما والراديو . . والتلفزيون . . والكتاب سيظل موجودا وخالدا ما بقيت الحضارة . . ولا يمكن أن تدمر الحضارة اعظم شىء فيها . . لا يمكن أن تطفىء نورها . . وأعظم الممثلين فى العالم لم يستطع حتى الآن . . أن يصور شخصية هملت كما صوره شكسبير . . ولا رازكولنيكوف كما صوره دستويفسكى . . ولا نانا كما صورها زولا . . ولا مدام بوفارى كما فعل فلوبير . .

وأمنيتى مع « كتب للجميع » ونحن نعيش فى قلب الحضارة ، ونسير فى ركابها . . أن تتطور بنا الحياة فى المستقبل . . وأن نطبع من الكتاب الواحد مليون نسخة . . وأمنيتى فى هذه الساعة أن يصل هذا الكتاب إلى أيدى الناس الذين أحببتهم وصورت حياتهم فى القرية والمدينة . . فإن هذا من أعظم المباهج للفنان . .

« محمود البدوى »

العذراء والليل

وقصص أخرى



ليلة فى بوخارست

كنا نتحدث بالإشارة . . ونتفاهم بهذه اللغة أكثر من تفاهمنا بأية لغة أخرى . . وفهمت بغريزتها أنى متيم بها ، فلم تصدنى ، بل شجعتنى ، واستجابت لرغباتى . .

اعتدت أن أتناول طعام الغداء فى مطعم القرن الذهبى فى كونستنزا وهو مطعم صغير رخيص يقع فى شارع كارول وتديره امرأة مسنة . . وكان فيه أشهى الأطعمة إلى قلبى . . الكفتة الرومانى . . والنبيذ الإيطالى المعتق . . والسلاطة الشرقية .

وكانت صاحبة المطعم طيبة وسمحة النفس . . عندما أدركت أننى سائح وغريب ، ولا أعرف لغتها أدخلتنى إلى المطبخ . . وجعلتنى أختار ما أحب من الطعام . . وقد حفظت لها هذا الجميل . . وأصبحت أركب القطار كل يوم من كارمن سيلفا ، حيث أصيف ، لأتغدى عندها . . وأنا شاعر بأننى آكل فى بيتى . .

وكان عندها فتاتان تعملان فى المطعم . . وكانت كارولينا تجىء قبل زميلتها الينورا . . مبكرة فى الصباح تنسق الموائد وتضع عليها المفارش والزهور . . وكانت أصغر من الينورا وأجمل . . وأكثر نشاطاً وحيوية ، وأشد فتنة . . ولم أكن أراها الا ضاحكة . . وكانت تتكلم فى صوت ناعم حلو . . وتتحرك فى لين ورشاقة كأنها ترقص .

وكانت ترتدى مريلة سوداءلامعة . . وتعرف من الفرنسية ما يكفى للتفاهم ، وعندما تسألها عن طعام لا تعرفه . . يرف على خدها لون التفاح !

وبدأت معرفتى بها عندما أعطيتها ورقة من ذات الألف ليى لتفكها ، فلما فكتها أعطيتها ما قيمته ثلاثين مليا كبقشيش . . فرقصت من الفرح وجرت إلى صاحبة المطعم تريها البقشيش الذى أعطاه لها هذا الأمير الشرقى . . !

ولا تعجب فقد كنا فى عام ١٩٣٦ . . وكان الكساد على أشده فى أوربا كلها . . وكنت تستطيع أن تأكل وجبة غداء كاملة بهذا المبلغ فى مطعم ال ١٧ دراخمة فى أثينا . . مع شوب من البيرة النمساوية الفاخرة !

وقد ذهبت كل هذه الأحلام بعد أن تحركت فرق العاصفة ودكت أوروبا . .

ولم أكن وأنا جالس فى المطعم أطلب من كارولينا أن تقدم لى قائمة الطعام . . أو أسألها ما عندك اليوم . . كنت أدعها تختار لى ألوان الطعام بنفسها . . وكانت تصنع لى بعد الغداء فنجانا من القهوة التركية . . وعندما تفرغ من عملها فى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر كانت تجىء لتحادثنى . . وتقدم لى ما جمعته من الكتب المصورة . . من شركات السياحة . .

ورأيتها فى صباح يوم من أيام الآحاد ، تستحم فى بلاج مامايا . . ولما وقع نظرها على وأنا أراقبها من شرفة الكازينو ابتسمت . . وبعد أن خرجت من الماء مرت تتهادى أمامى . . كفينوس والماء يقطر من جسمها ولوحت لى بيدها من بعيد وجرت لترتدى ثيابها . .

***

ولما قابلتها ساعة الظهر فى مطعم القرن الذهبى . . قالت . .

ـ أتذهب كل صباح . . إلى مامايا . . ؟ وتقطع هذه المسافة الطويلة بالأتوبيس . .

ـ يوم الأحد فقط . . .

ـ وكذلك أنا . . أذهب فى صباح الأحد . . إلى هناك . . وسأراك فى الأحد المقبل . .

ـ ولماذا . لا تذهبين إلى كارمن سيلفا ؟

ـ مامايا . . أرخص وأقرب . . وأنا فقيرة . . كما تعرف . .

ـ تعالى لنمضى يوما فى كارمن وفى الليل سنذهب إلى الكازينو .

ـ لا أستطيع . . إن كونستنزا مدينة صغيرة ، والجميع يعرفوننى ، وصاحبة المطعم إنسانة طيبة وأنا لا أستطيع تركها . .

ـ ولكننى أحب أن أمضى يوما كاملا . .

ـ إنك ترانى كل يوم . . تقريبا . . وأنا لا أدع أحدا يجلس على هذه المائدة غيرك . .

ـ مرسى . . ولكننى أحب أن نقضى يوما معا . . واختارى أنت المكان

ـ دعنى أفكر إلى الغد . .

فى الغد سألتها :

ـ هل اخترت المكان . . ؟

ـ وهل هذا ضرورى . . أنت ترانى فى كل يوم . . ولك شهر هنا ألم تسأم . . ؟!

ـ لا . . وأنا غريب . . وأحتاج إلى عطفك . .

ـ اذن سنسافر إلى بوخارست . . ونقضى هناك ليلة واحدة . . ليلة واحدة . . هناك . . بعيدا . . بعيدا . . عن الناس .

واتفقنا على أن نسافر غدا إلى بوخارست . . دون أن نأخذ حقائب لنكون خفيفين . . وتواعدنا على اللقاء فى داخل المحطة . . فى الساعة الحادية عشرة ليلا لنأخذ آخر قطار . .

وجاءت فى الميعاد . . وقطعنا تذكرتين فى الدرجة الثالثة . . كرغبتها وإلحاحها على ونحن عند الشباك . . إذ قالت . .

ـ أنت طالب . . وفقير . . فلماذا الإسراف . . ؟

وجلسنا مستريحين . . وكانت العربة تكاد تكون خالية من الركاب فأخذنا نتحدث ونضحك بكل حريتنا . . ولم نر الكمسارى الا مرة واحدة طول الطريق . .

وفى أخريات الليل . . أحست كارولينا بالنوم فتمددت على المقعد ووضعت رأسها فى حجرى . . وأخذت أمسح بيدى على شعرها . . وأشعر بلذة حبيبة . .

وكان القطار يمضى فى وادى الدانوب . . وكنا نرى المدن الصغيرة تتلألأ . والوادى الأخضر تحتنا بادى الروعة . . وكانت نسمات الليل الحلوة تهز المشاعر . . وكل ما حولى يأخذ بلب المسافر . . ولكننى حصرت كيانى كله فى هذا الركن من العربة حيث نجلس . . وحمدت الأيام الطيبة التى جعلتنى أسافر . . وأركب البحر . . وأذهب إلى هذا المطعم لألتقى بكارولينا . . كانت بيضاء طويلة فى لون العاج ، وفى مثل سنى أو تكبرنى بعامين اثنين . . ومامن إنسان شاهدنا معا . . الا تصور اننا طالبان فى جامعة واحدة . . ذاهبان فى العطلة الصيفية . . إلى رحلة جامعية . .

ولم يكن أحد يعرف أنها رومانية وأننى مصرى . . إلا إذا سألنا عن ذلك صراحة . . فقد كنا نتحدث بالإشارة . . بلغة الاسبرانتو . . ونتفاهم بهذه اللغة أكثر من تفاهمنا بأية لغة أخرى . . ومع أننى لم أقل لها أية كلمة غرامية . . ولكنها فهمت بغريزتها أننى متيم بها وأننى أشتهيها من أول لقاء لنا فى المطعم . . وأننى حبست نفسى فى كونستنزا من أجلها وتركت كارمن سيلفيا . . وسينايا . . وايفورى . . وجورجيووكل هذه المصايف الجميلة لأجلها . . ولم تصدنى . . بل كانت تشجعنى على توثيق العلاقة بيننا . . وتطورها . . ولم أسأل نفسى . . بعد أن استجابت لرغباتى وركبت معى القطار . . هل تحبنى كما أحبها فإن

هذا لم يكن يعنيني على الإطلاق . . ولكنني كنت أثق بها وأراها تحرص على راحتي وتشير على دائما بالاقتصاد في المصروف وتريني أرخص وأحسن الفنادق ، والمحلات التجارية . . وتعاملني كأنني من جنسها فلم تكن تستغلني أبدا . .

وأخذت أحدثها عن نفسي . . وعن رحلتي . . في اليونان . . وتركيا وعن جمال البسفور . .

وسألتني فجأة وهي ترنو إلى بقوة :

ـ أمعك . . مسدس . . ؟

ـ مسدس . . وما الداعي إليه . .

أحس بشيء جامد تحت راسي . .

وقلت لها بكل بساطة :

ـ إنه حزام . . .

ـ حزام . . ؟ ولكنه سميك . .

ـ إنه من الجلد السميك وبه جيوب . .

ـ جيوب . . ولماذا . . ؟

ـ لأضع فيه نقودي كلها . . هات يدك . .

وجلست ومرت بيدها فوق وسطي . . وقالت :

ـ إنها فكرة عظيمة . .

ـ عرفني بها صديق . . وأنا أتهيأ للسفر ووجدتها فكرة حسنة . . فأنا آمن مطمئن في القطارات والبواخر والفنادق ولا أخشى أن تمتد إلى يد السرقة في ليل أو نهار لأنه لا أحد يعرف مكان النقود . .

ـ هذا عظيم !!

وأخذت أحدثها عن الرحلة ، وكيف نشأت . . وكيف أنني ربحت مبلغا كبيراً في المراهنة على سباق الخيل . . وخشيت أن يضيع في المقامرة كما جاء . . فوضعته في هذا الحزام وركبت البحر . .

ـ وهل المبلغ كبير جدا إلى هذا الحد ؟

ـ نستطيع أن نطوف به حول العالم . .

ـ إنك سعيد . . .

ـ اتركى العمل فى القرن الذهبى وأنا أجعلك أميرة . .

ـ ولماذا لم تضع المبلغ فى البنك . . ؟

ـ هذا أحسن وأسهل . . لأنى ذاهب إلى بلاد مختلفة . .

ـ كم أنا سعيدة . . إذن سأشترى فساتين ومعاطف للشتاء من بوخارست . . كم أنا سعيدة . .

وأمسكت بيدها وضغطت عليها ثم أخذت أمسح بها على جبينها وشعرها . . وأغلقت عينيها ونامت ، وبعد ساعة أحسست ببرودة شديدة ، وخشيت عليها من البرد فخلعت سترتى وألقيتها على صدرها ثم غلبنى النعاس وأنا جالس فى مكانى . .

وأيقظتنى قبل أن تشرق الشمس وقالت :

ـ اصح لقد اقتربنا من محطة الشمال . .

وبعد قليل دخلنا مدينة بوخارست . .

***

وخرجنا من المحطة وركبنا سيارة دارت بنا أكثر من ثلث ساعة فى شوارع المدينة ، ثم قادتنا أخيرا إلى بنسيون صغير فى شارع ضيق . . وعانقت كارولينا صاحبة البنسيون . . ورحبت بى هذه السيدة فى بشاشة . . وأدخلتنا إلى الغرف الخمس التى عندها لنختار منها ما يروقنا واخترنا غرفة بحرية صغيرة منعزلة . . وقالت لى كارولينا وأنا جالس على المقعد الطويل لأ ستريح قليلا إن البنسيون خال لأن الناس يهجرون بوخارست فى الصيف إلى المصايف . . إذ إن حرها شديد . . . وقد شعرت بوطأة الحر فعلا فقد كان جوها كجو القاهرة فى أغسطس . .

وقالت لى كارولينا إن مدام ليتا ، صاحبة البنسيون ، ليست رومانية وإنها كانت تعمل عندها وتركتها منذ سنتين ، للكساد ولسوء حالتها المالية . . حتى عجزت عن أن تدفع لها أجرا . . ولكنها عادت اليها الآن لتمضى معى ليلة ممتعة . .

ورأيت فى البنسيون ثلاث فتيات فيهن واحدة شقراء كأنها مجرية ، ولم أشاهد أى رجل . .

وأخذت حماما سريعا لأنشط ولأستطيع التجوال فى المدينة . . وخلال ذلك كانت

كارولينا قد تزينت . . وخرجنا فى بكرة الصبح نشاهد ما نستطيع أن نراه فى المدينة . .

وبوخارست مدينة صغيرة لكنها جميلة ويسمونها باريس الصغرى لأنها تشبه باريس الكبرى فى كل شىء ، فى تخطيطها وفى شوارعها ، ومحلاتها التجارية ، ونسائها الأنيقات الفاتنات اللابسات أجمل الأزياء . .

وتغدينا وذهبنا إلى البنسيون لنستريح قليلا ثم نستأنف تجوالنا . .

وكنت قد اشتريت زجاجة عطر غالية لكارولينا . . ورأتها إحدى الفتيات فجرت تخبر زميلتيها ، وجاء الثلاثة ودخلن علينا الغرفة وأخذن يقلبن الزجاجة فى أيديهن وينظرن اليها وكأنها كنز ثمين . . ثم أخذ الثلاثة يداعبن كارولينا . . ويزينها ويضمخن جسمها كله بالعطر . . وينظرن إلى ناحيتى وأنا ممدد بكامل ملابسى على السرير ويقلن لها كلاما فى أذنها . . كأننى أعرف لغتهن . . ثم أدركن خطأهن أخيرا فأغرقن فى الضحك . .

وفجأة سمعت صوت رجل فى الردهة ورأيت وجه كارولينا الضاحك يكفهر ويصفر فجأة . .

وقالت لى بعد أن خرجت الفتيات من الغرفة ودون أن أوجه اليها أى سؤال :

ـ إنه البرتو . . صديق صاحبة البنسيون . . جندى بحار فى البحرية . . ولا أدرى لماذا هو فى بوخارست الآن . . إنه عجيب . .

وخرجت من الغرفة ولعلها كانت تريد أن تتأكد من أنه البرتو حقيقة وغابت طويلا ثم عادت بعد مدة وكانت هادئة كما ألفتها . .

ورأيت البرتو فى الردهة ونحن خارجان . . ومع أنه قابلنى ببشاشة ولكننى لم أسترح إلى تعبيرات وجهه . . فقد رأيت فيه وجه أفاق !

ولم تحدثنى كارولينا عنه ونحن نتجول فى المدينة . .

ولما عدنا فى الليل رأيناه جالساً فى المدخل كأنه فى انتظارنا . . . وكان معه شاب آخر ، وقال إنه أعد لنا العشاء ، ولما عرف أننا تناولنا العشاء فى الخارج أظهر أسفه . . ووقف يتحدث مع كارولينا قليلاً ، وقالت لى إنه يريد أن يحيينى بأن يقدم لى بعض الشراب الوطنى فلم أرفض . . . وجلسنا جميعاً إلى المائدة . . وكان البرتو يتكلم الفرنسية والإنجليزية أحسن من كارولينا . . أما زميله فلم يكن يعرف غير لغته . . وشربت كأسين من شرابهم الوطنى ، وهو أبيض كالزبيب ، ولكنه شديد المفعول وعندما ملأ لى الكأس الثالثة رفضت أن أشرب ولم يلح . . وجلس مبتسماً يشرب ويدخن . .

ورفعت المائدة ووضع عليها مفرش أخضر وبقينا فى مكاننا حولها ، وجاءت إحدى

الفتيات بورق اللعب ووضعته أمامنا . . وأخذ هو يوزع الورق فى صمت ووضع ورقتين أو ثلاثا . . أمامى ، ثم أخرج كل منهم بعض النقود من جيبه وأخذوا يلعبون . .

وسألنى لما وجدنى لا أشترك فى اللعب :
- لماذا لا تلعب . . . ؟
- لأننى لا أعرف القمار . .
فنظر إلى كارولينا بغضب ، ثم سألنى فى دهشة :
- لا تعرف القمار . . ؟
- لم ألعبه فى حياتى . . .
- إطلاقاً . . ؟
- إطلاقاً . . .

فنفرت عروق وجهه من الغضب ، ولكنه كظم غيظه . . وقال بابتسامة صفراء :
- إذن تتفرج علينا . .
ولعبوا ساعة . . وطويت المائدة ، ونهضنا جميعاً لننام . .

ودخلت غرفتى . . وغابت كارولينا عنى ثم جاءت ، وكنت قد خلعت ملابسى واستلقيت على السرير . . ولاحظت أنها صامتة ، وأن المرح قد ذهب عنها . . لم أسألها عن السبب ، وكانت تدخن بشراهة . . وعلى وجهها سمات التفكير العميق ، ثم نهضت وأغلقت باب الغرفة بالمفتاح . . وأنزلت ستر النافذة . . ونظرت إلى مبتسمة . . وقد عاد إليها بشرها سريعاً . . .

وأخذت تفك أزرار قميصها . . ثم قالت وهى تسقط الجونلة على الأرض :
- أتسمح بأن أطفىء النور . . . ؟
وقد عجبت لهذا من فتاة مثلها . . لها جسم فينوس . . وتعرف أننى رأيتها من قبل أكثر من مرة . . بلباس البحر . . !

وأطفأت النور . . وأخذت تخلع ملابسها فى الظلام . . وبقيت بالقميص . . .

وأخذت تتحرك فى أرض الغرفة . . جيئة وذهاباً . . ثم أضاءت المصباح . . ووقفت أمام المرآة وقد عاودها التفكير والقلق . . فتصورت أنها عذراء . . وأنها تخشى أن تمر بالتجربة الجديدة . .

ونظرت فى المرآة طويلاً . . وبدلاً من أن تسرح شعرها نفشته بيديها وتركته ينسدل على جبينها ويغطى عينيها . .

وعندما اقتربت منى كانت دافئة . . ومشتاقة . . وكأنها تنتظر هذه الساعة كما انتظرتها . . .

وقالت وقد أسبلت عينيها فى الظلام :
- أليس عجيباً . . أننى حتى الآن . . لا أعرف إسمك . . ؟!
- عبد الحميد . . .
- السلطان عبد الحميد ؟ . .
- إنه إسم لا يشرف . . .
- لماذا . . إنه سلطان . . ؟
مؤامرات . . خيانة . . وقتل . .
- إذن . . سأسميك اليوشا . .
- اليوشا . . !؟
- أجل اليوشا . . . فيك كل صفاته . . بساطة . . وطيبة . . ونبل ولم أكن أعرف اليوشا هذا الذى تعنيه لأننى لم أكن قد قرأت «إخوان كارامازوف» بعد . . وسألتها :
- وهل أحب اليوشا . . . ؟
- طبعاً . . .
- من . . ؟
- كارولينا . . .
وضمتنى إلى صدرها وضحكت . . .

وبدأت أغفو . . ثم خيل إلى . . أننى أسمع نقراً خفيفاً على الباب فلما تسمعت جيداً . . وأرهفت أذناى لم أسمع شيئاً . . وأغلقت عينى . . محاولاً النوم . . وكان قد نال منى التعب . . فأخذنى النعاس وصحوت على صياح شديد . . فقمت فزعاً . . ولم تكن كارولينا بجوارى . . ولما أضأت نور الغرفة وجدت الباب مفتوحاً . . . وكان الصياح قد اشتد فخرجت مهرولاً . . فوجدت كارولينا ملقاة على الأرض وبجانبها الفتيات . . وكانت الدماء تسيل على وجهها . .

وكان البرتو واقفاً هناك فى البهو . . منتصباً وهو فى حالة هياج وخبل . . وحوله رجلان لم أرهما من قبل . .

وتقدمت من كارولينا مسرعاً . . وفى تلك اللحظة . . دخل رجال البوليس من الباب الخارجى . . وحاول الموجودون إسعاف كارولينا . . ولكنها كانت غائبة عن وعيها تماماً . .

وأخذ رجال البوليس البرتو وانصرفوا . . وحملت عربة الإسعاف كارولينا . . وأنا

بجوارها إلى أقرب مستشفى . .

وعندما فتحت عينيها وهى راقدة فى المستشفى وجدتنى جالساً . . قرب سريرها أمسح على يديها فى رفق وحنان . . وسألتنى :

- هل قبضوا عليه . . ؟
- أجل . . .
- إنه هارب من البحرية . . وسيسجن .
- يسجن !؟
- طبعاً . . . هل أنت آسف عليه ؟
- إنه مسكين . . وهناك جانب للخير . . دائماً فى كل إنسان . .
- أى . . أليوشا . . إنه كان يريد سرقتك وقتلك .
- إن هذا لا يغير من الأمر شيئاً . . وستنتهى حياتى على أى وجه من الوجوه . . . ولكن من الذى أخبره أن معى نقوداً . . !؟
- أنا . . .

ونظرت إليها مدهوشاً . . وسألتها :

- أنت . . . !؟

- أجل . . أنا الذى أخبرته فى ساعة ضعف ككل النساء . . واتفقنا على سرقتك والهرب معاً . . خارج الحدود . . ولكن عندما هممت بذلك تذكرت شيئاً حدث منك فى الطريق . . شيئاً بسيطاً . . ولكنه أثر فى أبلغ تأثير . . تذكرت أنك خلعت سترتك لتغطينى بها وأنا نائمة فى القطار . . أنت الغريب تفعل هذا . . وتصورت مبلغ حقارتى . . . وأنا أخون الإنسان الأول الذى التقيت به فى حياتى . . فتراجعت . . ولما نقر على الباب . . ولم أفتح له . . ولما عاود الطرق تناومت . وأخيراً . . خرجت لأواجهه بالحقيقة . . .

وقربت شفتى من شفتى كارولينا . . لأمنعها من الكلام !

حارس المحطة

لقد أغفل عامداً ذكر الشىء الوحيد الذى
أسره ، وفتنه ، وملك عليه مسالك تفكيره حتى
عاوده الحنين إلى رؤيته مرة أخرى . . .

كان أبو منصور حارس محطة منقباد ، وهى محطة صغيرة على مشارف مدينة أسيوط ، وهى ككل المحطات الصغيرة التى على خط الصعيد كئيبة وفقيرة وموحشة فى الليل وفى النهار .

وكانت القطارات السريعة لا تقف فى هذه المحطة . . ولكن وجود حامية منقباد فى هذه المنطقة جعل المصلحة توقف بعض هذه القطارات ، لينزل منها الضباط والجنود إلى ثكناتهم القريبة ، كما أن المحطة أصبحت مركز تموين لهذه الحامية . . ولهذا تقف فيها قطارات البضاعة وتفرغ حمولتها على رصيفها .

وكان عبد الجليل أفندى معاون هذه المحطة رجلاً قصير القامة ، أصلع الرأس ، عريض الجبهة ، أفطس الأنف ، يضع على عينيه السوداوين منظاراً ويرتدى بذلة المصلحة ويخرج من مكتبه الصغير يستقبل القطارات ويودعها ويلوح بيده لعامل الإشارة ، ويرقب السمافور ، ويلاحظ عامل البلوك ، ويعطى التذاكر للمسافرين ، ويعد البضائع النازلة على الرصيف ويفعل كل شىء فى المحطة . . لأنه الموظف المسئول فيها ، فهو ناظر المحطة ومعاون المحطة ، وأحياناً يستلم الوردية فى الليل من عامل التذاكر «الروسبيت» وهى شىء ضئيل بائس أفنى عمره فى خدمة المصلحة والتصق بقضبانها وأصبح يعيش فى جو المحطات منذ ثلاثين عاماً حتى غدا قطعة منها .

المناورة . . المنافستو . . السمافور . . البلوك . . الفحم . . الدخان . . العجلات . . البخار . . ٨٨ مر . . ٩١ متأخر ربع ساعة . . الاكسبريس داخل فى الميعـــاد .

هذا هو حديثه ، وهو قد ألف هذا الجو ، واستراح إلى هذه الحياة ، ونسى بؤسه ومتاعبه فى غمرة عمله المتواصل . . ولكنه حط نقمته على الفلاحين فما من واحد من هؤلاء

يستطيع أن يركب من محطة منقباد بغير تذكرة ، أو ينزل من القطار بدونها . . إنه يقف لهؤلاء بالمرصاد . .

ويصيح عندما يضبط واحدا من هؤلاء اللصوص الذين يسرقون مال المصلحة ـ كما كان يسميهم بأعلا صوته :

ـ ياأبو منصور . . .

ويقبل الخفير من بعيد وهو يذرع الرصيف فى تمهل . . وتبدو قامة مارد ضخم فى غبش الغسق .

ـ خد الواد ده على النقطة .

وعندما يسمع الفلاح المسكين كلمة النقطة ينكمش ويستنجد ثم يدفع التذكرة والغرامة ويمضى .

ويعود أبو منصور إلى مكانه على الرصيف يفتل شاربه الضخم ، ويرقب الليل الزاحف بعينى صقر ، وكان أبو منصور خفير هذه المحطة منذ خمسة عشر عاما ، وعلى الرغم من أنها تقع فى منطقة تكثر فيها حوادث السطو والنهب ، فإنه لم تقع فيها حادثة سرقة واحدة ، فقد كان من أشد الحراس بأسا . كانت العربات المحملة بالبضائع والماشية تدخل المحطة وعليها حراسها الخصوصيون . . بين كل عربتين أو ثلاث عربات من هذا القطار الطويل يجلس رجل مسلح ، ولكن أبا منصور كان يمر عليهم جميعا واحدا واحدا ويقول بصوته الأجش :

ـ ناموا ياجدعان . . فالحارس هو الله . . .

وكان صوته القوى يبعث فيهم الاطمئنان فينامون فعلا ويظل أبو منصور ساهرا وحده . .

وكانت مدينة أسيوط تتوهج على بعد وهى قائمة عند سفح الجبل ، وتبدو المصابيح كأنها النجوم اللامعة فى سماء حالكة الأديم . .

وكان على يسار المحطة العزب الصغيرة بنخلها وأكواخها الحقيرة وكلابها التى تظل تنبح طول الليل . .

وكان الظلام فى الليالى التى لا يظهر فيها القمر يضرب برواقه على كل شىء ، ولا ترى إلا بصيصا من النور فى بعض الحقول البعيدة حيث يصطلى الفلاحون بالنيران أو يصنعون الشاى على أعواد البوص والحطب .

وكان النيل قريبا من المحطة وهو يلتوى فى هذه الجهة ، ويبلغ مجراه حده من

الاتساع ، وكانت المراكب الشراعية تبدو دائما على سطحه مقبلة مدبرة وأشرعتها البيضاء تخفق فى قلب الليل كالأعلام ، وكان السكون عميقا .

وعندما تمر القطارات السريعة وهى تنهب الأرض مصفرة عاوية يظل صفيرها ودوى عجلاتها يتردد صداهما فى الجو مدة . .

وكان أبو منصور يسمع هذا الصدى يتردد وهو يذرع رصيف المحطة مقبلا مدبرا فى خطوات متزنة ثقيلة ، وحذاؤه الضخم يضرب فى الأرض ، وعينه على العربات الواقفة فى المنطقة مكدسة بأحمالها . . وكان دركه من كشك المعاون إلى آخر حدود المحطة .

وكان عطية العبيط ـ وهكذا كان يلقبه الناس ـ يعمل متطوعا فى هذه المحطة الصغيرة كفراش وشيال معا ، فهو يكنس وينظف مكتب المعاون وبعض الأحيان يكنس المحطة كلها ويحمل الحقائب للضباط من المحطة إلى السيارة ويحمل العشاء «لأبى منصور» كل ليلة من بيته ويشتغل مع الحمالين فى نقل البضائع من العربات إلى الرصيف ، وينزل الطرود ويشحنها ، ويقف على طريق السيارات يستوقف هذه السيارات للركاب ، ويذهب إلى مدينة أسيوط يشترى الإسبيرين لمعاون المحطة الذى يشكو من صداع مزمن . . فإذا كان فى أسيوط واستبطأ القطار فى العودة جرى فى نفس واحد إلى منقباد ، أو نسى نفسه وذهب إلى شرق الخزان يدير حركة المرور فى الموقف ، ويركب الفلاحين فى سيارات الأجرة الصغيرة ، ويأخذ من كل سائق أجرة مهما كان فهو لا ينسى أتعابه أبدا ، ولكنه لا يبالغ فى هذه الأتعاب ، فإذا أعطيته قرشا واحدا حمد ربه وشكر .

وإذا انطلق إلى عمل آخر فهو جم النشاط لايضيع وقته فى المساومات . . وهو مع تفاهته وعبطه يعمل أعمالا تدل على ذكاء مفرط ، فهو يتخذ من سوق منقباد يوم السبت وسيلة طيبة لرزقه . . يقف على شريط المحطة ويأخذ من كل فلاح يعبر الشريط فى طريقه إلى السوق نصف قرش ولا يستثنى من ذلك إلا النساء ، ويقول لهم إن ذلك ضريبة الحكومة ، ويدفع الفلاحون صاغرين .

وكان ينام على الرصيف إلى جوار مكتب المعاون وليس على جسمه فى فصل الصيف أو الشتاء سوى جلباب واحد أزرق ممزق الأطراف لكثرة عدوه فى الطرقات ، وهو عارى القدمين بارز الصدر ممتلىء الجسم ، أسمر ، متوسط الطول ، مستدير الوجه ، فى عينه اليمنى حول خفيف ، وفى ساقيه اثار ندوب تمتد إلى قدميه .

وكان يظل ساهرا فى المحطة يتحدث مع «أبو منصور» فاذا سمع حركة الإشارات فى البلوك ذهب إلى العامل وظل معه يشربان الشاى الأسود ويدخنان حتى مطلع الفجر .

فإذا رأى وهو جالس فى الكشك مركبا شراعيا راسيا على الشط . . ترك صاحبه

واندفع إلى المركب كالمجنون ، ويغيب عن المحطة أسبوعا أو أسبوعين ثم يعود فجأة :

فإذا سئل أين كان طوال هذه المدة . .

قال وعيناه تلتمعان :

ـ كنت فى مصر ياعم . . عمار يامصر . . زرت الأسياد . .

ويجتمع حوله الفلاحون . . وينطلق يحدثهم عن رحلته فى النيل . . والأشياء التى شاهدها فى القاهرة . . والمساجد التى زارها . . وعيونهم تحدق فى وجهه وأيديهم تلمس ثيابه التى تبركت بالأسياد .

يصف لهم المركبات التى تجرى بالكهرباء . . والأنوار التى تخطف الأبصار . . والمساجد العظيمة والقباب الشامخة . . والقصور التى من الذهب .

ويهمهم الفلاحون :

ـ من الذهب . . . ؟

سأله واحد منهم وقد أخذه العجب :

ـ أيوه . . وروح شوف . .

ويقول آخر :

ـ ياما فى الدنيا ياما . . اللى يعيش ياما يشوف . . .

وينتهى الحديث . . ويظل عطية ساهما يسترجع أيامه الحلوة فى القاهرة

وذات ليلة من ليالى الشتاء كانت البرودة على أشدها ، والظلام مطبقا ، والرياح تعوى وتصفر . . وكانت أشجار النخيل تتمايل مع الريح وتئن فروعها وتتوجع ، وكنت لاتسمع وأنت واقف فى المحطة إلا صوت الرياح الهوج ، صفير القطارات السريعة وكانت قطارات البضاعة تجلجل عجلاتها على القضبان ، ووقف قطار من هذه القطارات فى المحطة ، وعلم أبو منصور أنه سيظل إلى الصباح ، ولهذا ضاعف انتباهه وأخذ يسمع الليل صوته ويهتف من حين إلى حين :

ـ من هناك . . ؟

وكان بصره حديدا وسمعه قويا . . وكان الظلام شديدا يضل فيه البصر ولكن إذا مر الإكسبريس وسلط نور الكشاف تحول كل شى فى المحطة إلى نهار مبصر .

ووقف أبو منصور عند كشك التذاكر يتحدث مع العامل وقد وضع البندقية على كتفه وسمع رنين جرس التليفون فى الكشك وحركة السيمافور وهو يفتح الطريق .

وكان الظلام على أشده ، والنجوم كابية فى السماء ولا شىء يبدو غير الجهامة المطبقة ، والليل الذى ليس بعده ليل .

وكانت الرياح تصفر فى أسلاك البرق الممتدة بجانب الخط الحديدى ، وتهز الأعمدة وأوراق الأشجار الصغيرة . . وكانت حركة السيمافورات لاتنقطع يبدو نورها الأحمر ثم يخبو .

وكان أبو منصور قد ارتدى معطفه الثقيل ، وأخذ يذرع الرصيف متمهلا ويمر على قطار البضاعة الواقف هناك عربة عربة . .

ثم عاد مكانه الأول عند الكشك وهو يمشى ببطء .

ثم توقف وعينه على الخط الحديدى وجلس على صندوق من الصناديق الملقاة على الرصيف ، وأنزل بندقيته واعتمد بذقنه عليها وأرسل بصره إلى الشرق .

وسمع حسا فتلفت ، وتسمع ، ونهض ونصب قامته ، واتجه إلى مصدر الصوت ، وكان فى العربات الخلفية من قطار البضاعة .

ولما اقترب من العربة سمع الحركة بوضوح ، فانزوى بين عربيتين وهتف :

ـ من هناك . . ؟

فلم يرد عليه أحد . . فكرر المناداة . . فسمع على التو حركة شديدة . . ورأى رجلا يجرى على الشريط حاملا شيئا على ظهره . .

فهتف به :

ـ قف . . . قف . . .

وأرسل طلقة من بندقيته فى الهواء ، ولكن الرجل ظل يجرى وزاد من سرعته . .

وكان قطار الإكسبريس قادما من بعيد يطوى الأرض طيا فابتعد أبو منصور عن الخط ورأى الرجل لايزال يجرى كالمجنون على الشريط . . ولما مر القطار جرى أبو منصور ولمح الرجل ملقى على الشريط . . ولما اقترب منه عرفه . . .

كان عطية العبيط وقد مزقه القطار .. بعد أن أغراه الشيطان على السرقة فى هذه الليلة لأول مرة فى حياته .

كان عطية وهو يحدث الفلاحين عما شاهده فى مصر ، قد أغفل عامدا ذكر الشىء الوحيد الذى أسره وفتنه وملك عليه مسالك تفكيره حتى عاوده الحنين إلى رؤيته مرة أخرى .. نساء القاهرة ... بسيقانهن العارية ! ..

آحسست بمثل النار تحرقنى وتشوينى . . .
وتصورت أن النار تشتعل فى جيبى الأيمن . . .
حيث وضعت النقود التى . . . . . .

حدث هذا منذ سنوات وأنا فى سن الصبا . . ومرت على بعد ذلك الأيام والأحداث . . وتغيرت . . وتغيرت الحياة معى . . ونسيت كل ما مر من صور . . ولكن هذا الذى حدث لم أستطع أن أنساه وأنا أتصوره الآن وأرويه كأنه حدث بالأمس . . بالأمس القريب . .

كان ذلك فى أول يوم فى الشهر . . شهر سبتمبر من عام ١٩٢٨ . . وكنا فى هذا اليوم نستيقظ مبكرين لندور على عملائنا فى دواوين الحكومة والشركات الكبرى لنحصل منهم على أقساط التأمين . .

وكنت محصلا فى الشركة السويسرية للتأمين على الحياة . . وعملائى من أحسن العملاء . . فكانوا يدفعون القسط الشهرى والسنوى بارتياح وثقة . . وندر منهم من كان يعتذر عن الدفع . .

وبدأت بوزارة العدل . . ثم انتقلت منها إلى المالية . . وكانت الساعة قد اقتربت من التاسعة صباحا . . وأنا أجتاز الدهاليز المظلمة فى تلك الوزارة . . ومشيت فى الطرقة الطويلة فى الدور الأرضى . . وكانت مزدحمة بالرجال والنساء الذين يصرفون ماهياتهم ، ومعاشاتهم فى هذا اليوم من الشهر . . وأحسست وأنا أتحرك بمشقة فى هذا المكان المظلم بيد تجذبنى من الخلف . . فتلفت . . فوجدت عبد الرازق بك وكان رئيسى فى الشركة قبل أن يوظف فى وزارة المعارف . .

وسألنى :

- رايح الخزينة ؟ . .
- لأ . . أنا طالع فوق . . وبعدين حمر على سعادتك . .

- طيب اعمل معروف . . أنت كنت صراف هنا . . وتقدر تدخل الخزينة من

جوا . . فك لى الورقة دى . . فضة جديدة . . خمسة . . عشرة . . والباقى جنيهات . . وأنا منتظرك فى المكتب . . وخلص شغلك أولا . .

ولم أستطع أن أعتذر . . وتناولت منه الورقة ذات الخمسين جنيها . . ووضعتها فى جيبى . . وصعدت إلى الدور العلوى وأنجزت عملى . . ثم دخلت الخزانة وصرفت الورقة . . جنيهات جديدة وفضة جديدة . . وطويت هذا كله فى كيس من القماش الحريرى الأصفر وضعته فى جيبى ، واتجهت إلى وزارة المعارف حيث مكتب عبد الرازق بك حسين ، ورأيت وأنا أجتاز طرقة الدور الثالث فى مبنى الوزارة هرجا . . وموظفين وفراشين يخرجون من غرفهم مسرعين . . ثم يعودون إليها . .

وسألت أحد السعاة عن الخبر . . فقال :

ـ وكيل الإدارة . . مات بالسكتة . . وهو على المكتب . .

ـ وكيل الإدارة مين . . ؟

ـ عبد الرازق بك . .

وبحركة لا شعورية وجدت يدى توضع فى جيبى الأيمن . . لأتحسس النقود . . وتقدمت حتى وقفت مع الموظفين على باب غرفة الميت . . ودخلت مع من دخل الغرفة . .

ولم يكن هناك إنسان واحد أعرفه . . فى داخل الغرفة أو خارجها . . فوقفت أفكر فيما أفعله لأسلم الأمانة التى معى إلى أسرة المرحوم . . وكان الموظفون يتحدثون فى التليفون . . ويتحدثون مع بعضهم البعض . . ويطلبون الإسعاف . . ويتصلون بأقرب مستشفى . . ويسألون عن طبيب . . وكل ذلك فى لحظة واحدة . .

ثم حملوا الرجل أمامى وأنزلوه إلى الدور الأرضى . . وهناك وضعوه فى عربة . . ومضت به مسرعة . .

وخيم السكون على كل شىء من جديد . . وكأن لم يحدث شىء . . وعادت الحياة تجرى وشعرت وأنا أغادر المبنى الضخم . . وأخرج من شارع الدواوين كله أن المسألة انتهت بالنسبة إلى كما انتهى الرجل . . فى لحظة خاطفة . . وأن الأقدار وضعت هذا الرجل فى طريقى فى بكرة الصباح ليعطينى هذا المبلغ ثم يموت . . فالمبلغ من حقى لأنه منحة . . من السماء . .

وأنا لا أعرف ورثة المرحوم . . وربما لو ذهبت إليهم وقدمت لهم المبلغ ظنوا بى الظنون . . وتصوروا أن الخمسين . . كانت مائة . . أو مائتين من يدرى ؟ . . فلماذا أجر المتاعب والمشاكل لنفسى . . والرجل موظف . . وما أكثر المرتشين فى الموظفين . . فلابد أن يكون المرحوم منهم . . وبمثل هذه الخواطر أقنعت نفسى . . وصرفت النظر عن السؤال

عن الورثة لأعطيهم المبلغ . . كماصرفت ذهنى عن التفكير فى الموضوع . .

ولكن عندما نشر نعى الرجل فى صحف بعد الظهر وجدتنى أهتم به وعرفت موعد الجنازة . . ومن أين تتحرك . . وذهبت إلى هناك كأنما كنت أود أن أطمئن على أن الرجل قد مات حقا . . وسمعت الصراخ والعويل . . ووجدت أطفالا صغارا يبكون فى حرقة وعلمت أنهم أبناء المرحوم . . وكان منظرهم يفتت الأكباد . . فقد تركهم عائلهم فجأة دون سابق إنذار . .

وأحسست بمثل النار تحرقنى . . وتشوينى . . وأنا أشاهد هؤلاء الأطفال الصغار . . وتصورت أن النار . . تشتعل من هناك . . من جيبى الأيمن حيث وضعت الكيس الحريرى الأصفر وبداخله النقود . . التى اغتصبتها . . وتحركت يدى . . فى جيبى حتى لمست الكيس . . ثم دارت به وتصلبت عليه . . ثم رفعته . . إلى أعلى . . ولكن . . فى داخل الجيب . . فى دائرة النار . . وهتفت بأحد الأطفال فعلا لأعطيه المبلغ وأطفىء النار المشتعلة . .

ولكنه لم يسمعنى . . وكانت الجنازة قد تحركت . . فمشيت وراءها مع المشيعين . .

وفى المساء . . ذهبت إلى بيت الرجل . . وجلست مع المعزين . . وعرفت أرملته . . وتصورت أنها تنظر إلى وتقول :

ـ هات قوت عيالى . . إننا مساكين . .

ولكننى أبقيت المبلغ معى . . ودارت عجلة الحياة . . وصرفته . . ذهب كما تذهب وتجىء النقود . . لرجل مثلى يعمل فى الشارع وينتقل من عمل إلى عمل . . ويربح كثيرا ويخسر . . ومرت السنوات ونسيت ما حدث . .

وحدث ذات مساء أن ركبت قطار الشلال من محطة ملوى . . وكنت فى طريقى إلى القاهرة وأنا معتاد أن أقطع المسافات الطويلة فى الدرجة الثالثة . . فركبت فى العربات الخلفية وجلست بجوار النافذة . . وكان معظم الركاب نائمين . .

وتحرك القطار . . ثم انطلق كالسهم . . يثير الغبار . . ويطوى المدن طيا . . وبعد أن أشرق النور . . رأيت بعض الركاب يتجمعون فى ركن من العربة . . ثم تفرقوا ولم أشغل نفسى بهم . . إذ تصورتها خناقة على شىء ككل الذى يحدث بين الركاب . .

ثم وجدت رجلا ضخما يدخل العربة ومعه جندى من جنود البوليس والكمسارى . . وابتدأوا يفتشون الركاب . . واحدا . . واحدا . . بعد أن

حاصروا العربة من بابيها . .

ولم أجد راكبا واحدا يعترض على هذا التفتيش غير القانونى . . وكيف يستطيع ذلك هؤلاء الفقراء المساكين . .

وسألت راكبا يجلس عن قرب . .

- إيه الحكاية . . ؟

- واحد من الركاب . . سرقت منه ورقة . . بخمسين . . وهو نائم . . وصعد الدم إلى وجهى فجأة . . وشعرت باضطراب عنيف . . وأخذت أتمتم . . ورقة بخمسين . .

وإذا بالحادث الذى كنت أتصور أننى نسيته قد برز فجأة من أعمق أعماق نفسى . . وأخذت أحدث نفسى .

ورقة بخمسين . . لازم تنسرق . . ورقة بخمسين بالذات . . بخمسين وكان فى جيبى ورقة واحدة بخمسين جنيها بالفعل وبعض الفكة . . وتصورت كل ما يحدث عندما يفتشنى المخبر . . ويعثر على الورقة . . ورقة بخمسين جنيها كالتى سرقت من الرجل . .

تصورت كل ما سيحدث . . وأدركت أن ساعة الجزاء قد حلت . . فقد سرقت الرجل منذ أكثر من اثنى عشر عاما . . وحرمت عياله من قوتهم . . وكنت أتصور أن كل شىء قد انتهى . .

ولكن . . إن عين الله لا تغفل . .

وفى غفلة من الركاب وحذر . . أخرجت الورقة ذات الخمسين جنيها من جيبى وأسقطتها من النافذة . .

وعندما جاء دورى فى التفتيش نظر إلى المخبر وقال :

- لأ . . سيبو الافندى . .

ولم أفتش . . .

كان منطرحا بكامل ملابسه على السرير ، محتقن الوجه ، وعيناه حمراوين فى لون الدم ، وسحنته سحنة ذئب أغبر ، حيل بينه وبين فريسته . . .

كانت الحرب دائرة بين الألمان والإنجليز فى الصحراء الغربية . . وكان الإنجليز وحلفاؤ هم يفرون مذعورين كالجرذان أمام ضربات روميل القاصمة .

وأخذوا يحرقون أوراقهم فى القاهرة ويعدون العدة لنسف الكبارى والمنشآت العامة وتدمير المدن المصرية على أهلها الوادعين . . كانوا ينسحبون انسحابا عاما . . ويعودون من الميدان شاعرين بمرارة الهزيمة ، فيرتكبون فى العاصمة أبشع الجرائم . .

وكانوا وهم يتراجعون فى ذعر يرسلون قوافلهم عبر الصحراء تحمل ما تبقى لهم من الرجال والعتاد .

وخرجت سيارة من هذه السيارات من معسكر العباسية متجهة الى الميدان وكان بها خمسة من الإنجليز وسائق العربة وكانت قد مرت من النفق وهى تمضى سريعا فلما صعدت المنحدر واستوت فى أول شارع الهرم تمهلت قليلا .

وكانت توحيدة ورفيقتها انشراح عائدتين الى البيت . . وكانتا تسرعان قبل الغروب وقبل ظلام الحرب .

مرت بجانبهما السيارة وبعد أن تجاوزتهما قليلا توقفت فجأة ونزل منها جندى بريطانى فى قفزة سريعة وأمسك بتوحيدة . . . وهربت رفيقتها مذعورة بين المزارع وهى تولول وتصيح بأعلى صوتها .

وتجمع الناس فى الشارع ، ولكن الجنود الإنجليز كانوا قد حملوا توحيدة الى السيارة وانطلقوا بها فى سرعة المجنون .

ونظر الناس بعضهم الى بعض وكانوا يعلمون أنه ليست هناك قوة يمكن أن تحميهم من هذا العدوان المسلح ، أو تجعلهم يقابلونه بمثله . . فاصفرت وجوههم .

أما انشراح فقد جرت الى منزل توحيدة وأخبرت زوجها بما حدث فخرج يعدو كالمجنون إلى شارع الهرم .. هناك طالعه الظلام والسكون فلم يكن هناك أثر لسيارة أو ظلها فوقف يدير عينيه حائراً كالمخبول .. ثم انطلق فى عرض الشارع وقد شرد ذهنه وشلته الفاجعة المباغتة عن أى عمل .. وعندما اقترب من النفق رأى جماعة يقفون على واجهة حانوت بقال ويقصون الحادث .. فنظر إليهم فى غيظ وقال لنفسه :

- هذا ما تصلحون له أيها الجبناء .. تتجمعون وتتحدثون كالنساء ..

وكان قد فكر فى أن يذهب إلى مركز البوليس .. ثم عدل عن هذه الفكرة وهو يقول لنفسه :

- وما الذى سيفعله لى البوليس ..؟

لا شىء ...

وارتد عائدا الى منزله .. واستلقى بكامل ملابسه على السرير دون أن يشعل النور ... وقد رأى أن يترك البيت كله فى الظلام حتى لا يزعجه المتطفلون والمواسون بأسئلتهم السخيفة .. فيزيدونه تعاسة على تعاسة ..

وكان يدخن والظلام على أشده ، ونافذة الغرفة مفتوحة ، وألسنة الأنوار الكاشفة تضىء السماء .. ولم يكن فى البيت أحد سواه .. وكان قد تزوج توحيدة منذ خمسة شهور فقط ..

كانت فقيرة مثله .. ولكنه كان سعيدا بفقرها .. وكان يحبها حبا جما .. كانت كل شئ له فى الحياة .. وكل أمانيه وكل أحلامه .. واستقرت آماله كلها عليها وتجمعت فيها ..

وكان يعمل فى شركة من شركات الدخان الكبيرة فى منطقة الجيزة ، ولذلك أجر هذا المسكن قريباً من الشركة .. ليخرج من عمله طائراً إليها مرتمياً فى أحضانها .. فقد كانت تنسيه همومه ومتاعبه ومشاغل النهار كله وما يلقاه فى الحياة والمصنع من عنت وإجهاد ..

وكان يحمل إليها كل شىء بنفسه من السوق حتى لا تخرج من البيت فقد كانت جميلة باسمة كورد الربيع ..

وكان يغار عليها حتى من شعاع الشمس الساقط على وجهها ..

ولكنها خرجت اليوم هى وجارتها انشراح لزيارة أمها وذهبت من غير رجعة .. اختطفها الأنذال ..

وقبل منتصف الليل سمع الباب الخارجى يفتح . . ودخلت توحيدة . . ولم يتحرك من مكانه ولم يبادلها كلمة . .

وكانت قد أشعلت نور الردهة ثم ارتمت على كنبة ملاصقة للباب . ولو لم تكن الكنبة مكانها لارتمت على الأرض فقد كانت فى حالة من الإعياء التام . . وكان وجهها مصفرا وشعرها منفوشا وملابسها ممزقة فى أكثر من موضع من جسمها .

وكان من يراها وهى متكورة على الكنبة وقد دفنت رأسها فى الوسادة وقوست ظهرها ووضعت ساقيها تحت فخذيها وتركت ضفائر شعرها محلولة تغطى عنقها وتمتد الى ظهرها يتصور أنها ضربت عارية بالسياط حتى أدمت وحتى تقطعت أنفاسها .

وكانت قد أدركت بحسها بعد أن دخلت وألقت بنفسها على الكنبـة . أن زوجها سعيد راقد هناك فى الغرفة الأخرى متيقظ . . وقلق . . وتنهش رأسه الخواطر المروعة التى دمرته تدميرا . . وشلت جسمه ومنعته من الحركة . .

وبقيت فى مكانها إلى الصباح . . ومع خيوط الشمس تحركت ودخلت غرفته . . . كان لا يزال على حاله منطرحا بكامل ملابسه على السرير . . . وأعقاب السجائر ملقاة فى كل مكان من الغرفة . . وكان وجهه محتقنا وعيناه حمراوين فى لون الدم . . . والدم ينفر من عروق جبهته ، وسحنته سحنة ذئب أغبر حيل بينه وبين فريسته . .

وقالت له بصوت خافت وهى تتناول قميصا لها من فوق المشجب :

- مش رايح الشغل يا سعيد ؟ . .

فلم يرد عليها وأغمض عينيه حتى لا يراها . . ورأت وجهه يتقلص على صدره . . وغيرت ملابسها الممزقة وخرجت إلى المطبخ وأعدت له فنجان الشاى الذى تعده له كل صباح ووضعته بجانبه . . وخرجت . . وبعد قليل عادت فوجدت الفنجان لم يمس . . فلم تقل شيئا . .

وانتابتها نوبة صرع . . وأخذت تنشج وتتمتم بكلام لا معنى له . . كانت تود أن تقول له إن أحدا لم يمسها وانها قاومتهم وأعملت فيهم أظافرها وأسنانها ولما يئسوا منها ألقوها فى العراء . .

كانت تود أن تقول له هذا . . . ولكنها لم تستطع . .

ولم يدر بماذا تتمتم . . . ولم يسمع شيئا . . كانت نار مشتعلة فى جسمه . . وكان لهب أحمر يشتعل هناك فى رأسه ، وثورة عاتية قد اجتاحته . .

كان لا يفكر فيها ، ولا يحس بوجودها ، وإنما يفكر فى هؤلاء الأنذال الذين دنسوا شرفه ويتصور ما حدث كله على بشاعته . . يتصورهم وهم يضعون أيديهم الدنسة على جسمها ويقضقض ويصرف بأسنانه من الغيظ ويود أن يحطم كل ما حوله تحطيما . .

ورآها تخرج ملابسها من الدولاب وتضعها فى حقيبتها . . ثم سمعها تقول :

- أنا ماشية يا سعيد . .

ولم يقل لها كلمة . . ولم يتحرك من سريره وسمعها تفتح الباب وتخرج . .

وفى الليلة التالية خرج سعيد فى فحمة الليل . . وكمن فى طريق السيارات الإنجليزية الذاهبة الى الميدان ورأى سيارة تخفف من سرعتها ورأى على ظهرها ثلاثة أو أربعة جنود واقترب كالثعلب حتى احتمى فى جذع شجرة وأطلق الرصاص وسمع صرخة مفزعة . . ثم أخذ يعدو بكل قوته .

وكانت النيران الحامية تطلق فى أثره ، والأنوار الكاشفة تسلط عليه وأصيب فى فخذه ، ومع ذلك ظل يجرى حتى بلغ منزله .

وكانت ملابسه قد تلطخت بالدم النازف من جرحه . . وبلغ منه الإعياء مبلغه ومع ذلك شعر براحة نفسية وبفرحة كبرى لأنه انتقم لعرضه وشعر بحنين إلى زوجته وود لها لو أنها كانت معه الآن ليعانقها . .

وكانت أعصابه قد هدأت وشعر بحنين الى النوم . . فنام . . واستيقظ فجأة على حركة شديدة على السلم وتسمع وعرف أنهم تقصوا أثره وعرفوا مكانه . .

واشتد قرع الباب وسمع صياحا بالعربية والإنجليزية وحركة نعال ضخمة تهز الباب . . وأمسك مسدسه وأطلق على نفسه الرصاصة الأخيرة . .

وعندما حطموا الباب وجدوه هناك ملطخا بالدم . .
وعلى فمه ابتسامة النصر . .

كـان الطريق خـالياً من كـل شيء . . . حتى من السيارات . . . وفجأة عندما رأيت شيئا على الأرض . . . انتابني ذعر شديد . . . لقد كان ذلك الشيء . . .

اعتدت أن أخرج من منزلي في بكرة الصباح وأتريض في شوارع مصر الجديدة الهادئة مطلقا العنان لأفكاري . . فلم يكن هناك شيء يقف بين المرء وأحلام اليقـظة في تلك الساعة من النهار . . كنت أنظر إلى الفيلات الجميلة على جانبي الطريق . . وأتخيل نفسي قد شرعت في بناء واحدة من طرازها في تلك الأرض الفضاء الممتدة هناك . . ثم حدث خلاف بيني وبين المقاول في اللحظة الأخيرة فأبى أن يسلمني المفتاح . . فجريت أسحبه إلى ساحة القضاء ومضت الأعوام . . حتى تغيرت معالم المدينة ودخلت الفيلا في التنظيم ولم يحكم بعد في القضية . . !

وانقبضت لهذا الخاطر . . وتركت فكـرة الفيلات والمنـازل جملة . . وخرجت إلى الهواء الطلق في الشارع المؤدي إلى المطار وأسرعت قليلا . . وأنا أشعر بنشوة لاحد لها وبقوة الشباب وجبروته ، وبعظمة الإنسان في كل ما يقوم به من عمل في هذه الحياة . .

وكانت الطريق خالية من كل شيء حتى من السيارات التي تنطلق في هذا الشارع عـادة كالصـواريخ الألمـانية . . وفجـأة لمحت شيئاً أسـود في ذلـك الفضـاء الأبيض من الرمال . . فاقتربت منه فإذا به طفل حديث الولادة وكان يعوي كالجرو الصغير . . !

لاشك أنه ألقي في فحمة الليل في ذلك المكان الموحش البعيد عن الأنظار . . ألقته سيارة بكل بساطة . . وعادت من حيث أتت كأنها لم ترتكب جرماً . . وشعرت بالأسى والانقباض فتوقفت عن السير ووقفت أكثر من دقيقتين أنظر إلى الطفل المسكين وأفكر فيما أفعل . . أأنطلق في طريقي كأني لم أر شيئا . . أم أذهب إلى مركز البوليس ؟ ووقفت في دوامة من الخواطر . . ثم شعرت بشيء يدفعني دفعاً في الطريق .

وخيل إلى أنني قد استرحت إلى هذا القرار وأنني لاأسمع بكاء الطفل . . فمضيت أكثر من نصف فرسخ ، ولكن بعد بضع خطوات شعـرت بالعـرق يتصبب على جبيني

وبصياح الطفل يخرق طبلة أذنى . . وقلت لنفسى إننى أكون أكثر جرما ممن ألقى به فى ذلك العراء . . لو تركته على حاله . . وإن الله بعثنى فى الطريق لإنقاذه .

فرجعت إلى مكانه وأخذت أتأمله وأستمع إلى صياحه الخافت . . وتذكرت أننى رأيت شرطياً يقف على رأس الطريق فجريت إليه وأخبرته بحادث الطفل . . فنظر إلى ممتعضا وهو يلعننى فى سره . . ثم سار معى إلى هناك ولما لم نجد عربة أو سيارة أجرة رفض الشرطى أن يحمل الطفل فحملته أنا وسرت معه إلى مركز البوليس .

وكنا نسير وحيدين وثالثنا الطفل . . ولكن بعد عشرين متراً . . أصبحنا أربعة . . انضم إلينا اثنان من المتطفلين فى الطريق . .

وبعد عشرة أمتار أخرى . . أصبحنا خمسة . . وبعد بضعة خطوات غدونا عشرة . . ولما دخلنا شوارع المدينة صرنا أكثر من خمسين . . !! وكنت أحمل الطفل والناس يسيرون بجانبى وخلفى ويتهامسون ويشيرون إلى . . . أنا الذى فعل الفعلة النكراء . . . !

وكان العرق يتصبب على جبينى وكنت صامتا حزينا . . لاأستطيع أن أنبس بحرف ، وقبل أن نقترب من مركز البوليس . . رأيت امرأة تندفع بقوة وتفسح لنفسها طريقاً وسط الجموع . . لقد كانت زوجتى . . .

وصور لنفسك الموقف ونهاية المأساة . . . !

إن الظروف قد منحتك فرصة ذهبية . . . فرصة الحيـاة . . . عـذراء جميلة . . . بـل فـاتنـة . . . فى بيتك . . . بل وفى فراشك فى هذا الليل السـاكن . . .

حدث منذ عشر سنوات . . وفى خلال الحرب التى كانت دائرة بين الألمان والإنجليز فى الصحراء الغربية . . أن ركبت قطار الظهر من محطة أسيوط وهو يتحرك فاندفعت فى عجلة إلى أول عربة صادفتنى وأنا فى حالة من الهياج العصبى . . لشدة الحرارة ولما عانيته من سيارة الأجرة التى أقلتنى إلى المحطة . . ولم أجد مقعداً خالياً فى هذه العربة ولا فى غيرها من عربات الدرجة الثانية . . فوقفت فى الطرقة أمسح العرق المتصبب وأنظر من خلال النافذة إلى مياه الفيضان وقد غمرت القرى والمزارع . .

وظللت فى مكانى حتى دخل القطار محطة المنيا . . ففتحت زجاج النافذة لأجد شيئاً أشربه . .

ورأيت من بين الواقفين على الرصيف شخصاًأعرفه يدعى صلاح . . وكان صلاح هذا جارى فى السكن فى حى المنيرة . . وكان موظفاً فى بنك مصر ثم نقل إلى المنيا ، ولم أره منذ سنوات ، وقد حسبته توفى لأنه كان كهلا ومريضاً دائماً . . وكان من أنبل من عرفت من الناس ، وقد أسفت لفراق صحبته . .

فلما التقى بى فى القطار . . تهلل وجهه وهو يقول :

- فرصة سعيدة . . أنت جاى من البلد ولا إيه ؟ . . عال . . عال . . بنت أختى «اعتدال» مسافرة معاك . . وباين القطر زحمة . . لعن الله الحرب . .

وصعد إلى العربة . . ولم أكن قد رأيت بنت أخته هذه ولكنى رأيت فتاة تمشى وراءه فى ممشى العربة . . فأدركت أنها هى . .

وتناولت حقيبتها من خالها ووضعتها على الرف . وأفسحت لها مكانا بجانب سيدة فى الديوان الذى أقف أمامه . ووقفت مع خالها أتحدث . . وقال لى :

- أرجوك أن تنزلها فى قطر إسكندرية ٨½ وخالها عبد الرحمن مستنيها فى طنطا . . . وانت مش عاوز توصية . . أختك معاك . .

ولما صفر القطار سلم علينا ونزل إلى الرصيف وهو يكرر التوصية والدعاء لنا بالسلامة . . ونهضت اعتدال لتودعه من النافذة . . ثم عادت وجلست مكانها . . . ونظرت إليها وهى جالسة وقد غضت من طرفها وعلت وجهها السحابة التى تعترى من يفارق عزيزا . . وتناولت حقيبتى وأعطيتها بعض المجلات المصورة فتناولتها شاكرة وأخذت تقلب البصر فيها . . .

ووجدت شيئا فى الفتاة يجذبنى إليها . . . فأخذت أنظر إليها وهى مستغرقة فى المطالعة . . . كانت فى سن العشرين أو أكثر قليلا . . طويلة القامة ، رشيقة الجسم ، بيضاء اللون . . وقد أثرت فيها شمس الصعيد قليلا فأكسبتها سمرة خفيفة . . . وكانت ترتدى جونلة رمادية وقميصا أبيض أبرز تقاطيع جسمها كله . . وتلبس جوربا ورديا خفيفا وحذاء فى لونه وكانت وهى جالسة مستريحة بكتفيها على ظهر المقعد . . قد ضمت ساقيها قليلا فظهر انسجامها وفتنتها . .

وكان وجهها الأبيض مستطيلا وفى شفتها السفلى اكتناز ظاهر . . . وانثناء بارز إلى الذقن الصغيرة . . وكانت أهدابها تلقى الظلال الخفيفة على خديها الموردين . . . وقد ابتدأ يعلوهما غبار السفر . . .

وكانت تزيح خصل شعرها الأسود الناعم عن جبينها وتقلب صفحات المجلة بأناملها الجميلة . . وشعرت وأنا أنظر اليها وهى مستغرقة فى المطالعة بالارتياح . . . ونسيت كل ما لقيته من متاعب . . ونسيت الحرارة والغبار ، وازدحام القطار . . ووقوفى أكثر من ثلاث ساعات على قدمى فى الطرقة . . وقد أقف مثلها حتى يبلغ القطار القاهرة . .

وكنت أود أن أرى عينى هذه الفتاة فى مواجهتى ، ولكنها كانت تنكس رأسها . . ورغم مظاهر العافية والانسجام فى الملبس ، فقد كان وجهها يعلوه شىء من السهوم . . أو الحزن . . كمن مسه شىء من الحياة .

وفى الواسطى . . نزل من بجانبها من الركاب فجلست بجوارها . . . وأخذنا نتحدث .

وقالت لى إنها كانت فى زيارة قصيرة لخالها . . وإنها راجعة الآن لوالدتها فى طنطا . . وقد تركتها وحيدة مع أخواتها الصغار . . وانها تعرف القاهرة جيدا لأنها تلقت تعليمها فى الليسيه فرنسيه فى مصر الجديدة وخرجت من المدرسة بعد وفاة والدها . .

وتصورت حال هذه الأسرة بعد موت عائلها وأدركت سر الحزن على وجه الفتاة . .

وكان القطار يمضى سريعا وقد غاب قرص الشمس ففتحنا النوافذ جميعها وبدت المزارع والقرى الصغيرة على الخط الحديدى تهتز منازلها وتثير الغبار فى وجوهنا . .

وكانت الإضاءة فى القطار ضعيفة . . . والمصابيح كلها سطلية باللون الأزرق . . وبدأ العشى يزحف . .

وأخذ القطار يتلوى فى قلب الليل كالثعبان الأسود وعيناه تبرقان فى الظلام . .

وكنت قد اعتدت على السفر فى مثل هذه القطارات فى فترة الحرب وألفت كل ما فيها من تعاسة . . .

ولكنى الآن وأنا جالس بجانب هذه الفتاة . . شعرت بغير شعور الأمس كنت أكبرها بعشر سنوات فقط . . ولكننى كنت أنظر إليها كأنها فتاتى أو أختى الصغيرة . . رغم أنها غريبة عنى ولم أرها من قبل أبدا . . ولعل ذلك راجع لوجهها العذرى أو للبراءة المطلقة التى تطالعك من عينيها السوداوين . . .

وجلسنا صامتين ولم يكن هناك أحد من الركاب الجالسين معنا فى الديوان ينطق بحرف . . .

وفى خلال هذا الصمت توقف القطار . . ونظرنا من النوافذ فطالعنا الظلام والسكون . . . ولم نعرف سبب توقفه . . وقيل لنا إن هناك غارة شديدة على القاهرة ولم نحس بالغارة ولم نسمع صوت أية طيارة ومع ذلك ظل القطار فى مكانه أكثر من ساعة . .

ولما بلغنا محطة القاهرة كانت الساعة قد جاوزت التاسعة . . . وكان قطار الإسكندرية قد سافر .

وظهر الحزن على وجه الفتاة لأن القطار قد فاتها . . فأخذت أهون عليها الأمر وذهبت إلى الاستعلامات لأسأل عن أول قطار يسافر فى الصباح . . وأثناء عودتى سمعنا صفارة الإنذار . . . فوقفت معها تحت السقف الداخلى للمحطة ملاصقين للجدار . . وأخذت أطمئنها وكانت صامتة وحزينة . . . وتقترب منى كلما شعرت بالخوف . . وقالت لى بأنها ستبقى فى المحطة إلى الصباح لتأخذ أول قطار حتى لا تنشغل أمها . . .

ولم أقل شيئا . . . ودوت صفارة الأمان . . فعرضت عليها أن نخرج إلى أقرب مطعم لنأكل لأننا فى أشد حالات الجوع . . فرفضت . . ثم قبلت . . وعندما خرجنا من باب المحطة . . رأينا الجنود الإنجليز يدخلون فى فصائل إلى الرصيف .

فقلت لها :

-هل يرضيك أن تقضى الليل مع هؤلاء ؟ . .

فصمتت وسرناً فى الميدان المقفر بمصابيحه الزرقاء الكابية . . كأخين . . أو كعاشقين . . . !

وفى خلال العشاء أقنعتها بضرورة تمضية ما بقى من الليل فى بيتى . . إذ لا يعقل أن أتركها وحدها فى المحطة . . كما أنه لا يصح أن تجعلنى أقضى الليل ساهرا معها وأنا على هذه الحالة من التعب . .

وقلت لها بأنها ستنام فى حجرة الأولاد . . وقد فهمت من هذه العبارة أننى متزوج . . ورأيت أنه لا مانع من هذه الكذبة حتى لا أدعها عرضة لمصائب الليل وللإنجليز السكارى . . .

وحاولنا أن نركب تاكسيا فلم يستمع إلى ندائنا سائق واحد . . كانوا يسرعون إلى الملاهى لانتظار جنود الحلفاء . !!

وسرنا فى الشوارع فى وطننا وديارنا كغريبين ، وكنا نرى الإنجليز السكارى يترنحون بجانب الجدران . . . أو يمضون فى اللوريات إلى المعسكرات . . أو يمشون فى جماعات فيغنون بالإنجليزية فى صخب . . . وكنا نتحاشاهم ونسير فى الظلام مبتعدين عنهم وكانت «اعتدال» كلما شاهدت أحدهم مقبلا علينا من بعيد تلتصق بى وهى ترتجف . .

وكنت أقول لها :

- لا تخافى هكذا . . .

- إنهم أنذال . . والخوف فى هذه الحالة غريزى . . ولا أدرى كيف يكون حالى لو كنت وحدى . . . إن الله بعثك لى . . .

ولما وصلنا الحلمية الجديدة . . وفتحت لها باب شقتى الصغيرة ، وطالعها السكون الذى يخيم على المنزل كله . . نظرت إلى فى صمت وسؤال ، كأنها تقول :

- أين الأولاد . . . ؟

وقرأت فى عينيها الذعر ورجفة العذراء ، وهى تنفرد لأول مرة فى حياتها برجل غريب ، وزاد خوفها لما أدركت أننى وحيد فى الشقة فلا خادم ولا إنسان آخر معى . .

ولم أقل لها أى كلمة لأجعلها تطمئن أو لأجعلها تعرف أننى كذبت عليها لأخلصها من شر الإنجليز فى الليل . . وإنما تركتها تلمس الاطمئنان والأمان من تصرفى الطبيعى وهدوئى المطلق . .

وغسلت وجهى من تراب السفر وقلت لها :

- لا . . . سأنام أنا هنا . . .

- قومى لتستريحى ولا داعى للرفض . . .

وأخرجت بيجامتى وشبشبى من الغرفة . . ودخلت هى لتخلع ملابسها وأغلقت عليها الباب . .

وبعد قليل خرجت ترتدى قميص النوم . . ورأيتها من مكانى تمضى فى لين إلى دورة المياه . .

وتمددت على الكنبة أدخن وأفكر فيها . . وقد غير الثوب الذى لبسته أخيرا نظرق اليها . . وشعرت بهزة عنيفة واضطراب نفسى . . وتصبب العرق ثم شعرت بحلقى يجف كله . .

وكنت أود أن أفتح الراديو وأستمع إلى بعض الموسيقى لأهدىء من ثورة أعصابى . . . ولكن الراديو كان فى غرفتها . . وهذه الغرفة . . أصبحت الآن محرمة على . . .

ولما رجعت من دورة المياه ، وعرفت أننى لا زلت متيقظا . . قالت بصوت رقيق خافت وهى مارة ببابى :

- تصبح على خير . . .

ودخلت الغرفة وردت من ورائها الباب . . وأرهفت أذنى . . . ولا أدرى لذلك سببا . . وسمعت حركة الأكرة . . ولكننى لم أسمع حركة المفتاح وهو يدور فى القفل . . .

وأصبحت أعنى بالتوافه وبكل حركة دقيقة تعملها فى الغرفة . . وتساءلت لماذا لم تغلق الباب بالمفتاح ؟! ثم دار بخلدى أنه ربما يكون المفتاح قد سقط من الباب وأنها لم تجده حتى تغلقه .

وأطفأت السيجارة . . واسترخيت بجسمى كله . . دقائق قليلة . . محاولا النوم . . ولكننى لم أستطع وعاودنى التوتر العصبى . . ورغم مشقة السفر وطول الطريق فقد كنت متنبها بكامل حواسى . .

ونهضت من الفراش لأتمشى . . . وأرخى حبل أعصابى المشدود . . ثم أخذت أتصورها بعين الخيال . . وهى نائمة فى غرفتى وعلى سريرى بمنامتها وقد بدت منها كل مفاتنها . . وهتف بى هاتف : «إن الظروف قد منحتك فرصة ذهبية . . فرصة الحياة . . فلا تجعلها تفلت منك . . . عذراء جميلة . . بل فاتنة . . فى بيتك وفى فراشك فى هذا الليل

الساكن . .» وأحسست بشيء يضغط على قلبى . . فتحركت إلى الأمام وخرجت من الغرفة متلصصا إلى الصالة . . وهناك وقفت جامدا كالتمثال . . وذهبت إلى المطبخ لأشرب . . ورأيتها قد غسلت قلة كانت هناك وملأتها . . ووضعتها فى النافذة . .

ولما رجعت إلى الصالة وقفت على بابها أتسمع . . ثم انسبت إلى فراشى مرة أخرى . . لأحاول النوم من جديد .

ولكنى لم أنم وظللت أتقلب على جنبى . . وطافت فى رأسى دوامة من الخواطر . . وقلت محدثا نفسى «إن الناس جميعا يسرقون ويغشون ويرتكبون الفحشاء . . لو أتيحت لهم الفرصة . . وقد أتيحت لى الفرصة بكل إمكانياتها ووضع القدر فى فراشى عذراء جميلة . . فلماذا أدعها تفلت من يدى . . إن هذا يكون حماقة وجنونا مطبقا . .»

وخرجت حافى القدمين إلى الصالة . . ثم تقدمت إلى غرفتها وعالجت الأكرة فى حذر شديد . . وكنت أتمنى فى تلك اللحظة أن أجد الباب مغلقا بالمفتاح حتى أتخلص من العاصفة التى لفتنى . . . ولكن الباب انفرج وتسمرت فى مدخل الباب ، ونظرى قد استقر على السرير وكانت الشرفة مفتوحة فسقط ضوء القمر على الفراش . . ورأيت ساقيها . . وقد دفعت الملاءة الخفيفة تحت قدميها ومدت ساقا . . وثنت أخرى . . وضغطت برأسها على الوسادة ، فانتشر شعرها وأشرق وجهها . .

وتقدمت كالمأخوذ حتى اقتربت منها وأحسست بأنفاسها تتردد . . . ومددت يدى لألمس رجلها . . فانتابتنى رعشة . . وسمعت كلمات خالها تدوى فى أذنى :
«أختك . . معاك . . .»

ووجدت شفتى ترددان فى فحيح :
«أختى . . . أختى . .»

وعادت العاصفة إلى جمجمتى . . ودارت بى الغرفة . . ثم وجدت نفسى ممددا على الكنبة فى غرفة الجلوس . . ولا أدرى كيف حملتنى قدماى إلى هناك !!

وأيقظتنى فى مطلع الشمس . . وكانت قد ارتدت ملابسها . . وقالت :

- عاوزه ألحق قطر الصبح . .
فقلت وأنا فى أشد حالات التعب :
- حاضر . . حالبس حالا . .
- باين عليك مشبعتش نوم . . عندك شاى ؟ حاعملك شاى . .
- مرسى . . أيوه فيه شاى فى العلبة . . .

وذهبت إلى المطبخ . . وبعد قليل عادت تحمل صينية الشاى . . ووضعتها على المائدة . .

وجلست تشرب . . . تناولت الكوب الزجاجى . . ورفعته إلى شفتيها . . ونظرت إلى شفتيها على الكوب . . وكانت تشرب فى تمهل .

وسألتنى لما رأتنى أرفع كوب الشاى إلى شفتى :

- عاوز سكر . . ؟

- أيوه . . .

- وفين هو السكر . . ملقتش غير دول ؟

- انت لازم غلطتى . . وحطيتى السكر فى كبايتك . .

- أبدا والنبى . . فى كل كباية خرطة ونصف . . .

- تسمحى أشوف ؟ . .

وتناولت كوبها ورفعته كله إلى شفتى وأنا أضغط على الزجاج وأحاول أن أجرشه . . وعلا وجهها الاحمرار الشديد ونكست رأسها . .

***

وعندما ودعتها فى المحطة . . انحنت على يدى لتقبلها ولكننى جذبتها بسرعة . .

ولما تحرك القطار . . وقفت فى النافذة تودعنى وتلوح لى بمنديلها الأبيض وهى تغالب الدمع . . .

شـــكوى إلى الســـماء

كان الجوع يمزق أحشاءها ، وكانت تبيع كل ما تملك لتطعم طفلها الصغير ، فلما نفد كل ما عندها . . . باعت . . .

ذهبت نعيمة إلى قسم البوليس لأول مرة فى حياتها . . وكانت قد قطعت المسافة من بيتها إلى القسم مشيا على الأقدام ، وهى تحمل طفلها الصغير ، فى جو خانق بالحرارة والغبار . . ودخلت باب القسم خائفة تتوجس ، وكانت هناك حركة مستمرة فى الداخل ، وصياح ، وأناس يضربون على أقفيتهم ووجوههم ، وعربة واقفة على الباب وحولها جنود مسلحون . . وكان بالعربة امرأتان وخمسة رجال وبعض الغلمان ، وكانوا سيرحلون جميعا إلى السجن العمومى . . وعندما وقع نظر نعيمة على المرأتين وحولهما الحراس ارتجفت ، وتخيلت أنها ستلقى نفس المصير .

ـ وكانت قد تلقت فى الصباح ورقة صغيرة من شيخ الحارة بدعوتها إلى القسم . . وكانت هذه الورقة بيدها وهى داخلة ، وأمسكت بها كشىء ثمين تعتز به ، ثم قدمتها لأحد العساكر فأشار بيدهٖ فى غلظة دون أن يقرأ الورقة إلى باب على اليمين . . فدخلت ووجدت نفسها أمام رجل بدين فى رتبة جاويش عابس الوجه ، مغبر السحنة ، وكان يجلس إلى مكتب صغير قد تبعثرت عليه الأوراق وأمامه نفر من الناس واقفون فى استكانة وقلق ، وكان يتحدث مع شخص من هؤلاء بصوت عال خشن . . فلم يلق باله إلى نعيمة وهى منزوية بجوار المكتب ذليلة منكسرة . .

ولاحظ وجودها ، فنظر إليها نظرة سريعة ثم نكس رأسه على الأوراق ، ولما فرغ من التحقيق وصرف الواقفين أمامه ، سألها بصوت ارتجفت له :

ـ نعم . . فيه حاجة ؟

فقدمت له الورقة بيد ترتعش دون أن تنبس :

ـ إنت الست نعيمة ؟ . . تفضلى . . .

وغير من لهجته وخشونته وقدم لها كرسيا .

وجلست ونظرها على الأوراق التى يقلبها بين يديه :

ـ ما الذى تريدينه فى هذه الشكوى . . . ؟

إما النقود . . أو الحبس . . مادام طلقنى . . أنا مسكينة وليس لى فى الدنيا غير ربنا . . .

ـ وكيف نعثر عليه ؟ . . أنت تعرفين أنه مجرم ، مرة فى الاسكندرية ، ومرة فى الاسماعيلية . .

ـ إنه الآن فى بيته . . إصنع معروفا . . أنا مسكينة . .

ـ حاضر . . سأساعدك . . هاتى الختم . .

وأخذ يكتب شيئا كان قد أعده فى ذهنه . . ولذلك كتب سريعا . . . وتناول منها الختم وختم . .

وقال :

ـ اتفضلى . . . انتهينا . .

وانصرفت وهى تدعو له . .

وكانت تنتظر شيئا سريعا عاجلا ينقذها من محنتها ويخفف عنها بلوى فقرها . . ولكن مضى أسبوع وشهر آخر ولم تتلق شيئا

فعادت إلى شيخ الحارة . . . وإلى مركز البوليس . . . وإلى من تقابله من الموظفين فى المحافظة وكانوا جميعا يهزون أكتافهم ويقولون لها :

ـ الورق مشى من عندنا . . .

وأخيرا عثرت على الأوراق فى ركن فى المحافظة . . وسألها الموظف :

ـ ما الذى تريدينه . . لقد تنازلت عن حقك قبل زوجك . . تنازلت عن النفقه وعن كل شىء . . . أليس هذا ختمك ؟ ! . .

ـ وكادت المسكينة تجن .

لقد استغل الجاويش فى القسم فرصة جهلها وبساطتها وكتب هذا التنازل بعد أن اتفق مع زوجها على هذا . . .

وأخذ بها الغيظ والحنق كل مأخذ . . وخرجت إلى الطريق شاردة بائسة .

وقالوا لها اكتبى عريضة للمحافظ . . وللمأمور . . فكتبت . . وكتبت . فى كل يوم كانت تكتب مظلمة ، وكانت تنتظر الرد والخلاص من محنتها ، ولكن لم يرد أحد ، ولم يسأل عنها إنسان .

وضاقت بها سبل العيش ، وكادت تموت هى وطفلها جوعا .

وكانت تمضى الليل وهى تبكى وتنتفض من البرد ، ومن الجوع ، ومن الخوف . . الخوف من المجهول ، ومن البشر ، ومن كل مايخبئه لها القدر .

وكان الجوع يمزق أحشاءها . . وكانت تبيع كل ما تملك لتطعم طفلها الصغير ، فلما نفد كل ما عندها ولم يعد هناك شىء تبيعه ، طار عقلها من الفزع لمجرد تصورها أن الطفل سيموت جوعا .

ووقع بالفعل ما كانت تخشاه . . فقد مضى يوم كامل على الطفل ولم يأكل فى خلاله شيئا . . وكان يعوى وأحشاؤه تتمزق من الصياح . . وأخيرا رحمه الله ونام بعد منتصف الليل ، وظلت هى ساهرة بجواره تفكر وتدبر . . . حتى أصبحت وهى أتعس مخلوقة على ظهر الأرض ، ووجدت أنها لو ظلت فى البيت دقيقة بعد ذلك ستجن من القلق والأفكار السوداء ، فتركت الطفل نائما . . وخرجت فى بكرة الصبح ، ومشت فى الشوارع الساكنة حتى اقتربت من ميدان السيدة . . ولاذت بالمسجد . . . ورأت أناسا يخرجون من المسجد بعد الصلاة . . ونساء واقفات على الباب وحول الجدار . . وأيديهن ممدودة . . ورأت النقود توضع فى هذه الأيدى الممدودة فى صمت وهدوء وفى غفلة من الناس المشغولين بشئون معاشهم فى هذه المدينة الكبيرة .

ومر برأسها خاطر فى مثل خطف البرق . . ماذا لو غطت وجهها ومدت يدها وأخذت قرشا من إنسان ، لتطعم به طفلها الذى سيموت اليوم حتما إن لم يطعم . . قرش واحد ليس إلا . . وترقرقت فى عينيها الدموع واحتبست أنفاسها واشتدت ضربات قلبها . . وبحركة لا شعورية مدت يدها . . وخيل إليها أنها ظلت دهرا ويدها هكذا ممدودة للناس . وخيم سكون مطبق قطع صلتها بالوجود كله . بالناس وبالضجيج الصاخب الذى أخذ يعج به الميدان ! وغامت عيناها وجف حلقها . وأخيرا سمعت صوتا آتيا من بعيد . .

ـ يظهر إنك مسكينة يابنتى . .

ورفعت وجهها ووجدت رجلا يلبس حلة أنيقة وينظر إليها طويلا :

ـ لماذا تستجدين . . ؟

ـ لأطعم طفلى . .

ـ تعالى يا بنتى . . إشتغل عندى . . وأنا أكفيك هذا السؤال . .

ونظرت إليه طويلا ولم تنبس . .

وأخذ الرجل يطيل إليها النظر فى اشتهاء الذئب لحم فريسته ثم قال : ـ أنت خائفة . . أنا متزوج وعندى أولاد تعالى أريك الست فى البيت ومع هذا رفضت . . فمضى فى سبيله دون أن يعطيها شيئاً

وقضت وقتا طويلا بجوار المسجد وهى تمد يدها ولا أحد يعطيها أى شى . . وكان كل من يراها من الشبان والرجال ينظر اليها فى اشتهاء دون أن يعطيها مليما واحدا . . وكثير منهم كان يغازلها بكلام مفضوح . .

وطلب منها رجل قصير يمسك بيده حقيبة مكتظة بالأوراق ويضع على عينيه منظارا أسود أن ترافقه الى بيته !

فودت لو تبصق على وجهه . .

ورجعت الى البيت وهى تجر أذيال الخيبة وقد جف ريقها . . ولما وقع نظرها على الطفل وهو راقد على حشية فى الغرفة دون حراك ودون حس جرت اليه وضمته الى صدرها . . ولما شعرت بأنفاسه الرقيقة وأدركت أنه لايزال حيا . . عاودتها عبراتها . . بكت بكاء الفرح ، فلاشىء فى الوجود يتعادل وطفلها هذا ! . . .

وقبلته وضمته إليها فى حنان . ونام فى حضنها إلى الصباح . .
وخرجت مبكرة والطفل على صدرها . . ومضت فى الشوارع تستجدى وانقضى النهار كله . . دون أن تعطى . . ودون أن تأكل شيئا . . وكانت ترى الناس يمرون أمامها وتتساءل : أهؤلاء بشر حقا . . ؟
كانت تود أن تفعل أى شىء لتأكل وتطعم طفلها .

انهارت أعصابها وتخاذلت وبلغ منها الجوع منتهاه ، كانت تود أن تسرق وترتكب الفحشاء فى سبيل لقمة .

ومضى اليوم كله وهى جائعة . . . ورجعت إلى البيت تندب حظها ولم تنم إلا غرارا .

وفى الصباح خرجت تحمل طفلها . . وتجر رجليها متخاذلة شاردة . . وفى منعطف الطريق قابلها رجل متأنق . . فغطت وجهها ومدت إليه يدها فنظر إليها قائلا :

- أنت مسكينة وجائعة . . تعالى اشتغلى عندى .

- وهذا يا سيدى . .

وأشارت إلى طفلها . .

- معك . .

ومشت معه إلى بيته . . وقدمها إلى زوجته وسرت بها الزوجة كثيرا ، لأنها كانت تبحث من مدة طويلة عن خادمة . . وبعد يومين أودعت الطفل فى ملجأ قريب بناء على مشورة السيد .

وكانت تعمل فى نشاط وسرعة . . ومضت الأيام فى أسعد حال . . وحدث أن مات والد الست . . وكان من أعيان المنيا . . فسافروا إلى هناك على عجل . .

وعاد الزوج بعد ثلاثة أيام ومعه نعيمة ليباشر عمله وترك زوجته فى جنازة والدها . . وأصبحت نعيمة تدير شئون البيت فى غياب ستها .

ومرت الأيام وطال غياب الزوجة لنزاعها مع إخوتها على الإرث . . وأخذ الزوج يعطف على نعيمة ويغازلها ، وهى تجهل بغيته . . ثم كشف عن حبه لها وهيامه بها فنفرت منه . . فمازال وراءها يغريها ويطاردها كالذئب ويهددها بالطرد حتى ضعفت واستجابت لرغبته وأصبحت تنام فى فراش ستها . .

وفى صباح يوم الجمعة ذهبت إلى الملجأ كعادتها لترى طفلها . . فعلمت أنه مات بالأمس . .

فرجعت باكية . . وفكرت فى خطيئتها فى الليلة السابقة . . وقرنت الخطيئة بموت الطفل .

ولكن منير « سيدها » كان فى أعماقه أكثر سرورا بموت الغلام . . وأصبحت المرأة له وحده ومازال يستغل ضعفها وسذاجتها حتى أصبح يعاشرها حتى بعد أن عادت زوجته من سفرها .

ومضى عام . . وعام مثله والحياة تجرى . . وذات يوم أحست نعيمة بشىء فحدثت منير عنه فتجهم وجهه ولكنه لاينها حتى تستيقن . . فلما استيقنت نزل عليه الخبر كالصاعقه . . فأيقظه من غفوته وفكر فى التخلص منها بأسرع ما يمكن وبأيسر حيلة . .

وكان من عادة زوجته أن تضع نقودها فى دولابها وتتركه مفتوحاً وأحياناً تضع النقود الصغيرة على المناضد فى غرفة الطعام وغرفة الزينة . . وتجد هذه النقود دائما كاملة فى مكانها . . فلم يكن فى البيت أحد غير نعيمة . . وكانت نعيمة أمينة مخلصة فى نظر ستها .

وذات يوم وجدت الست النقود ناقصة . . فكتمت الخبر عن زوجها . . وبعد ذلك اختفت فكة كانت تضعها على الشفونير . . وضاع منها خاتم ذهبى تركته سهوا فى الحمام . .

وحدثت زوجها منير . . فهز كتفيه وقال متهكما :

- يا انا السارق . . يا انت . . يا الست نعيمة !
- وبعدها . . .
- نطردها . .
- نطردها . . ! يا شيخ مسكينة ، ليس لها أحد فى الدنيا . . نحاذر منها وهذا يكفى . .

وبعد يومين فقدت قلادة ثمينة من الزوجة . . فطارت إلى زوجها منير وحدثته بالسرقة . .

- ضرورى نبلغ البوليس . .

وسمعت الفتاة بسرقة القلادة . .

فصعقت فلما اتهمتها الست صراحة صرخت :

- أنا أسرق ؟ . . أنا مظلومة . . حرام عليكم . . حرام . وسالت دموعها . .

وطردها منير فخرجت إلى الطريق . . حيث لا بيت ولا إنسان . .

وعملت فى البيوت خادمة . . وفى كل شهر كانت تدخل بيتا جديدا . . ولما كبر بطنها وتضخم عجزت عن الخروج وعن العمل . . وأصبحت فضيحتها على وشك الذيوع .

وكانت تبكى وتستغفر حتى تقرحت عيناها من البكاء . .

وعرفت سرها المرأة التى تسكن فى بيتها . . فقالت لها :

- اشكيه . . يا بنتى للنيابة . . اشكيه . .

وسألتها نعيمة فى سذاجة :

- فين النيابة ؟

- فى باب الخلق يابنتى . .

وذهبت نعيمة إلى باب الخلق وهناك جلست بجوار كاتب عمومى . . وكتب لها الكاتب الشكوى . وأعطته ثلاثة قروش . وأخذت منه الورقة ومضت فى الميدان . . وكان مزدحما برجال البوليس المسلحين . . كان اليوم يوم محاكمة بعض الطلبة . . وكان الميدان أشبه بمعركة حربية . . جنود الخيالة والرجالة . . وبيدهم العصى الغليظة والبنادق . . . يطوقون الميدان . . وحول هؤلاء يقف من بعيد جمهور غفير من الناس .

ومضت نعيمة فى زحمة الناس بورقتها وكانت أفواج الناس تدفعها من جانب إلى جانب . . واعتقدت أنه لابد لها أن تسلم الورقة بيدها إلى النيابة وإلا ضاعت . . وفى ذلك الوقت كان بعض المسجونين الأحرار فى طريقهم إلى داخل المحكمة . . ورآهم الناس فهتفوا لهم وصفقوا وهجموا على العربة التى تقلهم موجا يدفعه موج . .

وأمر الضباط الجنود بتفرقة هذه الجموع . . فأعملوا عصيهم فى الناس . . فى وحشية وقسوة . . فتفرق هؤلاء مذعورين إلى الحوارى والأزقة . . وأصابت عصا حامية نعيمة . . فمضت تولول مذعورة . . كانت تجرى بكل قوتها كالمجنونة . . وفى تلك الأثناء صدمتها عربة نقل كبيرة كانت تجرى مسرعة . . فسقطت مضرجة بالدماء . . وكانت فى يدها الورقة مرفوعة إلى السماء .

دار لنـــج

وعرف الجميع معنى كلمة « دار لنج » . . .
فقد كانوا يسمعونها مائة مرة فى الساعة ، ولكثرة
ما سمعوها سموا . . .

استيقظ سكان قرية الرحمانية على حركـة غير عـادية فى منـزل الشيخ عبـد المجيد رضوان . . فقد كان الخدم ينظفون الدوار ويرشون الساحة التى أمامه ، وينفضون ما على الأبواب والشبابيك من أتربة ، ويخرجون الكراسى والأرائك من الحجرات وينظفونها ثم يعيدونها إلى الداخل ويغسلون فناجيل القهوة وأكواب الشربات على طاولة كبيرة . .

وعرف أهل القرية سبب هذه الحركة المبكرة فى بيت الشيخ عبد المجيد ، عرفوا أن ابنه أحمد سيعود اليوم من لندن بعد غيبة دامت سبع سنوات . . وسر الفلاحون لهذا الخبر فقد كان الشيخ عبد المجيد رجلا محبوبا من أهل القرية لأنه كان محسنا ويعمل لخير الجميع فقد بنى لهم مسجدا ومدرسة وعزبة نموذجية . .

***

وفى الساعة الرابعة خرجت سيارة الشيـخ عبد المجيـد إلى المحطة ، وفى السـاعة الخامسة والنصف رأى الفلاحون السيارة تتهادى على الجسر ووراءها سحابة من الغبار . . ثم استدارت ودخلت الساحة ووقفت أمام البيت ، ونزل الدكتور أحمد ولكنه لم يكن وحده كما تصور الفلاحون فقد كانت معه سيدة شقراء الشعر وبلا جورب . .

وفى المساء امتلأت الدار بالمهنئين فاستقبلهم الشيخ عبد المجيد مرحبا ولم يخرج أحمد ، فظنه الناس متعبا من السفر فلم يلحوا فى السلام عليه وتركوه يستريح . .

وفى الصباح جلسوا أمام البيت تحت أشعة الشمس فلما خرج عليهم أحمد أسرعوا نحوه مهنئين . . ولكنه تباعد ، واكتفى بأن رفع يده إلى صدغه مسلما واجتازهم مسرعا دون أن يمد يده إلى أحد منهم . . ولحقت به بعد قليل السيدة الشقراء وكانت ترتدى بنطلونا فتأبط ذراعها ومضى بها إلى خارج القرية . .

وكان الشيخ عبد المجيد جالسا أمام بيته ورأى ابنه وهو يمر على أهل قريته دون أن يسلم عليهم ويعانقهم ، ورأى زوجة ابنه ترتدى البنطلون فى هذه القرية المصرية الصغيرة فذهل وكاد يجن من الغيظ ، ولكنه كتم عواطفه وصمت . .

***

استقبل سيدات الأسرة زوجة أحمد بالترحاب والمودة ، وقد ظنن أول الأمر أنها سائحة ، ثم عرفن بعد ذلك أنها زوجته ، وأنها إنجليزية فزاد سرورهن بها ، وكانت أخته زينب ـ وهى الوحيدة التى تعرف الإنجليزية بين السيدات ـ تعنى بها وتعمل لها كأنها خادمة خاصة تهيىء لها ملابسها وترتب لها حاجاتها وتحمل لها صينية الشاى بنفسها وتعمل كل شىء فى سبيل راحتها وتكريمها كضيفة . .

ولكن «مدام أحمد» كانت تنظر إلى هذا كله باستخفاف وبرود . . وتعامل الجميع كأنهم من طينة غير طينتها وبشر غير الذى انحدرت منه

كانت تنظر إليهم باحتقار وكانوا كلما أحسنوا إليها وازدادوا حفاوة بها أمعنت فى كبريائها .

وأخيرا قررت زينب تركها وشأنها دون رعاية وقابلت برودها ببرود مثله . واحتقارها باحتقار أشد . .

وكان الدكتور أحمد يجلس فى الصالة على كرسى طويل واضعا رجلا على رجل وفى فمه الغليون الذى لا يبارح فمه ساعة من نهار أو ليل وكان يدخل عليه والده وهو جالس هكذا فلا يتحرك . .

ويجلس الشيخ عبد المجيد ويستمع فى انتباه شديد إلى الحديث الذى يدور بين ابنه أحمد وزوجته الإنجليزية ويرى دخان الغليون وهو يتصاعد كثيفا فى سماء الصالة . .

ومن اللحظة الأولى عرف جميع البيت معنى كلمة «دار لنج» فقد كانوا يسمعونها مائة مرة فى الساعة من الدكتور أحمد ومن زوجته «ماى» ولكثرة ما سمعوها من ماى سموا أحمد «دار لنج» . .

وذات صباح كان الشيخ عبد المجيد يشرب قهوته المعتادة بعد الإفطار وكانت «ماى» فى حجرتها وكان الدكتور أحمد جالسا أمام والده واضعا رجلا على رجل وحذاؤه الأيمن فى وجه أبيه . . وكان يدخن الغليون وتحرك ليلتقط شيئا فاحتك حذاؤه بثوب والده فقال :

ـ سورى . . . داد . . .

ـ نوت ات أول دار لنج . .

قالها الشيخ عبد المجيد فى تؤدة وبلهجة سكسونية وهو لايعرف حرفا واحدا من الإنجليزية . . وكانت ابنته زنيب واقفة فرأت هذا وسمعته فغشى عليها من فرط الضحك . .

***

وكان كل ما يقوم به ويعمله أحمد وزوجته من عادات شاذة محتملا فى البيت والقرية لولا أن أبصر الشيخ عبد المجيد زوجة ابنه خارجة من البيت ذات صباح وهى ترتدى الشورت كأنها فى بلاج فلوريدا . .

فصعق الشيخ من الفضيحة . . وأرسل فى طلب ابنه حسن فى الحال . . فلما حضر قال له :

ـ خذ هذا المبلغ واعطه لأخيك ليفتح لنفسه عيادة فى مصر . . وأعد له السيارة ليلحق قطر خمسة . .

وعندما خرج الدكتور أحمد مع زوجته إلى المحطة لم يودعها أحد من الأسرة أو من أهل القرية . .

العــزبة الجـــديدة

رآها وهى تمضى مدبرة . . . خفيفة الحركة ، رشيقة القوام . أشبه بعروس مجلوة ، تتكلم بحرية دون كلفة . لأنها اعتادت على مواجهة الرجال . . .

انطلق سامح بعربته الصغيرة فى الطريق الزراعى بين الإسكندرية ورشيد . . وكان هواء الصيف الرخى يحمل إليه نسمات البحر فى ساعة الأصيل . . وتبدو المزارع النضرة عن يمينه جميلة منسقة فى إبداع ونظام كأنما رسم خطوط المحاريث على الأرض رسام . . ورأى وسط الحقول فيلا أنيقة مبنية على أحدث طراز فأعجبه منظرها . . وتمنى أن يقيم لنفسه واحدة من طرازها فى عزبته الجديدة . . التى اشتراها . . منذ أسبوع . . والتى يتجه إليها الآن . . وهو مفعم بالسرور والأمل .

وكان الطريق خاليا أمامه . . ولكنه لم يكن يسرع بسيارته . . كان يسير سيرا هادئا . . ويتمتع بكل ما حوله من مناظر خلابة وكانت تعترضه من حين إلى حين العربات الكارو . . بإطاراتها الكاوتشوك . . . محملة بالدريس ، والخضار . . وعربات المازوت . . والسيارات الصغيرة التى تحمل الدخان والسمك إلى التجار . .

وكانت زوارق الصيادين . . تتهادى عن بعد فى البحيرة . . وقد نشرت أشرعتها وألقت شباكها . . ورغم أنه من سكان الإسكندرية وعاش حياته فيها ، وله عزبة على ترعة المحمودية ، فإنه لم يكن يعرف منطقة ادكوورشيد وقبل أن يصل إلى رشيد . . انحرف إلى اليمين وسار بين المزارع على جسر غير مرصوف . .

وبعد أن قطع بضعة كيلومترات . . خيل إليه أنه ضل الطريق . . وكان قد جاء إلى العزبة قبل ذلك مرتين لمعاينتها ، ولكن الطرق أمامه الآن كلها متشابهة فاختلط عليه الأمر . . وسأل وهو حائر . . عن سيدى عقبة وهى قرية على مسافة قليلة من عزبته . . فأشار عليه أحد الفلاحين بأن يعود من حيث جاء ثم يعبر قنطرة ويتجه إلى الشرق . . فأدار السيارة وسار وهو يتلفت عسى أن يهتدى إلى الكوبرى الصغير الموصل إلى العزبة . .

وعندما عبر الكوبرى وأصبحت العزبة على مسافة كيلو واحد . . . لم يعرفها تماما ، فقد كانت الحقول كلها متشابهة . . ووجد صبية فلاحة جالسة بجانب الحقل ، تشوى

الأذرة . . وظهرها إلى الطريق . . وعينها على ساقية دائرة . . . وسألها :

ـ فين عزبة المأمور . . . ؟

فأدارت له رأسها . . وتلفتت وتوقفت عن تحريك الأذرة فى النار . . . وقالت فى صوت ناعم :

ـ العزبة اللى جنبنا على طول . . .
وعجب لنفسه كيف لم يعرف عزبته . . .
وسألها . . وقد أحس بالجوع :
ـ تدينى كوز درة . . ؟
ـ إتفضل . . .
ووضع فى يدها قرشا . . .
ـ أنا مش بياعة . . .
ـ لكن لازم تأخذى ثمنه . .
ـ دى حاجة بسيطة . . مالهاش ثمن . .
وواجهته بعينيها الخضراوين ووجهها الصبوح . . .
ـ باين مفيش حد فى عزبة المأمور !
ـ الخفير راح مشوار . . جاى حالا . . وأسطى الماكينة . . راح يجيب جاز . . من ادكو .

ـ يعنى مفيش حد . . .

ـ مفيش . . أصل العزبة إنباعت من يومين لواحد بيه من إسكندرية ، ولسه ماجاش يشوف حاله . . حضرتك عاوز منهم حاجة . . كلنا مع بعض والخفير فى عزبة المأمور خالى . . .

ـ أيوه . . أنا البيه اللى من اسكندرية واللى اشترى العزبة . . !

ـ شرفت . . يابيه شرفت . .

وظهر على وجهها السرور وقالت :

ـ الذرة اللى بشويها . . زارعينها إحنا فى أرضك . . أرضنا لسه ماتطلعش دره . .
ـ والمحصول كويس . . ؟
ـ كويس . . دا كله نصف فدان . . بناكل منه . .

ثم أخذت تحدق فيه كأنها تلوم نفسها . . لأنها لم تعرفه قبل أن يعرفها بشخصه . . فقد رأته من قبل . . وهو يعاين الأرض منذ أسبوعين . . ولكنه الآن غير ملابسه . . وخلع منظاره الأسود . . فتغير شكله . . وحياها ونزل بالسيارة إلى جوار الشاليه الخشبى المقام فى عزبته . .

ودفع باب الشاليه فوجده مغلقا بالمفتاح . . فتراجع يبحث عن شىء يجلس عليه . . وكانت الفلاحة ترقبه من الساقية . . وكانت قد عرفت غرضه فجرت وأحضرت له كرسيا من الكشك الذى فى عزبتها . . وجلس عليه وهو يشكرها . .

ـ أعمل لحضرتك شاى ؟

ـ كتر خيرك . . عاوز أشرب بس . . .

ورآها وهى تمضى مدبرة . . خفيفة الحركة رشيقة . . وشعرها الطويل يتدلى مضفورا وراء ظهرها . . وكان فى عنقها كردان من تراب الكهرمان الأصفر وعلى رأسها منديل مطرز . . وكانت أشبه بالعروس المجلوة . . ولكن بزينة طبيعية فلا أصباغ ولا ألوان . . وكانت تتكلم بحرية . . دون كلفة كما علمتها الطبيعة ودون خجل . . لأنها سافرة وتعمل فى الحقل . . واعتادت على مواجهة الرجال . .

وجاءت له بالماء فى كوب من الزجاج على صينية نظيفة أنيقة . . فعجب وكأنها عرفت ما يدور بخلده . .

فقالت :

ـ دول بتوع مدكور بيه . . كان الأول فرحان بالعزبة . . وجايب فيها كل حاجة . . حتى الثلاجة والراديو . . وبعدين زهق ومشى . . ونشوفه دلوقت كل شهرين مرة . . إوعى حضرتك تعمل زيه . . فلوسك تضيع فى البحر . .

لا . . أنا فلاح . . وابن فلاح . . وحتشفينى هنا كل يوم . .

ـ مبروكة عليك . . مبروكة . . والخفير بتاع حضرتك راجل كبير وطيب ومابقولش كده علشان انه خالى . . حتشوفه طيب . . والمأمور . . كان ميعرفشى حاجة فى الزراعة . . وكل ساعة . . يغير الخفير . . وأسطى الماكينة . . ووكيله . . كان حرامى . . ياما صرف فلوس . . ياما . . والشاليه بانيه كويس . . خالص . . وكان عاوز يجيب دينامو . . وينور بالكهربا . . . أهو جاى خالى عبد الكريم . .

وعندما شاهد عبد الكريم سامح من بعيد أسرع فى مشيته . . وسلم . . وفتح الشاليه . . وأخذ سامح يحادثه . . فى شئون العزبة . .

وكانت بهية قد حملت الصينية وسارت إلى بيتها . . وجلس سامح . . فى شرفة الشاليه . . يرقب الليل وهو يزحف فى بطء وسكون . . وأحس وهو جالس بالتعب . . فقرر أن يمضى الليل فى العزبة وأرسل عبد الكريم ليجىء له ببعض الطعام . . من إدكو . . ولكن قبل أن يعود عبد الكريم دخلت عليه بهية تحمل صينية وضعتها أمامه . .

- إيه ده . . . ؟

- عشاك يابيه . . .

- من غير متقولى ولا حاجة . . ؟ وليه التعب . . ؟

ورأى على الصينية زوجا من الحمام المشوى . . وخبزا . . وجبنا . . فدفع يده فى جيبه . . وأخرج ورقة بخمسين قرشا . . وقال لبهية :

- خذى . . .
- . . . آخد إيه . . ؟
- خذى . . .
- كل حاجة عندك بالفلوس . . .

ورفضت أن تأخذ منه النقود وتركته وهى تضحك . . .

واستيقظ فى الصباح . . قبل الشروق . . وتفقد زراعة الأرز فى مزرعته . . والأراضى البور . . التى تغسل . . وتستصلح للزراعة . . وشاهد وهو يمشى على حافة القناة . . بهية وزوجها . . فحياهما . . . من بعيد . .

وعندما أخذ طريقه إلى الإسكندرية . . فى الضحى . . قرر أن يعود إلى العزبة بعد يومين ومعه زوجته وأولاده . . ليمكثوا فيها جميعا . . حتى يفرغ من أعماله . . وجاءت الأسرة . . فرحة . . ثم بدأ الملال . . فالمكان مقفر ، وبين العزبة وبين العمران . . مراحل . . ومراحل . . ولا سبيل للتسلية . . ولا شىء يرى . . غير أسراب الطيور . . وهى تعبر أجواز الفضاء متجهة إلى الشرق . . ثم السواقى الدائرة والطنابير . . وماكينات الرى . . والثيران والأبقار . . والجاموس . . فى الحظائر وفى الحقول . . ولا شىء غير ذلك . .

وكان سامح يجلس مع زوجته مديحة وأولاده الثلاثة . . . فى شرفة الشاليه ونظرهم إلى الحقول :

وكانت الزوجة تسلى نفسها بعمل بلوفر للأطفال . . والأولاد يلعبون فى القنوات . . أو يجلسون مع بهيه . . فى الساقية . . وكانت تلاعبهم وتركبهم حمارا صغيرا . . وتظل النهار كله تعنى بهم . .

وكان سامح يرى بهية وهى تلاعب أولاده فى مرح وهناء كأنهم من لحمها ولا تفكر فى التفاهات التى تشغل بال زوجته مديحة وتعذبه . . . ويعجب لفوارق الحياة . .

ورجع يذكر زواجه بمديحة منذ ثلاثة عشر عاما . . وكيف بدأ بغرام عنيف . . فى فترة الخطوبة . . والزفاف . . ثم تطور إلى لاشىء . . لا شىء على الإطلاق . . وهو الآن يعمل ويدور كهذا الثور الدائر . . فى الساقية ليجلب المال من أعماق الأرض . . لزوجته . . لتصرفه فى إسراف وبذخ . . لتشترى الجواهر . . وعقود الماس . . والفساتين الفاخرة . . والعطور الغالية . . والجوارب الأمريكية . . والكماليات التى لا يستعملها أحد . . .

وعندما يعود متعبا . . منهوكا من عزبته فى كفر الدوار . . لا يجد صدرها ليستريح عليه . . . وإنما يجد الفواتير من هانو ، واتنيوس ، وتطلب منه مرافقتها إلى كازينو سان استفانو لمشاهدة فرق الرقص الجديدة ، ومامن مرة جلس بجوارها فى السيارة ، أو الفراش . . إلا وأحس ببرودة الجماد . . ويعجب أين ذهبت الحرارة التى كانت على شفتيها عندما كان يقبلها . . فى فترة الخطوبة . . اختلاسا فى السينما أو فى البيت فى غفلة من أهلها . . أين ذهبت هذه الحرارة وكيف ماتت عواطفها بسرعة . . لقد كان يحس وهو جالس بجوارها فى ذلك الوقت . . بمثل النار تسرى فى لحمه . . أما الآن فهى بجواره كأنها تمثال من الرخام البارد . . !

فما أعجب الحياة . . !!

نظر إلى بهية وهى جالسة مشرقة . . حلوة . . دون أصباغ ودون أحمر على الشفاه . . وبكحل طبيعى فى العينين . . وهى تضحك . . وتحمد الله على رغيف من الخبز . . وقطعة من الجبن . . وتتحدث فى حرية طبيعية دون كلفة فى كل ما تعرفه عن الحياة . . وتعمل مع زوجها فى الحقل وتعينه فى البأساء والضراء . . وإذا وقع له مكروه . . ذهبت معه . . إلى المستشفى ، ووقفت معه فى المحكمة . . وانتظرته أمام مركز البوليس . . . فى كل مكان تقف بجانبه . . تشد أزره . . فى الحقل وفى خارج الحقل . .

هذه هى الزوجة . . فكيف تتقدم الحياة فى الريف وتتأخر فى المدينة ؟ كيف ؟! . . وإذا مرض سهرت الليالى الطوال تمرضه حتى يشفى . . . وإذا بارت زراعته . . صبرت معه فى جلد حتى يهل العام الجديد . . . فيأتيهما الله بالعوض . . .

كيف تتقدم الحياة والمرأة فى الريف ، وتتأخر فى المدينة . . كيف ؟

وود وهو جالس هكذا . . لو يزحف حتى يقترب من بهية . . ويضع رأسه على صدرها . . فإنه فى حاجة إلى حنانها . . ود لو يمر بيده على ذراعها ، ويمسح على . . ساقيها

وفخذيها . . ود هذا . . ونسى أنها زوجة رجل آخر . .

ولم تستطع مديحة هانم أن تمكث فى العزبة أكثر من ثلاثة أيام . . فأرجعها سامح إلى الإسكندرية مع الأولاد . . وعاد إلى العزبة وحده . . لأنه سيشرع فى ضم الأرز . .

وكان يعود من الحقول فى المساء . . متمتعاً بما حوله من مناظر طبيعية فاتنة . . وكانت بهية تخدمه لأن خفيره ليست لـه زوجة . . كـانت تعمل القهـوة ، والشاى ، وتقـدم له العشـاء . . وتحادثـه فى حريـة وكأنها من طبقتـه . . فإذا فـرغت من عملهـا عـادت إلى بيتها . . وجلست تنتظر زوجها . . ونظرها يلاحقه . . من بعيد . . ويتابعه .

كانت تبادله النظرات فى إعجاب وصمت وكان يكبرها بأعوام قليلة . . وتراه سيدها ومالك لبها ولكنها لا تحب أن تخون زوجها ..رغم كل شىء .

وكان وهو جالس وحده . . يفكر فى بهية . . وفى العزبة . . وفى العمل والحياة ، والمال ، والجهاد فى سبيله . . وفى هذه الأشياء كلها . . التى يشغل بها الناس ويتقاتلون عليها . . وانتهى من تفكيره بأن الإنسان أنانى جشع . . وأنه يستطيع فى هذا البيت الذى تسكنه بهية . . وفى كهف . . وفى ظل شجرة . . أن يكون سعيداً . . سعادة مطلقة . . وأكربه أنه يعيش كالآلة . . وأنه يشقى ليجمع ثروة . . ولا شىء غير هذا . . وكل هذا باطل . . باطل الأباطيل . .

وذكر طفولته . . وكيف نشأ فى أحضان الطبيعة وترعرع بين ربوعها ، وكيف أن أمه كانت تستقبل بوجهه القمر . . . وتدعو الله أن يحفظه من الشقاء ومن البؤس . . ولكنه شقى وتلوث عندما انتقل إلى المدينة وعاش فيها . . .

ورأى بهية قد نهضت عندما قدم زوجها من الحقل . . ومدت العشاء . . وجلست مع زوجها تأكل على ضوء المصباح البترولى . . وبعد العشاء أخذا يتحدثان وانضم إليهما عبد الكريم وجلسوا الثلاثة مدة . . ثم انصرف عبد الكريم بعد صلاة العشاء . . ودخل الزوج إلى القـاعة . . وظلت بهيـة وحدهـا برهـة . . ثم حملت المصبـاح ودخلت القـاعـة وراء زوجها . . وردت الباب . . وأحس سامح بمثل النار تسرى فى جسمه . . وهو يرى هذا . . ولم يكن يدرى لذلك سبباً . . وراعه أنه عندما ذهب إلى الفـراش لم ينم ، وظل سـاهراً يتقلب . . على مثل الجمر . .

وقبل الفجر . . رأى نورا يتحرك عـلى حائط غـرفته . . وكـانت نافـذته الغـربية مفتوحة . . فتحرك من الفراش وأطل من النافذة . . فأبصر بهية ممسكة بالمصبـاح ، ثم وضعتـه فى طاقـة بجانب البـاب . . وأخذت جـرة . . ومـلأتهـا من مـاء السـاقيـة . . ورجعت . . ووضعت الجرة فى فناء البيت . . وكان الفناء نصف مسقوف . . وليس له

باب . . وجاءت بطست . . . وكوز . . واطفأت المصباح ، وأخذت تخلع ثيابها . . فأدرك أنها تود أن تستحم . . قبل أن يطلع النور . .

وكان يود أن يغمض عينه وهو يراها مجردة من ثيابها . . على ضوء الفجر . . ولكنه لم يستطع . . .

وصبت الماء على جسمها وهى جالسة القرفصاء . . ثم انتصبت . . وتناولت ثوبها . . ودخلت القاعة بسرعة وأغلقت الباب . .

ولم يستطع سامح بعد هذه الليلة أن يبعد صورة بهية عن خياله . . فقد ملكت عليه لبه وشغلت مسالك تفكيره . . وكان يتعذب . . ولايستطيع أن يبوح لها بحبه . . وهيامه بها . .

ومرت الأيام . . . وذات مساء . . كان واقفا بجوار ماكينة الرى الرئيسية . . كانت تعاكس . . وتتوقف كثيرا . . وكلفته كثيرا من تغيير قطع الغيار . . ففكر فى شراء ماكينة جديدة بدلها . . وكان الأسطى يديرها وسامح يقف وراء الحدافة . . فانقطع السير فجأة وهى دائرة فى أقصى سرعتها . . وضرب سامح فى صدره . . فارتمى على الأرض فاقد الوعى . . وجرى خفير عزبته . . وبعض الفلاحين وحملوه إلى فراشه . . وكان الدم ينزف من صدره . . ولما رجع إلى رشده . . أمر عبد الكريم بأن يحضر له طبيبا من رشيد . . ولا يخبر الست بما حدث لأنه لايريد أن يزعج الأولاد ورجاه أن يصرف من تجمع خارج الشاليه من الفلاحين لأنه يود أن يستريح فى هدوء . . والمسألة بسيطة ولكن الكلام يؤذيه . . وانصرف الجميع وكانت بهية تمرضه . . وزوجها يحمل لها الماء النقى من الطلمبة . .

وجاء الطبيب فغسل الجرح وأمره بالراحةالتامة . . فى الفراش . . . وأعطاه بعض المقويات . . ووعده بالمرور عليه حتى يشفى . .

وأصبح سامح حبيس الفراش . . ومع ذلك لم ييتئس . . وعجب لكونه لايفكر فى زوجته وأولاده البعيدين عنه كما فكر فى بهية . . وفى السعادة التى تغمره لقربها منه . . ومن فراشه وهو مريض . . وكانت تقدم له أقراص الدواء . . وتحادثه وترفه عنه . .

وذات ليلة علم من حديثها معه أن زوجها ذهب لمقابلة صاحب الأرض فى دمنهور . . وكان عبد الكريم قد ذهب يحرس المحصول فى الجرن . . وأصبحت بهية وحدها معه . . فى هذا الليل الريفى الساكن . .

وشعر بيده تتحرك . . وتمسك بيدها . . وتمر عليها فى رفق . . وتركت يدها فى يده . . شفقة به .

وسألها :

- انت من رشيد . . يابهية . . ؟
- ايوه . . ياسيدى . .
- وأملك وأبوك عايشين . . . ؟
- ما تم من زمان . .
- وعبد الغفار من بلدك ؟
- أبدا . . .
- أمال لقاك فين ؟
- كده النصيب . . أهلى صيادين . . وأهله فلاحين . . لكن كده النصيب . . .
- وبتحبيه . . ؟
- حضرتك تعبان . . ومتتكلمشى كتير . .
- دا عجوز وزى أبوك . . . ومش ممكن تحبيه . . !
- اشترانى بالفلوس . . . زى ما انت عاوز تشترى منى كوز الذرة بالفلوس . . .
- عاوزك تعيشى معايا على طول . . يابهية . . . ؟
- ازاى . . . ؟
- تجوزينى . . .
- وعبد الغفار . . توديه فين ؟ . . تموته ولا تشترينى منه بالفلوس ؟ . .
- ليه الكلام ده . . أنا عايش هنا علشانك . . عارفة كده . . ولا لأ . . ؟
- دلوقت بتتكلم كتير . . وقبل كده . . ماكنتش بتكلمنى أبدا . . كده إيه اللى جرى ؟ . .
- ماقدرتش أحوش نفسى من كده . . وخايف أموت . . قبل ما . . خايف أموت . . .

وخفت صوته . . . وأغمض عينيه . . وشحب لونه . . فانحنت عليه وقد سرت فيها رعدة الخوف . . لتتأكد من أن أنفاسه لازالت تتردد . .

وهنا أحست بذراعه اليمنى تدور عليها وتشدها إلى صدره . . وبذلت مجهودا جبارا فى التخلص منه . . فلم تكن الخيانة الزوجية سهلة عليها كما يتصور . . . . ولكنه ظل ممسكا بها . . وقاومته برفق أولا ثم بعنف . . وظل يزحف على الفراش ممسكا بها وهى تقاوم . . فجرته وسقط معها على الأرض وظلت تصارعه . . ونهضت فنهض معها ليلقيها على الفراش . . . فدفعته بقوة . . فارتطم فى عمود السرير وسقط والدم ينزف منه . .

وعندما جاءت عربة الإسعاف . . حملوه على المحفة . . . وكانت بهية ترقبه من النافذة . . وقد وضعت طرف ثوبها بين أسنانها لتكتم صرخة قوية خرجت من أعماقها . . !!

ذكريات من الدانوب

ولم أكن أود أن أنام ، أو أحرم نفسى من لذة الحديث معها فى ذلك الجو الشاعرى الجميل . . . فأطفأت نور الديوان ، وشعرت بها بعد قليل . . .

تركت بوخارست ذات ليلة فجأة . . فقد وجدت نفسى وحيدا فى مدينة كبيرة بلا غاية ولا أمل .

وركبت القطار وهو يتحرك ، ولهذا اندفعت إلى الداخل كالقذيفة وجلست فى أول عربة صادفتنى وأنا ألهث ولا أحس بشىء مما حولى . . . ثم رجعت لنفسى ووجدت أننى لست وحيدا فى العربة . . فقد كان فى الديوان اثنان غيرى . . رجل وامرأة . . وكانت المرأة تجلس فى مواجهتى والرجل بعيدا عنها فى الركن الأيمن . . وكان مظهرهما يدل على أنهما سائحان مثلى ، وكان الرجل ذا سحنة سكسونية . . كان مكتنز اللحم مدور الوجه يبلغ الخمسين من عمره . . وكان مستغرقا فى المطالعة . . أما المرأة فقد كانت شابة فى الثلاثين أو أقل . . . طويلة القامة . . ملفوفة العود . . شقراء الشعر . . وكانت تستدير إلى النافذة وقد ألقت أمامها على النضد الخشبى الصغير ببعض المجلات الأمريكية . . وصوبت إلى وأنا جالس نظرة سريعة ، ثم عادت إلى النافذة ترمق مدينة بوخارست وهى تسبح فى الليل الحالم . .

وكنت لاأزال ممسكا بمقبض الحقيبة فى يدى وعلى وجهى دلائل الارتباك كمن يركب القطار بغير تذكرة . . . فلما اقترب القطار من محطة الشمال نهضت لأضع الحقيبة على الرف . . ولمست وأنا أفعل ذلك ثوب السيدة . . فاعتذرت لها بالانجليزية . . . فردت على بانجليزية أصيلة . . فسررت وقلت لنفسى لقد وجدت أخيرا من يتكلم اللغة التى أجيدها . . بعد ثلاثة شهور قضيتها فى الدانوب وأنا أتكلم بالإشارة كالأخرس . .

وأخرجت علبة سجائرى واستأذنتها فى أن أشعل سيجارة . . وكان الرجل الآخر مستغرقا فى كتابه غافلا عمن حوله فلم أشأ أن أستأذنه .

وبعد قليل أشعلت لها سيجارتها وأخذنا نتحدث ، وكانت تسألنى مئات الأسئلة بعد أن علمت أننى مصرى . . ولم أسألها عن جنسيتها وإن كنت قد خمنت أنها إنجليزية أو أمريكية .

وكان الرجل الجالس هناك فى الركن لايشترك معنا فى الحديث ولا يلقى علينا حتى نظرة .

وبعد ساعة غيرت مكانى وجلست بجوارها ملتصقا بها . . وكانت قد فتحت حقيبتها الصغيرة . . وأخذت تريني مجموعة من الصور التقطتها فى بودابست ووارسو وسهول الدانوب وقالت لى إنها ستكمل هذه المجموعة فى البوسفور

وكنت أتحدث معها فى نشوة . . وأزداد التصاقا بها وأشتم رائحة عطرها وألمس براسى شعرها . . وكانت النافذة التى تليها مفتوحة والنجوم تتألق فى السماء ، والقطار يسبح فى لج الليل متهاديا ليطيل من أمد سعادتنا . .

وكنا مستغرقين فى حلم ممتع . . وتصورنا أن القطار يمضى بنا وحدنا إلى أرض الأحلام . . . ونسينا الرجل الثالث الجالس فى ركن من العربة .

ولما كنا سنقطع الليل كله فى السفر ولانصل كونستنزا إلا فى الصباح فقد دعوتها إلى عربة الطعام للعشاء . .

وجلسنا هناك أكثر من ساعتين نتحدث ونشرب الجعة . .

ونهضنا لنرجع إلى مكاننا . . وفى الممر الطويل أمسكت بيدها فتركتها فى يدى لينة رخوة . . . وجلسنا متلاصقين كما كنا . . وكان رفيقنا فى العربة قد أطفأ المصباح الكهربائى الذى بجواره وأغلق كتابه واستلقى وراح فى سبات عميق .

ولم أكن أود أن أنام أو أحرم نفسى من لذة الحديث مع استر . . فى ذلك الجو الشاعرى الجميل ، فأطفأت نور الديوان كله ، واضطجعت مسترخيا حالما . . . وشعرت بها بعد قليل تميل بصدرها على صدرى فتركتها مستريحة

وأغمضت عينى ورحت أتذكر الفنادق فى كو نستنزا أو كارمن سيلفيا لأتخير الفندق الذى سننزل فيه معا أنا واستر .

وتخيرت الفندق بالفعل وكان صغيرا وجميلا على البحر ، ورأيت أن نبقى فيه أسبوعا قبل سفرنا إلى استانبول .

وتحركت استر . . . وشعرت بوجهها ملقى على صدرى . . وأدركت أنها نامت . . وأخذت أنظر إلى عينيها الزرقاوين ووجهها الجميل . . ثم قربت وجهى من شفتيها . . وقبلته قبلة خفيفة . . خوفا من أن تصحو وتحس بفعلتى .

وراعنى أنها فتحت عينيها ونظرت إلى فى سرور واستسلام . . فأطبقت على شفتيها ورحنا فى عناق طويل الأمد .

وفى الصباح . . فتحت عينى . . فوجدتها قد استيقظت وغيرت ملابسها وأخذت توقظ الرجل الثالث الجالس معنا وتداعبه . . . وكان لايزال مستغرقا فى النوم . .

وسألتها بعد أن استيقظ وذهب الى الحمام :

ـ من هذا الرجل أو تعرفينه من قبل . . ؟

ـ انه زوجى . . باكستر !! ألم أقدمك إليه . . . ؟ ياللعار . . . !

وتصبب جسمى عرقا . . وشعرت بالعار حقا . . وبالخزى لكل ما حدث . . . !

ســوق الســبت

أدرك عليـان من أول رصـاصـة أطلقت أنها ليست بنـدقيـة شيـخ الخفـراء ، ولا بنــدقيـة الخفير . . . وأن الذى أمامه رجل آخر يخشاه أكثر من الموت . . .

كان غطاس أحد تجار الأقمشة الذين يذهبون الى سوق السبت فى قرية رافع وهى قريه صغيرة فى قلب الصعيد . . وكان أول من يدخل سوق القرية بحماره الرمادى الأشهب . . وأول من يجلس تحت المظلة الطويلة فى ساحة السوق . . وآخر من يبرح السوق من التجار . .

وما من قروى لم يعرف غطاس أو يتعامل معه . . أو يشترى منه . . «غزلية» أو ثوب دمور أو جلابية زفير . . وما من قروية لم تشتر منه طرحة أو منديل رأس . . أو جلد الفيل

صباح الخير . .

ـ خير عليكى . .

ـ جايباها منين الجلابية دى . .

ـ من عند غطاس . .

وكان غطاس يتردد على سوق السبت منذ سنين . . وهو آمن مطمئن على بضاعته وماله . . لأن القرية آمنة وعمدتها الشيخ مهران . . رجل قوى مرهوب الجانب . .

فما من حادثة قتل أو سطو أو سرقة وقعت فيها وهو عمدة ، وما من حادثة واحدة سجلها دفتر الأحوال فى المركز .

وكان الفلاحون يذهبون بمواشيهم إلى الحقـول ويعودون منهـا فى ظلام الليـل فلا يعترضهم مخلوق . . ويكومون المحاصيل فى الأجران ويتركونها فى حراسة الغلمـان . . ولايجرؤ إنسان على الاقتراب منها أو مد يده إليها فالجميع يعيشون فى أمان مطلق . .

وكان الشيخ مهران مع قوته وجبروته تقيا عادلا . . يأخذ من الأقوياء للضعفاء ، ويسوى الأمور بين الناس على أحسن وجه . . وكان الجميع يعتبرونه أبا كبيرا . . حتى قلت

المنازعات والخصومات بين الفلاحين أمام القضاء . .

ولذلك روع الناس وذهلوا عندما وجد غطاس مقتولا ذات يوم وهو عائد من السوق

وكان الشيخ مهران في ذلك الوقت مريضا مرضا خطيرا حتى يئس أهله من شفائه وصوتوا عليه فعلا ذات ليلة . . ولذلك كتم وكيل العمدة عنه الحادث وهو يرتعش من مجرد تصوره ما سيحدث لو علم .

وعلم العمدة أخيرا بالحادث فثار ثورة عنيفة . .

وسأل الشيخ عبد الرازق وكيل العمدة . .

- هل عرفت القاتل . . ؟

- الولد عبد الموجود . . كان بايت في المسطاح . . جنب الجسر . . ومر عليه غطاس

- عبد الموجود لا يجرؤ على قتل فرخة وأنا حي . . ياشيخ الخفر هات لي فطوم . .

وأسرع شيخ الخفر لإحضار فطوم . .

وكانت فطوم أرملة في العقد السادس من العمر . . تسكن في شرق البلد في بيت على الجسر . . ولها ابن وحيد يدعى عليان . . وكان يعمل في المزارع والنجوع البعيدة . . في الغرب . . على العدوة الأخرى من النيل . . وكان فاسدا شريرا بدد فدانين تركهما له أبوه على «الغوازي» وفي المواخير في المدينة . .

ولم تكن أمه فطوم تراه إلا قليلا . . لأنه كان يقضي الليل حيثما اتفق . . وكان مع الجرأة الشديدة وحب المغامرة والتسلط - وهي الصفات التي ورثها عن أبيه - يخشى الشيخ مهران . . ولهذا هجر القرية . .

وكانت فطوم تملك على امتداد بيتها أربعة قراريط تزرعها بنفسها . . طماطم . . وبامية . . وملوخية . . وفجلا . . وبعض اللفت . . وتسقيها بسهولة من ماء الترعة . . وتعيش من ثمن هذا الخضار قانعة راضية .

وكان أهل القرية يرونها وهي ترفع وجهها إلى السماء . . داعية على ولدها العاق . . وكانت سافرة الوجه جسورة . . لم ينحن ظهرها بعد . . وقد اكتسبت من العمل المتصل في حقلها الصغير صحة وقوة . .

دخلت فطوم على العمدة . . بعد أن وضعت بجانب الباب عصاها الطويلة من الجريد . . وكانت هذه العصا تلازمها دائما . . لأنها تحرس بها الخضار الذي تزرعه من الفروج . . والأوز والبط . .

وقالت وهى تحدق فى العمدة الراقد فى الفراش . .

ـ عوافى يا بو محمد . .

ـ عوافى . . يافطوم . . لسه برضه قاعدة شديدة يا فطوم . .

ـ الصحة ليك يا بو محمد . .

ـ فين عليان . . ؟

ـ ما عرفش يا حضرة العمدة . . لى شهرين ما شفته . . ولا وقع عليه نظرى . . قطيعة . . ربنا يفتكره برحمته . . ويأخذه . . قطيعة تقطعه . .

ـ الخفير اللى على البحر شافه معدى فى العشية . .

ـ أبدا . . ياحضرة العمدة . . أبدا . . والله ماجه . . وحياة الشيخ العريان . . وسيدى جلال . .

ـ طب روحى يا فطوم . .

ـ الله يخليك لينا . . ويشفيك . . ويوتق حزامك . .

وخرجت فطوم . . واجتازت ساحة الدوار . . ومشت متئدة الخطو رابطة الجأش من العرصة الى الجسر وعصاها الطويلة فى يدها .

ولم يصدق الشيخ مهران ما قالته فطوم . . وظل يبحث عن القاتل . . وبعد بضعة أيام وكان لايزال مريضا فى فراشه . . سمع بكاء امرأة فى ساحة البيت . . فسأل عنها . . وعرف أنها نرجس زوجة غطاس . . جاءت لتشكو حالها . . وأمر بإدخالها عليه . . فدخلت لابسة السواد وخلفها ثلاثة أطفال وعلى صدرها رضيع . .

وقالت وهى تبكى :

ـ جتلك بأولاد غطاس المساكين . . ياحضرة العمدة . . مين يوكلهم كلهم . . ودم أبوهم راح هدر . . ؟؟

ونظر الشيخ مهران إلى الأطفال اليتامى . . وتأثر وأخذ منه الحزن . . وقال لنرجس وهو يعطيها بعض النقود :

ـ خدى . . وروحى . . يا نرجس . . وانا عارف اللى على . .

ـ دا كان بيجى السوق على حسك . . من عشرين سنة ما انسرقتش معزاية من بلدك

ـ روحى . . يا نرجس . .

ـ ربنا يبارك فيك . . ويشفيك . .

وخرجت نرجس تجر أطفالها . .

وبعد أيام قليلة عرف الشيخ مهران القاتل . . ولم يكن غير عليان الذى خطر بباله لأول وهلة . . وعرف الشيخ مهران أن عليان بعد أن قتل غطاس وسرق الثلاثين جنيها التى كانت معه فى جيبه . . ألقى كيس القماش فى النيل . . وذهب الى صاحب له فى النجع . .

وظل الشيخ مهران وهو فى فراشه يتقصى أخبار عليان حتى علم ذات ليلة أنه عبر النيل فى غبش الظلام ومعه بندقيته وذهب من شرق البلد الى أمه . . فأرسل الخفراء ليطوقوا البيت وقال لشيخ الخفر :

ـ عاوزه . . حى . .

وبعد قليل علم الشيخ مهران أن عليان أحس بالخفراء قبل محاصرة بيته . . وهرب كالثعلب . .

وخشى الشيخ مهران أن يفلت منه القاتل إلى الأبد . . فتحرك من الفراش وهو ينضح عرقا . . وتناول بندقيته وخرج من بيته . . ولما رآه خفير الدرك جرى وراءه ليرافقه . .

فقال له الشيخ مهران :

ـ خليك يا عباس . . وخد بالك من النقطة . . وقل لشيخ الخفر إن رجع فاضى . . يطوق جنينة عبد الكريم . . يمكن الولد فيها . .

وسار الشيخ مهران على الجسر وحده . . وكانت مياه الفيضان تغمر الأرض كلها والظلام رهيبا . . وكان الرجل مع مرضه يمشى قويا وقد جمع حواسه كلها فى باصرته . . . وكان قد لبس رداءا خفيفا أسود وتلثم . . وتمنطق بحزام وضع فيه أكثر من مائة طلقة . . فإنه يعرف جيدا الرجل الذى يطارده . .

وكان يفكر فى الأرملة المسكينة نرجس وأطفالها . . والظلام الذى شملهم والبؤس الذى ترديوا فيه . . والجوع الذى ينتظرهم دون جريرة أو ذنب جنوه فى الحياة . .

وكان يغلى غيظا لمجرد تصوره أن عليان هذا الشرير . . سيفلت منه دون أن ينال القصاص . . كان يريد أن يجتث الشر من جذوره . . وتحت تأثير هذا وهو مريض . . وسار وقد شعر بقوة خارقة تدفعه إلى التقدم .

وبعد ساعتين عثر على عليان فى ماكينة رى . . وأدرك الشيخ مهران بعد الرصاصات الأولى التى أطلقـاها . . أن المجـرم منبطح عـلى سطح المـاكينة ويحتمى بصهـريج الميـاه والاقتراب منه فى هذه الحالة انتحار مؤكد . . فدار يتلصص ويخوض فى القنوات . . حتى تسلق مرتفعا يشرف على بناء الماكينة . . وأطلق الرصاص . . وتصارع الرجلان صراع الجبابرة . .

وأدرك عليان من أول رصاصة أطلقت أنها ليست بندقية شيخ الخفراء ولا بندقيـة خفير . . وأن الذى أمامه رجل آخر . . رجل كان يخشاه أكثر من الموت . . ويتصور أنه لن يترك الفراش أبدا . . وأنه راقد هناك . . ولكنه تحرك وجاء ليطارده . . وصوت بندقيته يدوى وقد خرج اليه وحده . . وليس معه خفير واحد . . لاليقبض عليه وإنما ليفعل شيئا آخر . .

وثار عليان وأطلق الرصاص فى جنون . . ولكن الشيخ مهران أسكته الى الأبد . . فخر فى معجنة للطوب صريعا . .

ورجع الشيخ مهران يمشى على الجسر وحده وقد سكن الليل وعاد السكون يلف كل شىء . .

وخرجت القرية كلها على صوت الرصاص تستطلع الخبر . . وعلمـوا أن العمدة المريض . . خرج وحده فى الليل . . وقتل عليان . .
وسار الشيخ مهران على الجسر . . وخلفه الفلاحون يباركونه . . وقبل أن يدخل مدخل القرية صوبت إليه رصاصة . . وسقط . .

ورأى الناس فطوم . . واقفة على سطح بيتها وبيدها بندقية . . وكـانت منتصبة القامة . . شامخة الأنف . . وكان منظرها وهى واقفة يلقى الرعب فيمن حولها . . فلم يجرؤ انسان على الاقتراب منها . .

ليست بسفينة عائمة فى البحر ، وإنما هى سفينة ثابتة على الأرض تعيش فيها حسنية .. التى تعد فتنة فى النساء ، حسنها محط الأنظار وصوتها كرنين الفضة الخالصة ...

لم تكن سفينة عائمة فى البحر وإنما كانت سفينة ثابتة على الأرض . على مساحة لاتزيد على ثمانين مترا . . وفى هذا القطاع الصغير فى حارة الشيخ ريحان بعابدين ، أقام أحد المهندسين الفنانين منزلاً شاهقاً من ستة أدوار ، على طراز السفينة مستدق من الأمام ومن الخلف ، دائرى الفرندات والشرفات . . يخيل إليك وأنت تراه من بعيد أنه يسبح فى الجو . .

وفى هذا المنزل العجيب أقمت سبع سنوات من عمرى فى الدور السادس والأخير منه . .

وكانت صاحبة البيت سيدة سمراء تعيش مع زوجها فى السودان فلما مات جاءت إلى القاهرة . .

وكانت هذه السيدة من أنبل وأكرم من عرفت من النساء ، وكانت تقيم فى شقة واسعة فى منزل ملاصق للسفينة . . وكنت أدفع لها إيجار الشبقة الذى لا يزيد على جنيهين فى الشهر من باب صغير يقع بين الدور الرابع والخامس ويوصل إلى بيتها . .

وكانت تعود وتقرضنى أضعاف هذا المبلغ فى خلال الشهر إذا ما احتجت لنقود . . ولم تكن تسأل عن إيجار ، أو تطالب أحداً من السكان فى أول الشهر . . وكان يسكن فى الدور الأول قومسيونجى وقد تأخر عليه إيجار سنتين وما طالبته فلما قلت لها :

– انت ربيت عند الرجل عادة عدم الدفع . .

قالت :

– لا . . ياابنى . . إنه لا يكسب فى هذه الأيام . . كما كان من قبل . . فهل أجور عليه أنا والزمان . . دعه يدبر طعامه . . وغداً سيدفع ما فى ذلك شك . .

وكان يسكن تحتي رجل في عقده الخامس . . وكان عزباً . . وموظفاً فى مصلحة حكومية . . وكان متبرماً وساخطاً على الحياة والناس . . ولا شك أنه كان يلقى كل ضروب الذل والهوان من رؤسائه فى العمل فقد كان منكس الرأس ذليلاً . . وما رأيته إلا ثملاً . . يترنح من فرط الشراب . .

وكان يسكن تحت هذا شاب يشتغل فى شركة بيع المصنوعات وتقوم على خدمته أخته ومعهما أخ صغير فى المدرسة . . وهى أسرة هادئة ريفية المنبت تعيش فى حالها . .

ويسكن تحت هذه الأسرة شاب أجنبى متزوج حديثاً من رومية مثله . . يعمل ميكانيكياً وصاحب ورشة صغيرة لإصلاح السيارات فى شارع القاصد . . وهو دائم الشجار مع زوجته العروس . . دائم الضرب لها . . لسبب أو لغير سبب .

وكانت المعركة تبدأ فى الليل وقبل النوم عادة . . فإذا اشتد الضرب خرجت الزوجة من باب شقتها مذعورة فى قميص نومها . . وتجرى حافية القدمين على السلم . . حتى تصل إلى أى شقة مضاءة . . فإن وجدت جميع السكان نائمين . . قرعت الباب الصغير الموصل إلى صاحبة البيت . . وتفتح لها السيدة . . وتأخذها عندها إلى الصباح . .

وكانت هذه الرومية ذات جمال صارخ . . وزوجها قمىء ضئيل ، ولا شك أنه كان يحس فى أعماقه بعجزه وضآلته . .

وكنت الوحيد فى السفينة الذى يتلقى الإزعاج كله . . لأنها كانت تصعد السلم مندفعة ولا تجد شقة مضاءة سوى شقتى . . فتهز بابى فى اضطراب . . وهى تبكى . . فكنت أدخلها فى شقتى وأغلق عليها الباب وأنزل إلى الزوج لتهدئته . .

وكان يسكن فى الدور الثانى أسرة تركية مكونة من أرملة وابنتها التى تعدت سن الزواج وكانتا لا تخرجان إلا قليلاً ولا يراهما السكان إلا نادراً . .

وكان الموظف السكير بعد أن يعود من عمله ويستريح . . يقف فى المنور يغازل أخت الساكن تحته ، وكانت الفتاة حلوة وسوداء الشعر غزيرته ولكنها كانت ريفية خجولة ولا ترد على مغازلاته حتى بنظرة . . وهذا يزيده تعلقاً بها وولهاً . .

وكان بجوار السفينة . . منزل من طابق واحد قد تهدم نصفه . .

وفى هذا البيت كانت تقيم أرملة تسمى بأم حسنية ، ولها غلام يعمل فى مطبعة مصر بشارع الدواوين ، وحسنية بنتها فتاة فى الثامنة عشر من عمرها . . ويسكن مع هذه الأسرة الفقيرة . . عم إسماعيل وهو أعمى فى سن الخمسين ضخم الجسم طويل القامة . .

وكان يبرح البيت مبكراً ويجلس فى مقهى صغير بجوار جريدة المقطم يشرب الشيشة ويتحدث مع العمال وحوذية النقل الذين يكثرون فى هذه المنطقة . .

وكانت حسنية فتاة بيضاء تعد فتنة فى النساء . . وكانت تعرف محاسن جسمها . . ولها طريقة*فريدة فى لبس الملاءة وطيها ، والسير بها فى الشارع . . وكان شبان الحى يغازلونها بالكلام الخفى . . والصريح وهى لا ترد على أحد منهم . .

وكان كساب أكثر الشبان مغازلة لها . . وهو عاطل يجلس طول اليوم على باب حلاق فى ناصية الشارع . . ومعه اثنان أو ثلاثة من العاطلين التافهين مثله . . يغازلون السيدات المارات فى الطريق ، ويتحدثون فى السياسة . . وهى أسهل الأحاديث على هؤلاء التافهين . .

وكان كساب هذا جباناً . . فلا يجرؤ على ملاحقتها ومغازلتها إلا إذا عرف أن عم إسماعيل خرج من البيت . . ولم تكن الفتاة تلتفت إليه إطلاقاً أو تعير بالها لما يقول . .

وكان جمال حسنية فريدا . . وحسنها محط الأنظار . . وكان لهاصوت ناعم وضحكة تدوى كرنين الفضة الخالصة . . وكانت كأنما نحت جسمها مثال فنان قادر . .

وكان هذا الجسم يتحرك فى الشارع مائة مشوار فى اليوم . . يجىء بالكبريت . . والصابون . . والملح . . وإبرة الوابور . . والملوخية . . والفلفل الأحمر . . والفجل . . والجرجير . . والبطيخ . . والعنب . . والشمام . . لسكان السفينة جميعا . . فقد كانت أمها تخدم الأدوار الخمسة فى السفينة . . عدا دورى السادس . . كما كانت البوابة التى تحرس السفينة وتأخذ الرسائل من البوسطجى . . وتمسح السلم . .

وكانت أم حسنية تحيينى فى الصباح والمساء . . أنا الساكن الجديد وتظهر مودتها الزائدة نحوى . . ومع ذلك ظللت شهرين أنظف شقتى الصغيرة بنفسى . . وأتردد فى استدعائها . . فلما جاء دور الغسيل . . أعطيتها المفتاح . . وكنت أعود بعد الظهر فأجد البيت كله مغسولا وممسوحا بالجاز . . ثم أصبحت تطبخ لى . .

وكانت حسنية معها تساعدها فى يوم الغسيل . . وتحضر لها الأشياء من السوق . .

ومرت الأيام وأصبحت أرى حسنية مع أمها . . فى المطبخ . . وجالسة إلى طست الغسيل . . وناشرة الملابس فى الشرفة . . ومخرجة الفراش إلى الشمس . . وهى ترتدى القميص الأبيض . . والجلابية الزرقاء . . حافية القدمين . . أو لابسة الشبشب أو القبقاب . . وبخلخال يرن فى الساق أو بدونه . .

على أنها كانت دائما بصحبة أمها . .

وفى عصريوم . . سمعت طرقا على بابى . . ولما فتحت الباب . . وجدت حسنية واقفة وحدها على العتبة . . وابتدرتنى بقولها :

- أمى تعبانة شوية . . وبتقول لحضرتك . . عاوز حاجة من السوق ؟ أكل . . ؟ !

- أيوه . . تجيبى زبادى . . وعنب . . بس ادخلى . . واعملى قهوة . . أولا . .

وظلت واقفة على الباب تنظر إلى . .

- أدخلى . . ياحسنية . . خايفةمنى . .
- انت لأ . . أمى عارفاك كويس .
- أمال واقفة ليه . . ؟
- أصلى ما اعرفش أعمل القهوة . . وحاتكسف . .
- مش مهم تكون مظبوطة خالص . .

ودخلت . . ولأول مرة بيقى وحدها . . وشعرت بعد دقيقة بالأمان وأخذت تجىء بعد ذلك كثيرا وحدها . . تصنع لى القهوة قبل الغروب . . وترتب الشقة . . وتتحدث وتضحك . . وتخرج النقود من محفظتى وتعدها . . وتقول :

- أنا عاوزة قد دول . . وأسافر . .
- على فين . . ؟
- إسكندرية . . بورسعيد . . أى بلد . . بعيد عن كساب . . وكل أولاد الكلب . .

وكنت أعرف أنها تتعذب من هذه السخافات الصبيانية . .

وتظل فى شقتى حتى تسمع أمها تصيح . .
- يابت ياحسنية . . يا مضروبة فى قلبك . .

فتهبط السلم مسرعة . .

ولم تكن حسنية مضروبة فى قلبها كما كانت تنعتها أمها . . بل هى التى كانت تضرب قلوبنا جميعا وتوجعها . .

وذات يوم . . عدت بعد الظهر كعادتى . . فوجدت حسنية وحدها فى الشقة . . وقالت وهى تضع الطعام على المائدة . .

- أوعى تعيب على الأكل . . دانا طابخة النهارده وحدى . .

- وأمك مالها . . ؟

راحت مع عمى اسماعيل القصر . . طالعله خراج . . مسكين . .

وابتدأت حسنية تتحرك فى الشقة الصغيرة فى رشاقة وسرعة . . تضع الأطباق على المائدة . . ودورق الماء . . والجرجير . . والملاحة وكنت ألاحظ حركتها . . وأنظر إليها نظرة جديدة . . وأشعر باضطراب . . وهى تتحرك أمامى مع أنى انفردت بها فى الشقة قبل ذلك مرارا . . أكان ذلك لغياب عم اسماعيل . . وأمها . . ولأنى آمن جانبهما فترة من الزمن لم أكن أدرى . . ولكننى شعرت براحة نفسية بالغة لغياب هذين عن الحى كله . .

وكانت حسنية مرتدية جلابية زرقاء ، وتعصب رأسها بمنديل فى لون ثوبها . . وكان الثوب قصيرا . . وهى تمشى حافية . . فبدت سيقانها العارية . . كما خلقها الله بكل جمالها وسحرها . .

وسألتنى وقد بدأت أتذوق الطعام :

- إزى الأكل . . ؟
- حلو جدا . . زيك . .
- وانت كمان حتبقى زيهم . .
- أنا باقول الصدق . . من غير غرض . .

- مكنتش عاوزه الجمال ده . . اللى معذبنى ومليش راجل يحميه . . أخوى صغير وعمى اسماعيل زى ما انت شايف أعمى ومسكين . . ومبقلوش حاجة من الكلام اللى باسمعه من الناس . . لأنه لمايثور يبقى مجنون . .

- عمك هو ؟ . .
- لأ . .
- أقعدى كلى معايا . .
- مين . . أنا ؟ !
- أيوه . . أقعدى . .

وضحكت . .

- بتضحكى ليه ؟ . . أقعدى . . .
- أنا أقعد معاك ؟ . . دانا خدامة . . .
- مين قال كده ؟ . . إن ماكنتيش حاتكلى مش واكل . .

ونهضت . . وكانت واقفة بجوار المائدة . .

- يالا . . خلينا ناكل . .

وأمسكت بيدها . . وكانت لينة رخوة . . وسحبتها برفق فأسبلت عينيها . . وظهر الخجل على وجهها . . ولما رفعت أهدابها وجدت النار تشتعل فى عينى . .

وكانت يدى تضغط على ساعدها . .

لم أحس بنفسى وأنا أقترب منها وأطوقها بذراعى . .

وكانت فى تلك اللحظة قد التصقت بالحائط . .

ولم آكل . . واكتفيت برضاب شفتيها . .

وشغلت بحسنية وأصبح يضايقنى معاكسة الشبان لها . . وكنت أثور . . وأود أن أضع حدا لعذابها . فأضرب كساب هذا حتى يموت . . ولكننى كنت أخاف وأفكر فى المستقبل والحياة . . وأخشى كل ما يخشاه الجبناء . . وكانت المسكينة . . تتعذب وتشقى فى صمت . .

وكنت أسمع كساب . . يقول وأنا مار فى الطريق . .

- دا وصل للدور السادس . . اتمتع يا ابو عفان . . اتمتع . .

ولا أستطيع أن أفعل شيئا . . لأننى موظف فى شركة كبيرة وأعيش فى رخاء ودعة . . وكانت حسنية تختلس الوقت اختلاسا لتنفرد بى . . تذهب إلى صاحبة البيت فى المنزل المجاور ثم تتحين الفرصة وتطلع إلى شقتى بعد أن تنفذ من الباب الصغير بين البيتين . . وتعود من نفس الطريق . . وكنت أضمها إلى صدرى فى الظلام . . وأهمس فى أذنها بالكلام خوفا من أن يسمعنا أحد . . وكانت تقول لى :

- خدنى . . بعيدا عن هنا . . بعيدا . . وسأكون جاريتك كما أنا الآن . . إبعدنى عن هذا الجو . . إن جمالى نقمة على وحدى . . إننى لا أريد أن أسبب العذاب لأمى المسكينة التى تعيش بقوت يومها . . . ولا لعم اسماعيل الضرير الفقير . . الذى لا حول له فى الحياة ولا قوة . . إننى أشقى بسبب هذا الجمال الذى لا أجد من يحميه . . وأتمنى لو أشوه . . اننى لو أشوه . . تصور أن كل شاب يرانى فى الطريق يتصور أن لا شىء يفعله لامتلاكى أكثر من أن يمد يده نحوى ، أو يشير إلى بأصبعه ، مجرد إشارة ، لأرتمى فى أحضانه . . تصور هذا وقدر بنفسك عذابى . . لماذا هذا ؟ . . لأننى فقيرة . . لماذا . . ؟؟

ولكنى عندما أضع رأسى على صدرك . . أنسى كل شىء . . أنسى كل هذا لأعيش فى اللحظة السعيدة التى أختلسها اختلاسا . . هذه اللحظة التى تمر سريعة كالحلم اللذيذ . .

ولكننى لم أفعل شيئا لأنقذ حسنية من عذابها . . وكنت جبانا . .

وسمعت مرة الساكن الذى تحتى يقول لحسنية وقد وجدها على السلم وحدها :

- مش عاوز منك حاجة يابنتى . . بس أشوف فخادك . . أشوفهم بس . . وخدى الخمسة جنيه دى . . خديها . .

وهبطت السلم مذعورة . .

وعندما جاءتنى فى اليوم التالى قصت على ماحدث . .

- شايف السكران المجنون . . عايز إيه ؟ . .

وضحكت . . وجعلتها تضحك . .

وكان كساب مستمرا فى وقاحته ومغازلته لها . .

وكان يغيظه منها أنها تحتقره ولا ترد عليه إطلاقا . . وكان يتصور أنها سهلة مبذولة للجميع ، ولكنها تمتنع عليه وحده . . وزاده هذا حقدا عليها وتشجع على ملاحقتها وسبها . . عندما عرف أن عم إسماعيل يذهب كل يوم إلى قصر العينى ليغير على الجرح . .

وذات ليلة انفجر غيظه وكمن لها وهى مارة فى الطريق وألقى على وجهها ماء النار وهرب فى الظلام . .

ولكنه لم يشاهد جالسا على باب الحلاق فى اليوم التالى . . فقد خنقه عم إسماعيل وألقى بجثته بجوار الجدار . .

وتشوه جمال حسنية كما تمنت . . لنفسها . .

سمعت صـراخ أحد الغلمـان يستغيث ، ورأسه يرتفع عـلى سطح المـاء ويغوص . . . وفى هـذه اللحظة سمعت الجرس يدق فى الكشـك . . . لقد كـان القطار السريع . . .

جلست فى مقهى كرياكو . . على ترعة الابراهيمية . . فى انتظار السيارة العمومية الذاهبة إلى المنيا . . ولم يكن بالمقهى سواى وناظر المحطة عبد السيد افندى وأنيتا زوجة كرياكو . . وكنا فى وقت الظهيرة والشمس حامية . . وجلس الناظر يشرب الزبيب ويمز بالفول السودانى والفاصوليا . . ويتحدث مع زوجة صاحب الخمارة . . وسحبت أنا كرسيا وجلست خارج القهوة تحت شجرة الجميز على الترعة أستروح النسمات من «بحرى» وأنظر إلى الماء المتدفق ، وكنا فى شهر أغسطس ، وفى بداية الفيضان . . وكان الخط الحديدى على الضفة الشرقية فى مواجهتى ، وكنت أرى أسلاك البرق تهتز والسيمافورات تتحرك حركة أتوماتيكية كلما اقترب القطار . . وكانوا يغيرون الفلنكات على مدى خمسة كيلو مترات أو ستة من المحطة . . فأخذت القطارات تهدىء من سرعتها وهى تجتاز هذا المكان . . وكان المزلقان على مسافة مائة متر منى . . وكنت أرى الخفير المسكين يتحـرك ببطء كلما سمع الجرس يدق فى الكشك . . ويسحب الباب الذى يتحرك بعجلات على القضبان . . ثم يعود فيفتحه . . من الجانبين عندما يعبر القطار . . وأعجب لهذه الطريقة البدائية فى عصر الذرة . . . ولمحت الخفير وهو يسحب الباب . . للمـرة السابعـة أو الثامنـة فى أقل من ساعة . . ومر قطار الديزل . . ورأيت الناس يجرون بعد أن مر القطار فى كل اتجاه . . وسمعت من يقول :

ـ الديزل أكل واحد . . .

وتجمع الناس على الخط . . ثم جاء بعضهم إلى القهوة . . وأخذ كل واحد يعلق على الحادث بما عنده . . والرجل الذى فرمه القطار ملقى هناك على الشريط غارق فى دمه ولم يفكر إنسان فى أن يغطى جثته . . . حتى «بجرنال» . . ومنهم من نعته بالبهيم . . ومنهم من ألقى اللوم على خفير المزلقان وأمر بشنقه . . ومنهم قال هكذا أجله . . ولكل أجل كتاب . .

وجاءت السيارة وركبتها ووجدت كل الركاب يتحدثون عن الحادثة كأنهم شاهدوها بأعينهم . . ويصبون لعناتهم على الخفير الذى لم يغلق المزلقان . . . ولم يكن فيهم واحد رأى الحادث أو كان على قرب منه . . . ولكن هكذا الناس . . يندفعون مع التيار . . وكان هناك راكب واحد لاذ بالصمت . . فلم يعلق بشىء . . ولم ينطق بحرف . . وكان جالسا بجوارى وقد أمسك بمنديل محلاوى لف فيه شيئا ووضعه فى حجره . . وكان يرتدى لبدة حمراء . . وجلبابا أسمر . . وكان وجهه صامتا لايعبر عن شىء . . وأحسست برغبة فى التدخين فأخرجت العلبة . . وقدمت لهذا الرجل سيجارة . . فتناولها شاكرا . . وقلت وأنا أشعل له السيجارة :

- إن الخفير أغلق المزلقان أمامى . .

- أنا أعرف ذلك . . .

- هل ركبت من هناك . . .؟

- كنت خفير مزلقان . . مثله . . وأعرف حليم . . وهو من أحسن الخفراء فى المصلحة . . .

- إنه معذور . . وعمله شاق . . وكله مسئولية . .

- أجل . . ولكن الناس لايعرفون النظام . . ولايحبون أن يخضعوا لأى قيد حتى ولو كان القيد لإنقاذ أرواحهم . . ويستوى فى ذلك الفلاح الأمى والأفندى المتعلم . . . الفلاح يسحب وراءه الجاموسة ويتخطى القضبان والسريع يصفر على مسافة قريبة منه . . والأفندى المتعلم . . يطلب منك أن تفتح له البوابة ليمر بسيارته . . ويقول فى إلحاح : «ياأخى ما تفتح القطر لسه بدرى عليه»

وهو لايعرف أن الإكسبريس يظهر فجأة ويمر فى ثلاثة أرباع الثانية . . ثلاثة أرباع الثانية . . وأنت ترى البوابة . . وكم تستغرق من الوقت لفتحها وقفلها . . .

- ولماذا تركت العمل . .؟

- هكذا شاءت الأقدار . . .

- حادث . . وفصلت بسببه . .؟

- لم أفصل . . . أنا الذى تركت الخدمة . .

وصمت وغامت عيناه . . ورأيت الأسى على وجهه . . وقال وهو ينفث الدخان ، وينظر من نافذة السيارة . . إلى شىء بعيد . . هناك . . .

«كنت فى مزلقان الابراهيمية ، وهو مزلقان قبل محطة أسيوط مباشرة وكنا فى بداية الفيضان كما ترى الآن . . وكانت السكة الحديد فى مشرف وتحته حوشة . . تغمر بالماء فى زمن الفيضان . . وكنت فى الكشك عندما لمحت فى ساعة الضحى . . غلمانا صغارا . .

من تلاميذ المدارس . . قادمين من بعيد . . جاءوا ليستحموا فى هذا المكان . . لأن المياه «خسيسة» وكلهم لايعرفون العوم . . وخلعوا ملابسهم . . ونزلوا . . وأخذوا يستحمون ويلعبون وهم فرحون بماء الفيضان . . ومكثوا كثيرا فى الماء . . وكنت أسمع ضحكاتهم وأراهم يجرون مسرورين جذلين . . وأعجب لحيويتهم ونشاطهم وأسر لهم ، وأأنس بهم . .

وفجأة سمعت صراخا . . فتلفت . . فرأيت واحدا من الغلمان يستغيث وكان رأسه . . يرتفع على سطح الماء . . ثم يغوص . . فأدركت أنه انجرف إلى المياه الغزيرة . . وأنه هالك . . وفى اللحظة التى هممت فيها بأن أنزل إليه وأتناوله . . دق الجرس فى الكشك . . وكان القطار الذى سيمر فى تلك اللحظة هو السريع . . وقد يمر فى خطف البرق كالسهم . . فى ميعاده وقد يتأخر عشر دقائق . . ولكن إذا تركت البوابة وهى على الطريق العمومية . . فماذا يحدث لو مر القطار ودهم عربة أتوبيس بها أكثر من ثلاثين راكبا . . أو عربة ملاكى . . فقتل أسرة . . أو مزق جماعة من الفلاحين يمرون غافلين على الشريط . . ماذا يحدث لو تركت البوابة مفتوحة ونزلت لأنقذ الغلام المسكين . . ووقفت بضع ثوان أتردد . . وأفكر فى اللقمة التى آكلها من المصلحة . . والغلام أمامى يطفو . . ثم يغوص . . ويستغيث ولا مغيث سواى . . فقد تركه رفاقه جميعا وهربوا . .

وكانت رأسه تتحرك فقط . . سوداء على سطح الماء . . ثم وجدت نفسى أسحب العجلات . . وأغلق البوابة . .

وعندما فرغت من هذا بسرعة . . ونظرت إلى الماء . . كان الغلام قد غطس واحتواه الماء . . ونزلت وسحبته . . وكان قد فارق الحياة . . وكان جميل المحيا صبوح الوجه . . ولكن وجهه كان يعبر عن الغيظ الشديد . . فقد ضغط بأسنانه على لسانه . . غيظا . . منى . . ومن نذالتى .

وعندما جاء أبوه . . ووجدنى قد غطيته بالحشائش . . نظر إلى بعينين داميتين ولم ينبس . . وكنت أود فى تلك اللحظة لو يبصق على وجهى أو يركلنى بحذائه . . ونظر إلى العسكرى الذى يرافقه . . وقال :

«هو انت جايبنى علشان أشوف ممدوح . . وهو كده . . وهو كده متغطى بالحشيش . . وما بيتكلمش . . ما تقول من الأول يابنى إنه مات . . مات . . »

وانكب على ابنه يغمره بقبلاته الممزوجة بدموعه وربت على خده وقال بصوت خافت :

«ممدوح . . سامحنى يا ابنى . . كنت بتخرج معاى كل يوم جمعة تتفسح والجمعة دى سبتك وحدك . . سامحنى . . يابنى . . وسامح النـاس . . انت كنت حبيبى . . ولسه حبيبى . . . ويتسمع كلام أبوك . . فسيب لسانك . . سيبه» .

وتحرك فك الغلام . . . وعاد لسانه إلى وضعه الطبيعى . .

وحدث هذا أمامى . . وشاهدته بعينى رأسى . . وتحركت وأنا شاعر بالخزى . . وجلست فى الكشك . . وأنا أتصبب عرقا كالمحموم . .

وكنت كلما سحبت بعد ذلك البوابة لأغلق المزلقان . . أحس بيـدى تتصلب على الحديد . . وأرى الغلام هناك تحتى فى الحوشة . . ورأسه تطفـو وتغوص . . وأصبحت أسمعـه . . يستغيث بى فى الليـل والنهـار . . وأحلم بـه وأهـذى . . ومـرضت وتلفت أعصابى . . فتركت العمل فى المصلحة . . واشتغلت بالفلاحة . . وتزوجت . . ولكنى لم أنجب . . وما أحسب الله سيرزقنى . . بغلام قط .

وصمت الرجل . . وكنت أود أن أقول له . . إن الألم هو الذى يخلق الإنسان . . ويجعله فوق مستوى الآخرين . .

ولكننى وجـدت أنه قـد لا يفهم هذا الكـلام . . فلذت بالصمت مثله . وصمت الركاب جميعا . . فقد بدت مدينة المنيا من بعيد .

وذات مساء . . رأيتها خارجة بـالزورق فى عـرض البحـر ، ولـما شـاهـدتنى من بعيـد . . أشارت إلى بأن أقترب . . ولما اقتربت دعتنى إلى الركوب . . وكانت مغامرة غالية الثمن . . .

اشتغلت فى غمرة الحرب العالمية الثانية فى شركة البحار السبعة للتأمين البحرى ، وهى شركة كبيرة لها فروع فى معظم الموانى المصرية ، وكان مكتب الشركة فى بور توفيق . . وتشغل الشركة خمس أو ست حجرات فى طابق أرضى على شاطىء البحر . . وكانت غرفتنا تطل على القنال . .

وكنت فى حجرة صغيرة مع أربعة آخرين فيهم مصرى آخر وفتاتان أجنبيتان . . وكان العمل فى الشركة يسير منتظماً وسريعاً . . ولكن الإيراد قل بسبب الحرب ، والمراكب تحولت عن القناة ودارت حول رأس الرجاء الصالح . ومـع ذلك كنـا نعمل فى الصبـاح وبعد الظهر .

وكان رؤ وف «بك» مدير الشركة فى السويس رجلا ضخم الجسم مدور الوجه أصلع الرأس حاد النظرات صارماً عابس الوجه أبدا من أصل تركى ، وكان يكـره المصريـين ويحتقرهم .

وكان يقرأ فى الصحف ويسمع الراديو وهو يذيع غرق البواخـر فيثور . . ويصب نقمته علينا . وكان يجىء فى الساعة التاسعة صباحا من كل يوم ومعه كلب أبيض . . وكان منزله قريباً من الشركة فكان يقطع هذه المسافة مشياً على الأقدام . وكان الكلب يظل معه فى المكتب ساعة أو أكثر . . ثم يدخـل علينا بـه . . ويشير عـلى واحد منـا بأن يعيـده إلى البيت . .

وكان فى المكتب فراشون وسعاة . . ولكنه كان يتعمد أن يكلفنا بهذا العمل ليذلنا ، وكان يدخل علينا المكتب مرة أو مرتين فى اليوم ولم نكن نشعر به إطلاقاً وهو داخل . كان كأنه يزحف بجسمه الضخم على بطنه ولم يكن يسمع لصوت أقدامه حس .

وكان مع جهله وغبائه يسمعنا كلاماً موجعاً . ويحب أن يرى كل واحد مكباً على عمله ، وكان ينتقد كل ما نقوم به من عمل . وكنا نكرهه ونود أن تبتلعه الأرض ، كما كنا

نكره الكلب الذى يذلنا به أكثر من صاحبه ، وكان يسكن فى فيلا أنيقة من طابقين . . ومتزوجاً من صبية أجنبية لا تتجاوز الثلاثين ربيعاً ، وكان لمنزلها حديقة أنيقة تحيط بها مناظر غاية فى الروعة .

كان المدير متأنقاً فى ملبسه وله كرش ضخم يزحف به إلى الأمام . . . يجيد كل اللغات ويذهب إلى نادى الجعران كل ليلة . . وهو ناد أرستقراطى . . يذهب إليه ليرقص ويلعب القمار ويتظاهر هناك وسط الفرنجة بوجاهته وغطرسته . .

وكانت زوجته تذهب معه أحياناً ولكن غالباً ما كانت تبقى فى فيلتها الأنيقة أو تخرج بزورقها الصغير فى عرض البحر للنزهة . وكانت «أسبور» أنيقة حالمة ، وكانا يعيشان معاً شبه منفصلين فقد كان لكل منهما هوايته فى الحياة .

هو مقامر فظ الطباع يحب المجتمعات . . . وهى منفردة وادعة تحب الطبيعة ومجاليها الرائعة . . تجلس فى النهار فى حديقة منزلها تطالع أو ترسم بعض اللوحات الفنية ، وفى الغروب تخرج بزورقها فى عرض البحر .

كنت إذا رأيتها فى وسط الزورق وهى واقفة عند الدفة وقد حلت جدائل شعرها واستقبلت الشمس الغاربة بوجهها تحسبها حورية خارجة من البحر .

وكنا نمضى الأيام فى حياة رتيبة فى بور توفيق والسويس . . . والحرب دائرة على أشدها ، وهزائم الإنجليز تترى فى كل مكان ، وجنودهم فى الموانى المصرية مذعورون كالجرذان . . . يصخبون ويعربدون . . وكلما توالت هزائمهم اشتد ضجيجهم وصخبهم وهم يسكرون ويمرحون فى المدينة . .

وكانت الفتاتان اللتان تعملان معنا فى المكتب قد انطلقتا مع هؤلاء الجنود وصحبت كل واحدة فى نزهتها أختها الصغرى والكبرى . . وأحياناً أمها ! كان كل شىء يدور فى طاحونة مادية .

كان الناس يعيشون بحسهم ويلمسون أوراق البنكنوت بأيديهم وهم يحسبونها كل شىء فى الحياة .

وكنت أذهب إلى منزل مدير الشركة وأحمل إليه بعض الأوراق أو أحادثه فى بعض الشئون ، وكان دائماً يحب أن يظهرنا أمام زوجته فى مظهر العبيد . . وكنا نتحمل هذه الإهانة بغيظ مستعر . .

وكنت أراها صباح كل يوم وأنا ذاهب إلى المكتب جالسة فى حديقة منزلها فأحييها وكانت ترد تحيتى باسمة .

ومضت الأيام رتيبة مملة . وكنت أسكن فى شقة صغيرة فى بور توفيق ونذر ما أذهب إلى السويس . وكان الظلام يلف المدينة فى وشاحه الأسود فى الليل ، والهدوء المطلق المخيم عليها فى النهار ، وكنت أقضى النهار فى المكتب وبعد الغروب أتمشى فى المدينة ثم أذهب لأنام . . وكنت أمشى دائما على شط القنال حالماً مفكراً .

كان كل شيء يدل على أن هذه الحرب ستطول ، وأن هذه المجزرة البشرية ستنتهى على أبشع صورة . . وكان وجود هؤلاء الذين يسمون أنفسهم جنود الحلفاء فى هذه المدينة ، وفى غيرها من المدن المصرية ، يحملنى على الغيظ المستمر . . ومنظرهم يبعث القرف إلى نفسى . . وكنت أتمنى هزيمتهم على أبشع صورة . . إنهم يمثلون الظلم والاستعباد والفساد بكل صوره البشعة .

وكنت أتمشى ذات ليلة على شط القنال كعادتى عندما لمحت زوجة مدير الشركة واقفة بزورقها على بعد قليل منى ، وكنت أود لو أغير طريقى ولكنها رأتنى وهتفت بى فى صوت حلو . . فاقتربت . . وكانت واقفة فى وسط الزورق وقد ألقت مرساه إلى الشاطىء . وكانت ترتدى بنطلونا أزرق وقميصا قصير الأكمام . . ووجهها يلمع وعليه آثار عرق كأنها كانت تعانى جهدا مضنيا

وقالت وعيناها مصوبتان إلىّ :

- مراد أفندى . .

- نعم . .

- اللنش تعطل . .

واقتربت من الزورق صامتا دون أن ألقى نظرة عليها وحاولت إدارة الماكينة فلم أستطع فقلت لها وأنا يائس :

- خليه إلى الصباح . .

وخرَجت من الزورق ولامسَت أقدامها الأرض المعشوشبة .

وتسلقَت المنحدر واستوت فى الطريق . .

وعلى رأس المنحدر سمعتها تناديني فتقدمت نحوها . .

- تعال روح معايا . . أنا خايفة . .

- خايفة . . ؟!

- أجل . . من الظلام . . ومن الجنود السكارى أرجوك . .

ومشيت معها . . وكان الظلام رهيبا حقا . . ولم يكن هناك شىء يسمع والساعة تقترب من الثامنة مساء . . . والطريق الطويل الذى يطوق المدينة قاتم موحش ، وهى تسير بجانبى صامتة . . . وترمينى بين فينة وأخرى بنظرات جانبية طويلة . . وكنت أرى عينيها تلتمعان فى الظلام ، ووجهها يلمع بوضوح فى الليل الساكن . .

كانت طويلة القامة رشيقة الحركة . . وكان جسمها لينا مرنا وحركتها رشيقةوبدا لى وأنا سائر بجوارها أن أرى أيّنا أطول فاقتربت منها حتى كاد يلامس كتفى كتفها . . وقبل منزلها بشارعين . . توقفت وهممت بالانصراف . .

قالت :

– تعال لغاية البيت أرجوك . .

وألحت . . فرفضت . .

– انت خايف منه ؟

– طبعا . .

– هل يخيفك هذا الثور ؟ . . إنه لاشىء فى نظرى ! . .

– ولكنه فى نظرنا كل شىء ، إنها لقمة العيش وأنت لا تعرفين الفقر أو الجوع . .

ومدت يدها . . وقالت بصوت حلو :

– شكرا . .

وسلمت عليها وانصرفت وابتلعنى الظلام . .

وكنت كلما ذهبت إلى منزلها لبعض العمل استبقتنى لتتحدث معى . . وكانت تكلفنى ببعض أعمال صغيرة وتُسر بها جدا عندما أقوم بها على وجه سريع . .

ومضت الأيام . .

وذات مساء . . رأيتها خارجة بالزورق فى عرض البحر ولما شاهدتنى من بعيد . . أشارت إلىّ بأن أقترب . . ولما اقتربت منها ألقت بالزورق إلى المرساة ودعتنى إلى الركوب . .

فرفضت وألحت . . فقلت لها :

إن هذا جنون ! قد يشاهدك أحد . .

– سأسير بالزورق إلى نهاية المدينة من الشمال وأنتظرك هناك . .

ولم تسمع جوابى وسارت . . وتبعتها وأنا مدفوع بقوة لا قبل لى على ردها . . ووجدتها راسية هناك فى جوف الخليج فركبت بجوارها وسارت فى عرض البحر . . وبعد قليل أوقفت المحرك وقالت وهى تنظر إلىّ :

- دعنا نتمتع بجمال الطبيعة المحيط بنا . .

ولم يكن هناك جمال حولى سواها . . وأشعلَت سيجارة وزمتها بين شفتيها الحالمتين وكانت تعرف أننى لا أدخن.ومع ذلك قدمت لى سيجارة فأشعلْتها ، وأنا أنظر خلال الدخان الأزرق إلى أعماق عينيها وأغوار نفسها .

وسألتنى وقد ألقت بنظرها بعيدا :

- أتحب الحياة ؟ . .

- أجل . .

ونظرت فجأة إلى شىء يطفو على الماء :

- أنظر . .

ونظرت إلى فى خوف . .

لاتخافى . . إنه حيوان القرش . .

ولكنها ارتعدت وارتمت على صدرى والتصقت بى . . وبعد برهة وجدت شفتيها تحت شفتى فضغطت عليهما فى عنف وغبنا عن الوجود .

ومضى أسبوع كامل لم أرها فيه وانشغلت بالحياة وما يجرى فيها فنسيتها . .

وذات غروب كنت نازلا من سلم بيتى الصغير فشاهدتها مارة فى الشارع . . وانتظرت حتى اقتربت منها وسألتنى . .

- أهذا بيتك ؟

- نعم . .

- ما أجمله ؟

- . . . .

- أتقيم وحدك ؟

- أجل . .

ـ غدا سأخرج بالزورق . . وانتظرك هناك . .

ـ أرجوك أن تعفينى من هذا أرجوك . .

ـ ألا تزال تخاف من هذا الخنزير . .

ـ طبعا . .

ـ إنه ليس برجل على الإطلاق سأنتظرك غدا عند الخليج . . بعد الغروب . .

وترددت فى الذهاب ، ثم ذهبت أخيرا وكانت هناك . . وكانت لى بكل جسمها ونفسها . .

ولمحت وأنا خارج معها من الزورق شخصا يرقبنا عن بعد ثم يختفى فى الظلام ، وكان فى شكله ومشيته بعينه زوجها ، ولكننى كتمت مارأيت عنها . . . واضطربت ضربات قلبى . .

وودعتها وفى رأسى خواطر مروعة . .

وذهبت إلى المكتب فى الصباح وأنا أحاول أن أبدو طبيعيا ، واجتهدت أن أقرأ شيئا على ملامح الرجل يدل على أنه كان يراقبنا ليلة أمس . . ولكننى وجدته على حاله ، فأيقنت أننى أخطأت النظر واطمأن قلبى . .

وذات ليلة سمعت قرعا خفيفا على بابى . . ففتحت الباب ووجدتها هى فارتمت فى أحضانى دون كلمة . .

وأخذت تجىء بعد ذلك كلما سنحت لها الفرصة ، وكنت أحذرها من مغبة هذا ، ولكنها كانت لا تسمع كلامى . .

وسألتنى مرة :

ـ أتحبنى يامراد . . . أم تنتقم منه فى شخصى ؟ . .

ـ أقول لك الحق . . . إننى لا أعرف . .

وظهر على وجهها الغضب ، وارتدت وشاحها . . . وخرجت معها إلى الباب الخارجى . . . وفوجئنا ونحن نجتاز العتبة بزوجها فى أسفل الدرج . .

ونظر إلى باسما ثم أخرج غدارته فى لمح البصر وصوبها . . . وارتمت هى فى تلك اللحظة على صدرى ، فأصابتها الرصاصة وهوت إلى الأرض ، وأخرجت مسدسى وأطلقته سريعا وأطلق هو . . . ورأيته وهو ساقط . . .

وسقطت أنا على حافة السور مثخنا بالجراح . .

دروس خصوصية

كنا كلما فكرنا فى الانقطاع ، نجد أنفسنا مسوقين إلى البيت بقوة خفية ، ولا شك أنه درس وعرف ما نعانيه من الحرمان فأغرانا بهذه . . .

قضيت مرحلة دراستى الثانوية فى المدرسة السعيدية بالجيزة ، ومع تاريخ هذه المدينة الحافل الذى تمتد جذوره إلى عهد الفراعنة . . . فإنها مدينة كئيبة فقيرة لا تسر المقيم فيها ولا العابر بها . . ولا أذكر أننى مررت بها عرضا ، ورأيت فيها ما يبهج النفس . . حتى وجوه الناس تجد فيها هذه الكآبة المظلمة .

ومع هذا فأنا أعود وأذكر هذه المدينة بعد عشرين عاما . . كنت فى دراستى للبكالوريا . . وأود أن أنهى هذه المرحلة من التعليم . . فلم أكن أشعر بأى حب للمدرسة . . وكنت أخرج مع زملائى فى الفصول فى آخر النهار . . ونسير فى شارع المدارس . . ونجد فى مواجهتنا عند محطة الترام العمومية . . التى نأخذ منها الترام إلى بيوتنا . . لافتة صغيرة معلقة على إحدى الشرفات التى تطل على الميدان مكتوب عليها « دروس خصوصية فى اللغة الفرنسية » .

وكنت أرى هذه اللافتة كل يوم وأنا أهم بركوب الترام . . وظلت معلقة أمام عينى وتترك أثرها فى نفسى عدة شهور . . حتى وجدت نفسى فى أصيل يوم أتجه إليها . . وصعدت إلى الدور الثانى فى ذلك المنزل الصغير الذى كان يطل على الميدان . . وضغطت الجرس . . وفتحت لى الباب سيدة أجنبية . . وكلمتها بخليط من الإنجليزية والفرنسية عن بغيتى . . فقادتنى وهى تبتسم ودون أن تسمع كلامى إلى الداخل .

وأجلستنى فى حجرة صغيرة . . وقالت بالفرنسية : « انتظر لحظة » .

وأدركت لأول وهلة أنها حجرة الدروس الخصوصية . . فقد كان هناك مكتب صغير وضع بجانب الحائط فيما يلى الباب مباشرة . . وحوله كرسيان من الخيزران . . وأريكة قديمة . . وكان على المكتب بعض الكتب فى اللغة الفرنسية . . وكثير من كتب الأجرومية . . ثم بعض الروايات الانجليزية المقررة على البكالوريا . . ومحابر ومساطر . . وأقلام من الرصاص . . ومساحة وبرجل . . . ثم أبرز شىء على المكتب . .

وهو منبه كبير خيل إلى أنه كان فى يوم من الأيام ساعة حائط . . وكان يشير إلى الساعة الرابعة والربع بعد الظهر . . وكان كل شىء فى الحجرة قد وضع فى غير نظام أو ترتيب كأنه فى مخزن فى الأوبرا . . وعجبت لما رأيته . . وفى غمرة خواطرى دخل على « الأستاذ » يمسح عينية . . ولا شك أنه كان نائما . . وكان بدينا ووجهه منتفخا ومدورا كالرغيف . . يبدو فى الخمسين من عمره . . ويلبس بنطلونا رماديا وقميصا أبيض مفتوح العروة . . وحيانى وجلس إلى المكتب . .

— وقلت لـه :

— أريد دروسا فى الفرنسية .

— فقــال :

— وى . .

وفتح دفتر مذكراته وهو يفرك عينيه ودون إسمى واسم مدرستى . . ونظر إلى المنبه وهو يقول :

— أتحب أن تبدأ الدرس الأول الآن . . . والساعة كزملائك ، بثلاثين قرشا . . .

فلم أر أى وجه للرفض فقد كان السعر رخيصا . . وجلست إلى المكتب وابتدأ الدرس . .

وفى خلال ذلك دخلت علينا السيدة التى فتحت لى الباب . . وقدمت له فنجانا من القهوة السمراء . . كما يسميها الفرنسيون . . وكانت ترتدى ثوبا قصيرا . . وتمشى دون أن نسمع لخفها صوتا . . ولمحتها بعين المراهق سريعا وهى تضع القهوة على المكتب ثم نكست رأسى فى الكتاب .

وأعطانى الأستاذ بعض الأجرومية . . والمطالعة . . وفى غمرة انشغالى بهذا نظرت إلى المنبه فوجدتها الساعة الخامسة والثلث . . فنظر إلى الأستاذ مبتسما . . وقال :

— لقد انتهى الدرس الآن . . وإلى يوم الإثنين . .

فنهضت وقد عجبت لمضى الوقت بمثل هذه السرعة . . وأعطيته جنيها وانصرفت ومعى كراساتى . .

وجئت فى الميعاد لأخذ الدرس الثانى . . والثالث . . . وهكذا مرت أيام . . وكنت أجد هذه الشابة الأجنبية فى البيت دائما . . . وكانت هى التى تفتح لى الباب وتقودنى إلى حيث يوجد الأستاذ . . . وكنت أنظر إلى ساقيها العاريتين وإلى جسمها وهو ينساب

أمامى . . وأمشى وراءها فى صمت . . وكنت أجد بعض الأحيان . . تلميذين أو ثلاثة ينتظرون فى الردهة . . حتى يجىء دورهم . . فقد كانت اللافتة التى فى الشرفة ملفتة للنظر . . كما أن اللافتة التى فى الداخل ـ وهى تلك الحسناء الشابة ـ أكثر إلفاتا . . فقد كنا جميعاً تلاميذ مراهقين قادمين من الريف لنتعلم فى مدينة القاهرة . . هذه المدينة الكبيرة ولم نكن نعرف فيها أنثى واحدة أو نجرؤ على محادثة أية امرأة فى الطريق .

وكنت قد أدركت بعد الدرس الرابع أو الخامس . . أن الأستاذ ليس فرنسيا . . بل هو فى الغالب . . مالطى . . إذ كان يدرس الإنجليزية أيضا . . بجانب الفرنسية . . وكان نطقه فيه لكنة . . وأجروميته ضعيفة . . ولم يكن قد درس فى الجامعة أو حتى فى أية مدرسة ثانوية ومع ذلك فقد واصلنا أنا وغيرى من الطلبة الدرس . . وكنا كلما فكرنا فى الانقطاع نجد أنفسنا مسوقين إلى هذا البيت بقوة خفية . . . وكانت السيدة التى تفتح لنا الباب وعلى ثغرها ابتسامة هى السبب . . . وهى الطعم الذى وضعه الأستاذ فى المصيدة لاصطيادنا . . . ولم نكن نعرف أهى زوجته أو معشوقته . . ولكننا لم نكن نجد فى المنزل أحدا سواهما . . وهو ولا شك قد درس وعرف ما نعانيه من قوة الحرمان الجنسى فأغرانا بهذه الأنثى . . وجعلنا نراها فى مباذلها كلما دخلنا المنزل .

وكان هو يجلس إلى مكتبه كالصنم يدخن ولا يتحرك . . وهى التى تروح وتجىء أمامنا وتأخذ منه النقود . . وتجىء لنا الأجرومية . . وتدخل كل واحد منا إلى حصته . .

وكان الدرس عبارة عن ستين دقيقة كاملة . . ولكنا كنا نلاحظ دائما أن هذه الساعة الميقاتية تمضى سريعا .

ثم اكتشفنا أخيرا أن المالطى يغشنا . . يغافلنا ونحن نضع وجهنا فى الكتاب ويقدم المنبه . . ثلث أو ربع ساعة . . فى كل حصة . . فيسرق منا عشرين دقيقة فى كل ساعة .

وكان أول مكتشف له وهو يفعل ذلك ، زميل لنا فى المدرسة يدعى عبد الحى . . وكان أضعف طالب فى اللغة الفرنسية وأكثر مشاغب فى الفصل وكان يكره المدرسين الأجانب ويعاكسهم ويسبهم بالعربية . . فلما عرفوا بعض معانى هذه الكلمات من كثرة تكرارها منه . . أخذ يسبهم بلهجته الصعيدية التى لا يعرفها أحد .

وكان عبد الحى هذا من أعز أصدقائى . . فنحن من إقليم واحد . . وهو من أكثر المواظبين على الدروس الخصوصية . . ودرسه دائما من السادسة إلى السابعة . . ولم يكن يعنى بهندامه مثلنا أو يتأنق فى ملبسه وهو ذاهب إلى الدرس . . كى يلفت اليه نظر الحسناء ، بل كان خشنا فى ملبسه وفى حديثه معها . . حتى تصورنا أنه لا يفكر فى المرأة إطلاقا . . وكنا نحن نرجل شعرنا ونلبس أحسن ملابسنا ونحن ذاهبون إلى هناك . .

ونبتسم فى وجه هذه الفرنسية . . ونحادثها بالكلمات الفرنسية القليلة التى حفظناها عن ظهر قلب . . ونغازلها . . . ولكنها كانت تتلقى محاولاتنا بابتسامة عذبة وحركات لا تقطع الأمل . . .

وكنا نزداد كل يوم غراما بها وولها . . . حتى أصبحت شغلنا الشاغل فى هذه المرحلة من حياتنا . .

وكان عبد الحى بعد أن ضبط المدرس وهو يقدم المنبه . . قد أشاع هذه الفضيحة فى المدرسة . . حتى أصبح كل تلميذ يذهب إلى هذه الدروس الخصوصية متنبها . . ينظر إلى المنبه طول الدرس . .

وكان المالطى يثور ويصيح فى وجوهنا :

- لقد صدقتم عبد الحى . . أنا أقدم المنبه ! . . كيف . .؟ إنه كذاب وحمار أيضا . . ولن يتعلم شيئا . . حتى لو درس مائة سنة . .

وكان هذا حقا ، فإن عبد الحى قد ترك المدرسة بعد أن يئس من الكتب وانصرف للحياة . . وهو الآن يملك نصف عمارات الضاحية التى أقيم فيها . . .

وكانت محاولاتنا مع «لوسين» زوجة الأستاذ أو معشوقته . . تذهب كلها عبثا . . فقد كنا صبيانا تنقصنا التجارب وفهم المرأة وألاعيبها . . وكانت هى تتزين وتتمخطر فى مشيتها وتكشف عن مفاتنها لتلهب فينا النار . . ولتجعل الجذوة دائما مشتعلة . .

وكان البيت مع توالى الدروس فيه يوميا . . من الرابعة الى الثامنة مساء . . يبدو ساكنا وكانت معظم نوافذه المطلة على الشارع مغلقة . . فى النهار والليل . .

وكنا نجلس فى الصالة المضاءة دائما بمصباح كهربائى صغير . . حتى فى رابعة النهار . . فاذا جاء ميعاد الدرس . . دخل كل واحد منا فى دوره إلى حجرة الأستاذ . .

وكنا نرى لوسين وهى رائحة وغادية فى البيت . . ترتدى الروب المفتوح وفى فمها السيجارة . . وقد حلت شعرها وتركته ينسدل على كتفيها . . وكانت تحادثنا مبتسمة وعيناها تلمعان . . وتسألنا عن مدى تقدمنا فى الدرس . . وتقلب فى الكتب التى بين أيدينا . . ثم تنساب فى خفة إلى المطبخ لتصنع القهوة . .

وفى أيام الحر اللافحة . . تلف رأسها فى فوطة مبلولة . . . وتلبس قميصا قصيرا الى ما فوق الركبة . . وتقول لنا وعيناها ناعستان وهى تلعق الثلج :

- إننا فى جهنم . . أى حرارة . .

وكنا نود أن تظل هذه الجهنم أبدية . . لنراها فى هذا القميص القصير أبدا . .

وكان زوجها ذلك المالطى . . وقد نسيت اسمه . . كالدرفيل . . . ضخما . . بليدا . . كثير النعاس . . غبيا . . ولا أدرى كيف وقع عليها وربما يكون قد اصطادها من البحر على ظهر مركب . . .

وكان الأستاذ فى يوم السبت يفرغ من الدروس فى الساعة السابعة لأنه يتناول العشاء مع لوسين فى الخارج . . وكنا نراها فى ذلك اليوم لابسة أجمل ملابسها . . وقد تزينت كأنها إحدى غادات السينما . . . وكانت تكثر من مداعبتها فى ذلك الوقت والضحك معنا . . حتى يبلغ سرورنا أشده .

وذات مساء انتهيت من الدرس كعادتى . . واتخذت طريقى إلى الخارج . . وكان البيت ساكنا ولم يكن فى الصالة أحد من التلاميذ . . . فأدركت أنها آخر حصة . . وفى أثناء اجتيازى الممر إلى الخارج ، سمعت همسا . . من ناحية المطبخ . . فتلفت ورأيت شبحين هناك . . فاقتربت منهما وعرفت رأس عبد الحى . . وكان يطوق لوسين ويشدها إليه بذراعيه القويتين وهى تذوب بين أحضانه . . . !!

وقد عرفت من هذا الدرس المرأة والحياة . . . !

صرخة فى الليل

كانت جائعة ذليلة ، حاولت بكل الوسائل أن تعمل وأن تطعم طفلتها ، ولكنها لم توفق . . . فلم يبق أمامها شئ آخر تفعله سوى . . .

جلس «إبراهيم» فى ركن منعزل فى حانة «ديانا» يدخن . . بعد أن فرغ من العشاء ومن الشراب . . وكان يبدو عليه القلق والشرود . . اذ إنه موفد صباح الغد فى مأمورية مصلحية إلى أقصى الصعيد ، قد تستغرق منه شهورا ، ولم يكن يحب أن يبرح العاصمة أو يترك ملاهيها وحاناتها . . فهو يتبذل فيها على هواه دون أن يعرفه أو يلاحظه أحد .

أما فى الريف فإن خطواته محسوبة عليه . . لأنه معروف للجميع . . . راح المفتش . . وجاء المفتش . . وهكذا فالكل يحصى عليه حتى أنفاسه .

وهو من هذا النفر من الموظفين الذين تراهم بكثرة فى دواوين الحكومة . . يجلسون على الكراسى الجلدية ولا يقومون بأى عمل على الإطلاق ، وليست لديهم أية موهبة أو كفاية ، وميزتهم الوحيدة أنهم يرتدون بذلات أنيقة وقمصانا حريرية ويتكلمون فى أرستقراطية وترفع . . . ولهذا احتفظ «ابراهيم» فى الحانة بطابعه . . . بهندامه الأنيق المميز . . وبغطرسته الجوفاء . . .

وكانت الساعة قد اقتربت من العاشرة ، والشتاء فى صميمه ، ومع هذا فقد كان المكان مزدحما ، وفى كل دقيقة يرد زبائن جدد .

وكان جميع العمال فى الحانة فى حركة مستمرة . . فعامل «البار» يمسح الأكواب ويملؤها بالشراب ، وماسح الأحذية ينقر على صندوقه ويدور به بين الموائد .

وكان هناك رجل واحد يلبس الملابس البلدية فى هذا الوسط الإفرنجى ، ويقف فى الزاوية اليمنى على (فرن الكباب) ، وينفخ فى النار . .

وامتلأ جو الحانة بالدخان . . دخان السجائر . . ودخان النار . . وبرائحة الكحول . . .

وكان هناك رجل بائس مكتئب يعزف على الكمان . . فى هذا الجو الصاخب . .

يعزف وحده ، ويسمع وحده . . فما أحس به إنسان منذ دخل «البار» . . .

وبعد كل فاصل موسيقى ينهض ببذلته المرقعة ويدور على الجالسين ، وقد مد بيده اليمنى طبقا صغيرا . . وأمسك فى يسراه بآلته الموسيقية . . ومع مظهره البائس وشيخوخته فما عطف عليه أحد من الجالسين فى المكان .

واشتد قلق «ابراهيم» فتحرك من مكانه ثم عاد فجلس . . وفى تلك اللحظة ظهر شبح أنثى وراء الستار المسدل على الباب . . ثم انفتح الباب ودخلت امرأة تمسك بيدها طفلة صغيرة . . يمشى أمامها غلام من عمال الحانة يدلها على الطريق .

وتقدمت المرأة ببطء وهى تشعر بالخفر والخزى معا . . . تجر طفلتها جرا . . . وقد نكست رأسها وسارت بضع خطوات بين الموائد ، ثم جلست ذاهلة حيث أشار الغلام .

وكانت قد أعطت «إبراهيم» ظهرها ومالت بجنبها وغضت من طرفها .

وكان من يراها يدرك لأول وهلة أنها تدخل مكانا عاما لأول مرة فى حياتها .

ورفعت رأسها ودارت بها فى القاعة . . ثم عادت ونكستها سريعا .

وكان «إبراهيم» ينظر إليها بعينى الذئب ويقيسها طولا وعرضا . . . وينقل بصره بين أجزاء جسمها . . .

وبحركة عصبية هتف بالغلام الذى دخل مع هذه المرأة وقال له بصوت غليظ :

- من الذى معها . . . ؟

- ابنتها . . . يابيه . . .

- غور فى داهية انت وهى . . .

- لم . . يابيه . . لم . . ؟ إننى منذ ساعة أحنن فيها . . . ما كانت قابلة أبدا . . انها سيدة محترمة . . وهذه أول مرة فى حياتها . .

- لا أريدها . . غور فى داهية . . . انت وهى . .

- يا بيه . . إنها كنز . .

- إذن تذهب معى وحدها . . وتترك البنت هنا . . . هذا هو الشرط . . هذا هو الشرط . .

- أمرك . . سأقول لها ذلك . . .

وذهب الغلام إليها . . . وأخذ يهمس فى أذنها بشىء . . وطال الهمس . . وظهر على وجهها الغضب وانفعلت ثم لانت ملامحها واستكانت :

وكانت جائعة ذليلة مسكينة وقد حاولت أن تطعم طفلتها . وحاولت بكل الوسائل الشريفة أن تعمل ولكنها لم توفق إلى أى عمل . . . فلم يبق أمامها شىء آخر تفعله سوى هذا . .

وشعرت بالذلة . . وودت لو تبكى وتصرخ . . ولكنها كتمت أنفاسها وكتمت عواطفها . . . وتركت طفلتها فى الحانةوذهبت مع الرجل إلى بيته .

وبقيت الطفلة وحدها . . وكان قد بهرها المكان بأنواره البراقة . . . ولكن بعد أن بارحتها أمها شعرت بالفراغ والوحشة . . فسالت عبراتها . . ثم سمع بكاء متقطع . . ثم نشيج عال . . ولم يكن فى الحانة إنسان يسمع هذا البكاء أو يهتم به . . . فقد كان صاحب الحانة مشغولاً بعملائه ، والساقى مشغولاً بالشاربين .

وأخذ الجمهور الجالس فى الحانة يسمع بكاء الطفلة . . وظهر الامتعاض على الوجوه . . وسمع صاحب الحانة أصوات الاستنكار ، وخشى أن يفقد زبائنه فتحرك حركة سريعة وأمسك بيد الطفلة . . . ودفعها وكأنه يتلصص إلى الخارج .

وخرجت الطفلة وحدها فى قلب الليل المظلم . . . وصراخها يشتد وأنينها يقطع نياط القلوب ، وأخذت تعدو فى الشارع وتصيح :

- ماما . . . ماما . . .

ولم يكن هناك أحد يسمع أو يحس بصراخها . .

كانت السيارات تمضى فى طريقها كالسهام النارية . . وأنوار المصابيح تلمع فى الظلام . . والحوانيت تغلق أبوابها . . . وكل شىء ذاهب لينام .

ولمحت الفتاة وهى هائمة على وجهها ظل امرأة فى الناحية المقابلة من الشارع ينسحب ببطء تحت نور المصباح . . . فتصورتها أمها . . وصاحت بها ، وانطلقت نحوها وهى تعبر الشارع وتعدو كالجرو الصغير . . وفى تلك اللحظة مرت سيارة من سيارات الليل فى سرعة خاطفة ، وصدمت الفتاة وألقت بها بجانب الرصيف .

وعادت الأم إلى الحانة فلم تجد طفلتها . . فهرولت كالمجنونة إلى الشارع وأخذت تجرى وتنادى بصوت حاد مزق سكون الليل . . .

- بنتى . . . بنتى . . .

وطالعها الظلام والسكون . . .

وبصرت بشىء متكور هناك تحت المصباح . . ولم تكن تدرى أحى هو أم ميت . . . ولكنها عرفت أنها هى بنتها وفلذة كبدها . . .

وقبل أن تبلغه سقطت . . . فاقدة النطق والحركة .

وفى تلك اللحظة مر عازف الكمان البائس . . يعزف وحده كما كان فى الحانة . . . ولكنه لم يكن يعزف لحناً راقصاً كما كان هناك . . بل كان يعزف اللحن الجنائزى المشهور وعيناه تدمعان . . .

لا تبـــاع . !

واخذ يرسم لها صورة كما يراها من وراء المصراع الأيسر ، كانت الفرشاة مطواعة ، والألوان متناسقة ، والظلال رائعة . . . وعندما أكمل الصورة تنفس الصعداء ، فقد عمل أعظم شيء في حياته . . .

نهض سعيد من فراشه مبكراً وأخذ يرتب الشقة الجديدة التى انتقل إليها ليلة أمس ، كانت مكونة من غرفة واحدة فسيحة وصالة فى إحدى العمارات بمصر الجديدة . .

وكان قد عثر عليها بعد مشقة وطول بحث . . وسر بها كثيراً لأنه سيجعل منها إستديو ومسكناً له . . وأخذ ينقل كتبه وأدوات الرسم . . ووضع اللوحة فى الفراندة . . وحولها كراسى من القش ، وشيزلونج عليه حشية . . ثم علق الصور الزيتية فى الصالة . . وبعد أن انتهى من ذلك جلس يستريح فى الفراندة ويتطلع إلى ما حوله . . وكان يشعر براحة نفسية . . وباللذة التى يحس بها كل منتقل إلى بيت جديد وكانت العمارات التى فى الشارع عالية مثل عمارته . .

ويدأ السكان يفتحون النوافذ ويخرجون إلى الشرفات . . وكانوا خليطاً من المصريين والأجانب . . ورأى فى المنازل المواجهة له بعض الوجوه الجميلة فانتعش ونسى أنه لم يأخذ حاجته من النوم .

وكان قد درس فى مدرسة الفنون الجميلة وفى المدرسة الإيطالية . . وعشق الرسم منذ الطفولة . . واتخذ المذهب الواقعى . . وكان منذ تخرج يبحث عن عمل ليأكل منه . . ثم يرسم فى الفراغ . . ويبيع لوحاته . . ولكنه لم يجد أى عمل . . وساءه هذا . . وساءه أكثر أنه سيتبطل . . وسيظل عالة على والده فى القرية حتى بعد أن يتخرج . . وأصبح رجلاً . . ورأى أن يخطو خطوة عملية . . فاتفق مع ثلاثة من زملائه . . على أن يفتحوا معرضاً صغيراً يبيعون فيه لوحاتهم . . وأجروا محلا بستة جنيهات فى الشهر . . بجوار دار من دور السينما . . ولكن مضت الشهور الأولى وهم لا يحصلون حتى على إيجار الدكان . . وتراكمت عليهم الديون . . وحجز صاحب المحل على مافيه من صور وأدوات وباعها فى المزاد . .

وفى اليوم المحدد للبيع هرب الثلاثة وبكوا من التأثر كان الذى يباع فى المزاد هو أثاث «مرغريت غادة الكاميليا» . ولكن سعيدا لم ييأس كلية . . فأخذ يرسل صوره إلى حوانيت بيع اللوحات فى شوارع شريف وعدلى وقصر النيل . . وكان يبيع بعضها ويعيش من ثمنها ومما يرسله له والده فى القرية حتى يحصل على عمل ثابت . .

وكان يزيد حالته المالية سوءاً أنه لا يجد فى هـذا الجو الشـرقى . . إلا الموديـلات المحترفات . . اللواتى يتقاضين أجوراً على رسمهن . . ومنهن من تبالغ فى الأجر . . وكان يضايقه هذا ويزيده ألماً . . وكان يحلم بالحصول على موديل من عائلة . . تفهم المسألة على أنها عمل وفن وتجرد من كل حس حيوانى !

ولما عاد إلى حجرته . . فى المساء . . وجلس فى الفراندة فى الظلام - لأنه لم يكن قد أدخل النور الكهربائى بعد - رأى فى البيت الملاصق له . . إمرأة . . تتحرك فى غرفتها . . وكان المصراع الأيسر من النافذة هو المفتوح . . وكانت ترتدى ملابس سوداء وعلى رأسها طرحة قد أدارتها حول جيدها وأسدلتها على صدرها . . وبدا وجهها فى هذا السواد متألقاً كالمصباح . . وكانت كأنها عائدة من حفلة حداد أو تعزية فى ميت . . وأخذت تروح وتجىء فى الغرفة وهى بكامل ثيابها ثم أخذت تتجرد من ملابسها قطعة قطعة . . ولعلها كانت مطمئنة تماماً إلى أنه لا أحد يراها . . لأنها تمهلت وهى تفعل ذلك . .

وبقيت مدة طويلة وهى بملابسها الداخلية . . ثم جلست على حافة السرير وأخذت تخلع الجورب . . وكان سعيد يرى أناملها وهى تتحرك فى لين على ساقيهـا . . وأعجبه قوامها الممشوق وفتنة جسـدها . . واحتفـاظها بنضـارتها وشبـابها مـع أنها تجاوزت سن الثلاثين . .

وتأمل فى محاسنها . . كانت طويلة القامة ممشوقة الجسم . . سوداء الشعر . . ملفوفة السـاقين والفخـذين . . صغيرة القـدمين . . وكـان وجهها طـويلاً . . وأسنـانها بيضاء جميلة . . وعيناها سوداوين ناعستين ، فيهما كل مفاتن المرأة المصريـة وسر لهـذا الوجـه الأبيض الجميل الذى يلبس الطرحة ويرتدى السواد . . وتمنى لو تكون موديلاً له . . ونام وصورة هذه المرأة فى مخيلته . .

وكان يرسم فى الصباح والمساء ويقضى نهاره فى العمل والتنقل على عملائه التجار الذين يعرضون لوحاته . . فإذا أوى إلى فراشه فى الليل استغرق فى النعاس . .

وكان قبل أن ينتقل إلى مصر الجديدة يسكن فى الحلمية . . وهناك عرف فتاة فى المنزل الذى يسكنه وأحبها من كل قلبه . . فلما انتقلت مع عمها إلى حلوان . . لأنها كانت يتيمة وتعيش فى كنفه كره الحى من بعدها . . وبحث عن مسكن آخر . . وكانت «فتحية» تحبه . . ونسيت فى صحبته أحزانها . . موت والدها . . وغرق زوجها والحياة الذليلة التى

تحياها فى بيت عمها . . نسيت كل هـذا عندمـا التقت به . . وكـانت تعرف أنـه رسام وفنان . . يرسم النساء ، وحتى البغايا منهن وهن عرايا . . لأنه يرسم العرى . . ولكنها رغم هذا كله أحبته ولم تستطع أن تقاوم حبه وكان سعيد يحبها ويعدها للمستقبل . . وقد أتـاحت له الحيـاة فرصـة الانفراد بهـا أكثر من مـرة . . ولكنه لم يتعـد معها . . الحب العذرى . . لأنه كان يراها أصلح زوجة له . . لأنها تفهمه كفنان وتقدر عمله . .

وكانت قد أعطته عنوان سكنها فى حلوان والتليفون الذى يمكن أن يكلمها فيه . . فلما انتقل إلى مصر الجديدة عرفها بعنوانه . . وطلب أن يقابلها فى القاهرة . . وانتظرها عند حلوان فى قصر النيل . . وجاءت وعرض عليها أن يريها مسكنه الجديد . . وركبا المترو إلى هناك . .

وسرت بالبيت كثيـراً . . وبالحى الـذى فيه . . وجلست عـلى الكرسى الـطويل تستريح . . ورأت على اللوحة . . رسم امرأة عارية لم يكمل بعد . .

فسألته وهى تديم النظر إلى الصورة :

ـ من الذاكرة . . ؟

ـ لا . . إنها صورة طبيعية . .

ـ وصاحبتها تجى إلى هنا . . وتأخذ هذا الوضع .

ـ بالطبع . . وهى مع الأسف أجنبية . . وأتمنى أن تكون مصرية . .

ـ وتحترمها بعد ذلك لو رأيتها فى مجتمع . . أو قابلتها فى أى مكان ؟ . .

ـ بالطبع . . ما فى ذلك شك . .

ـ وتتزوجها . . ؟؟

ـ إذا كنت أحبها . .

ـ بعد أن تخلع ملابسها هكذا . . ؟ وتصبح عارية ؟ .

ـ إن هذا العمل يزيدها رفعة فى نظرى . .

ـ أرجوك . . أسكت . . إننا لسنا فى باريس . . .

ثم سألته :

ـ وهذه المرأة تعيش . . من هذا العمل . . ؟

ـ إلى حد ما . . وقد تعجبين إذا عرفت أنها متزوجة . . حديثا .

ـ وزوجها يأتى معها . . . ؟

ـ لا . . .

ـ إنه لا يحبها . .

ـ لماذا . . ؟

ـ لأنه يتركها للآخرين . . يونانية ؟

ـ إيطالية . . ولها ولدان . .

ـ عجبب . . . !!

وتحركت فى دلال ثم عادت ووقفت أمام الصورة . . وقالت :

ـ سألتقى بها يوما ما . . وأعرف السر الذى فى عينيها . .

ـ هل تنبهت إليه . . . ؟

ـ إنه واضح . . وما أعمق سرها . .

ـ فى عين كل امرأة مثل هذا السر . .

ـ حتى فى عينى . . . ؟

ـ حتى فى عينيك . . دعينى أرى . . .

واقترب منها . . وأمسك بكلتا يديها . . ونظر إلى أعماق عينيها . . . وجاوبت على نظراته بنظرة مثلها . . ورأى فيها الرقة . . والصفاء . . واقترب منها وشدها إليه . . فأفلتت منه فى دلال . . وهى تقول :

ـ صاحبتك شايفانا . . وبعدين تزعل منك . .

ـ حفطيها . . .

ـ ولو . . لا يمكن تبوسنى ودى هنا . .

ولم يعجب لهذا التصرف من امرأة . . !!

وكانت هناك رواية الطاحونة الحمراء معروضة فى سينما . . . بالقاهرة . . عن حياة الرسام هنرى تولوز . . فعرض عليها أن يشاهدا الفيلم معا فى حفلة الساعة ٦ فقبلت . . وشاهدا الرواية . . وجلسا فى الكراسى الخلفية . . وهى بجانبه . . وتشابكت أيديهما

وتضاغطت فى الظلام . . وهويشعر بلذة حبيبة . . ورأى فى عينيها . . بريقا أخاذا لم يشاهده من قبل أبدا . . وتحت تأثير هذا البريق وجد نفسه ينحنى عليها ويقبلها . . وشعر بحلاوة القبلة ولذتها . . وكان يود أن يستزيد من هذه الحلاوة ولكنها دفعته عنها فى رفق . . وهى تقول :

ـ خلينا نشوف الفيلم . . .

وعجب وساءل نفسه . . لماذا هذه القبلة لذيذة . . وهو قد قبلها من قبل مرارا . . فى بيته . . ولم يشعر بمثل هذه الحلاوة . .

وسألته وهما خارجان .

ـ أعجبك الفيلم . . . ؟

ـ عظيم . . ولكننى أفضل كتاب البير لامور عليه . . وقد قرأته . . أكثر من مرة . . . وكونت لنفسى صورا ذهنية لم تعرضها الشاشة . . ولم تبلغها بعد . . لقد قصرت عنها . . وهذا ما يجعلنى أطمئن على مستقبل الكتاب رغم مساوىء الحضارة . .

ومشيا إلى محطة باب اللوق وأركبها القطار . . وأخذ يزرع الشوارع وحيدا حتى ركب آخر مترو إلى مصر الجديدة . . .

كان يشعر بالسعادة ، وقرر فى تلك اللحظة أنه لا يستطيع أن يعيش إلا وفتحية معه تحت سقف واحد .

ولكن فى الجانب الآخر ، ومن المصراع الأيسر من النافذة . . كان يرى المرأة الأخرى . . تروح وتجىء أمامه . . فى النهار والليل . . . وأخذت تحتل جانبا من حياته وفكره . . ثم أخذت تشغله حتى عن نفسه وعمله . . وكان يمضى الساعات الطويلة . . ناظراً إليها . . . وكأنها تجذبه إليها بقوة المغناطيس . . وسرعة جذبه . . وجد نفسه أسيراً لها ومتيما بها ، ولم يستطع تعليل هذا الحب العنيف . . وهذا التحول المفاجىء . . إلا بكونه رأى فى وجهها الأبيض وجسدها شيئا لم يشاهده فى امرأة أخرى . .

وسأل عنها ، وعرف اسمها «إلهام» . . وأنها أرملة وزوجها توفى منذ خمسة أعوام . . ولم تشأ أن تتزوج بعده . . وقد ترك لها زوجها ثروة كبيرة ، فهى ليست فى حاجة إلى رعاية رجل . .

وكانت فتحية تتردد على سكنه ، وتجلس بجواره وهو يرسم اللوحات وينقل عن مشاهير الرسامين . . وقد اكتسبت من طول عشرتها له ، ثقافة فنية . . فكانت تعرف صور . . كوخ . . ورامبراندات . . ورافائيل . . ومعظم الأعمال الخالدة للمشاهير ،

وكان يتمنى أن يرسمها ولكنها كانت تمانع . . فعرض عليها أن يرسمها بكامل ملابسها . . فقبلت وجلست أمامه . . ثلاث جلسات طويلة . . وكانت الصورة رائعة . . فسرت بها جدا . . وكانت ترى صور النساء العرايا فى الأستوديو . . وتغار . . وتتمنى أن تكون بينهن . .

وكانت تعرف مفاتنها ، وتعرف أنها لو رسمت أمامه عارية . . سينسى صاحبات هذه الصور . . ويصبح لها وحدها . .

فلما قال لها ذات يوم : «إننى لا أستريح إلا إذا رسمتك عارية . .

قالت له :

- على شرط ألا تعرضها . .

- وهل يعقل أننى أعرضك على الناس . . !!

- وحتى هنا . . أرجوك أن تغطيها دائما . . وتخفيها عن زوارك . .

- بالطبع هذا ما سيحدث . . وسأجعل ستاراً خفيفا على الجسد ، وما من إنسان سيعرفك . . حتى ولو رآك فى معرض عام للصور . . وأنت تشغلين نفسك بالأوهام ، والحياة كبيرة وكبيرة جداً ، وفيها ملايين من النساء سواك . . فمن الذى سيشغل نفسه بصورتك ويبحث ويتساءل عنها . . اطمئنى تماما . .

واقتنعت . . .

ودخلت وراء الستر لتخلع ملابسها . . . ورسم وتأمل ، ثم استغرق فى عمله . . حتى شعر بالتعب . . . وبثقل الفرشاة فى يده . . وكانت هى مسترخية صامتة . . ولا يدرى أحلامها . .

وألقى الفرشاة جانبا ، وتمطى ، وأغلق عينيه ووضع رأسه على حافة الحامل . . ونعس . . خمس دقائق أو عشر . . وعندما صحا وذهب إليها . . وجدها مغلقة عينيها ونعسانة . . فجثا على ركبتيه واقترب منها . . ومر بشفتيه فى خفة على شفتيها . . ففتحت عينيها ببطء . . ووجدته يقبلها . .
وسألته فى دلال :

- أنت بتعمل كده . . مع كل اللى بترسمهم . . ؟

- طبعا . . .

- أنت شيطان . . .

وشدته إليها ، وضغطت عليه بذراعيها العاريتين . . وأخذ يقبل كل جزء من جسمها فى جنون . . ويمزج رضابه برضابها ، وعرقه بعرقها . . وعندما ضمها إليه ، ورأت فى عينيه الرغبة التى كانت تعذبه ، أسلمته نفسها . . ولم يعرف مغبة عمله . . لأنه راح فى دوامة اللذة . . . وعندما جلس بعد ذلك بأيام أمام اللوحة . . لم يستطع أن يكمل الصورة الرائعة التى بدأها لها ، وظلت الصورة على الحامل ناقصة . . . !!

وكانت إلهام هانم . . فى الجانب الآخر ، ومن المصراع الأيسر . .
قد أخذت تشغله عن كل شىء ، وتحتل كل تفكيره ، حتى تمكنت منه كلية . . وأصبح يرى صورتها تلاحقه فى كل مكان يذهب إليه . . وكان يراها فى بيته كأنها تطل عليه من البراويز التى فى الأستوديو . .

ورآها مرة . . تطل عليه من الحامل فألقى بالفرشاة وأخذ يبكى . . وذات يوم كان يعانق فتحية فخيل إليه أنه يرى إلهام . . تنظر إليه من فوق رأسه وعلى شفتيها ابتسامة !!

وذات ليلة رآها من الشرفة تصلى فى غرفتها ، وهى مرتدية ثوبا أسود ، وقد غطت رأسها ويديها بطرحة . . وأخذ يحدق فيها ويتأمل مفاتن جسمها التى أبرزها الثوب الضيق ، وأطال التحديق والنظر . . ثم ارتمى على الفراش . . وأخذ يبكى . . لأنه لم يرع حرمة الصلاة . . ولم يذكر أنها واقفة أمام . . . الله . . .

وخجل من نفسه ، لأنه طاوع الشيطان فجعل يشتهيها وينظر إلى جسمها . . حتى وهى تصلى . .

وبكى كثيراً واستغفر ربه . . .

وعندما استيقظ فى الصباح . . وضع الحامل . . بجوار النافذة وأخذ يرسم لها صورة كما يراها من وراء المصراع الأيسر . . . وكان فى حمى الحب وناره . . وكان يرسمها وهى جالسة فى غرفتها . . . فإذا خرجت منها لبعض شئونها انتظرها حتى تعود وأخذ يرسم . . . وظل على ذلك أسبوعا . . بطوله . . وقد حبس نفسه . . وتفرغ لعمله حتى أصبح فانيا فيه باذلا له كل جهده . . وخيل إليه أنه يغمس الفرشاة فى زوايا قلبه ويرسم . . وكانت الفرشاة مطواعة ، والألوان متناسقة . . والظلال رائعة . . وعندما أكمل الصورة تنفس الصعداء . . فقد عمل أعظم شىء فى حياته . . ولكن التعب والجوع كانا قد نالا منه فلم يستطع الخروج وزحف إلى الفراش وتمدد عليه .

وكان هناك معرض للفنانين فى الجزيرة فأشار عليه أصحابه بعرض الصورة . . فتردد أولا . . ثم حملها بنفسه إلى المعرض . . ونالت الجائزة الأولى . . وأصبحت محط أنظار الزوار . . وتحدث عنها الفنانون فى كل مكان . .

وتقدم أحد عشاق الصور ليشتريها . . ولكن سعيدا رفض أن يبيعها وعرض زائر آخر مبلغا مغريا لم يحلم به . . عرض ٥٠٠ جنيه . . ولكنه رفض أيضا . . وقال له أصحابه «إنك مجنون فى حاجة إلى قرش واحد من هذه الجنيهات . . وتستطيع بهذا المبلغ أن تعيش سنة فى بحبوحة ، وأن تنشل نفسك من البؤس الذى أنت فيه . .»

ولكنه أصر على الرفض ، وكتب على الصورة :

«لا تباع . . .»

وبعد أن انتهت أيام المعرض نقلها إلى بيته . . وهو يطير من السعادة . . فقد كانت الصورة بالنسبة له هى كل شىء فى الحياة . .

وعاش لإلهام . . ومرت الأيام وهو لا يفكر إلا فيها ولا يعيش إلا لأجلها . . وذات ليلة . . لمحها . . فى غرفتها . . وكانت ترتدى قميصا أبيض لأول مرة . . ومعها رجل . . ورأى الرجل يقبلها . . ويضمها إليه بعنف وهى تحاول الإفلات منه ضاحكة فى دلال الغوانى . . ولمحت سعيدا وهو يرقبها . . فظهرت على وجهها سحنة لبوة . . !!

وقالت للرجل الذى معها . . بصوت عال :

ـ تصور المجنون الممسوخ ده . . دائما يلاحقنى بنظراته . . حرم على اطلع البلكونة . . تصور إنه بينام فى الفراندة . .»

وسحبت المصراع الأيسر ، وأغلقته فى وجهه بعنف . . وسمع سعيد صوت إلهام لأول مرة . . كان خشنا كريها ، وسمع ضحكتها السوقية . . فانهارت كل أحلامه . . ولم يشعر بنفسه وهو يمسك سكينا حادة ينهال على صورتها ضرباً وتمزيقاً . .

رســالة من الميـــدان

وجلست فى غـرفة الصـالون وحيـدا ، وسمعت
صـوت الـراديـو يـردد بعض الأغـان الشـائعـة . . .
ياالهى . . . ماذا أفعل ؟ . . إنهم يجهلون كل شىء ! . .

جلست فى القطار السريع العائد من فلسطين مرسلا البصر عبر النافذة إلى الصحراء والتلال والكثبان الرملية التى لا يحدها النظر . . وكنت قد خـرجت لتوى من المستشفى العسكرى بعد إصابة بالغة فى جبهة القتال . . ومنحت إجازة طويلة أسترد خلالها عافيتى .

جلست منفردا منزويا فى ركن من العربة ، بعيدا عمن حولى من الركاب دائرا حول نفسى كالقوقعة . . وكنت أحمل رسالة عـزيزة وضعتهـا فى جيب سترتى . رسـالة من صديقى الضابط الشهيد محيى الدين . . الذى كان يحارب معى فى نفسى الجبهة . . وكان قد كتبها لوالدته قبل أن يخوض المعركة . . يستودعها ابنه الصغير وزوجته التى لم تستمتع بعد بالحياة . . كان يتوقع الموت . . فقد كنا نحارب عدوا جلب أحدث الأسلحة وأشدها فتكا بذخيرة فاسدة . . ومع ذلك كنا نقاتل قتال الأبطال .

وكانت صورة المعارك الدامية قد طافت بخاطرى وأنا أنـظر عبر السهـول الفسيحة الممتدة إلى ما لا نهاية . . والقطار ينهب الأرض نهباً وكنا فى يوليو والجو خانق . . والركاب المدنيون الجالسون معى فى نفس الديوان . . يلعنون مصلحة السكك الحديدية لأنها رفعت المراوح الكهربائية التى فى القـطار . . ويسبون كـل شىء . . وكنت أنا أسخـر من هذه الرفاهية . . فلم أكن أحس بشىء ذى بال . . فقد تعودنا الخشونة بكل ضروبها . . فلم يكن يرهقنى أن لا أجد مروحة فى عربة . . وكنت أسخر من هؤلاء الركاب . . وأغتاظ من تفاهة تفكيرهم . . وزادنى غيظاً أن بعضهم لم يكن يحس بشىء مما نحن فيه من هول . لم يكن يدرى أن هناك حرباً فى فلسطين دائرة على أشدها .

وعندما خرجت من نطاق المحطة وهبطت إلى المدينة . . مدينة القـاهرة فى الليـل ورأيت الأنوار والأضواء . . والملاهى والمواخير والمراقص الدائرة ، ازداد حنقى فقد كنا نقاتل فى جبهتين منفصلتين بكليتنا عن الوطن الذى ندافع عنه . .

ونمت فى بيتى إلى الصباح . . وكنت أحمل فى حقيبتى ساعة محيى الدين الذهبية ومحفظته . . وحجابا صنعته له أمه قبل سفره إلى الجبهة . . وقلما من الأبنوس ومفكرته الصغيرة . . . وهى كل الأشياء العزيزة التى تخصه والتى أفرغتها أنا من جيوبه قبل أن يحمله الجنود على نقالة إلى مستشفى الميدان . . فأخرجت هذه الأشياء ووضعتها فى حقيبة صغيرة واتجهت إلى بيت صاحبى فى ضاحية القبة .

وصعدت سلالم المنزل الصغير الأنيق وقلبى يعصره الألم . .

وجلست فى غرفة الصالون وحيدا . . بعد أن فتحت لى الخادم الباب . . وسمعت وأنا جالس صوت الراديو يردد بعض الأغانى الشائعة . . ما هذا ؟ أيجهلون كل شىء . . ؟ ودخلت على السيدة والدة محيى الدين بردائها الأسمر السابغ ، وكانت تعرفنى ، فلما رأتنى ظهر على وجهها البشر وقالت :

- انت يابنى . . وازى محيى ؟ . .

ولم أقل شيئا . . واستمرت هى ترحب بى مسرورة . .

أدركت بعد دقيقة واحدة من مجلسى معها أنها تجهل أن ولدها مات . . وكانت متلهفة على معرفة أخباره . . وأسقط فى يدى . . كيف أحدثها بخبره . ؟ ولو حدثتها وهى فى غمرة نشوتها لقتلتها من هول الصدمة ، فكتمت الخبر . . وأخذت أروى لها مختلف الأحاديث عنه . . وسألتنى :

- ومتى سيأتى ؟

قلت :

- بعد شهرين . .

وذاب قلبى حسرات . . وتذكرت كل ما كنت أحمله فى جيوبى من هدايا لأسرتى . . وأخرجتها وقدمتها لوالدة محيى الدين على أنها مرسلة من ابنها . . . لها ولزوجته . .

وجرت بالهدايا إلى الزوجة فى الداخل وهى تصيح بصوت طروب :

- شوفى يا اعتدال . . إيه اللى باعتولك جوزك ؟ . .

وسمعت صوتا رقيقا ناعما يقول من فرجة الباب :

- مرسى . . مرسى خالص . .

وأخذت أنظر إلى هؤلاء الناس المتلهفين على أخباره ، المتوقعين قدومه فى كل لحظة ، الذين يتصورون كل شىء إلا أنه مات وراقد هناك تحت الثرى . .

ومرت فى خيالى صور . . وذكريات . .

وعندما ودعت الوالدة . . وحملت ابن محيى الدين وقبلته وهبطت سلم البيت . . وخرجت إلى الشارع . . كن واقفات فى الشرفة لوداعى . .

ولم تبرح صورة محيى الدين وصورة أسرته ذهنى بعد ذلك أبدا . . كانت تشغل تفكيرى كله . . وقررت أن أفعل شيئا سريعا حاسما لأريح أعصابى . . قررت أن أعود إلى جبهة القتال لأنتقم له . .

وعدت إلى فلسطين . . واشتركت فى المعركة الكبرى . . وقتلت كثيرا من اليهود . . وشعرت بنشوة النصر ولذة الانتقام . . وفى حمى المعركة أصبت بشظية فغبت عن الوجود وحملت وأنا فى الغيبوبة إلى المستشفى .

وعندما فتحت عينى وعدت إلى رشدى ، وجدت نفسى فى مستشفى الحلمية العسكرى . . وبجوارى تقف سيدة شابة فى لباس الممرضات ! وكان وجهها الحزين يتألق كالبدر ، ونظرت إليها طويلا وعرفتها . . كانت زوجة محيى الدين . .

اننى أعيش الآن فى منزل محيى الدين . . مع والدته الكريمة ، وابنه الصغير ، وزوجته التى أصبحت زوجتى ، وعزيزة على منذ تلك اللحظة الخالدة فى تاريخ الإنسان ، وأشعر أنهم لم يفقدوا شيئا كما أشعر أننى أديت الرسالة التى حملتها معى من الميدان .

وسرت فى جسدى النـار . . . ولكننى كنت أقاوم الـرغبة بـأعصاب قـوية ، وإرادة من فـولاذ . . . كـان الـطريق خاليـا ، والصحراء مقفـرة ، وليس سوانـا فى المكان . . .

كل الأشخاص فى هذه القصة ، وحتى الحوادث من خيال المؤلف البحت . حدث ذات ليلة من ليالى الربيع . . وكنت أركب العربـة الخلفية فى المتـرو الذاهب إلى مصـر الجديدة . . وأجلس على مقعد بالدرجة الأولى . . وكان فى هذا القسم خمسة أو ستة من الركاب متناثرين كما اتفق على المقاعد

وكانت هناك سيدة تجلس أمامى وبجانبها طفلة نـائمة . . . وبعـد محطة روكسى أخذت السيدة توقظ الطفلة ، ولكنها لم توفق . . فقد كانت الصغيرة تفتح عينيها ثم تغلقهما فى نفس اللحظة . . وابتسمت الأم وظهر على وجهها الحيرة فقد كانت الطفلة فى السادسة والسيدة بجانبها أشياء اشترتها من السوق وليس حمل هذا كله بالشىء الهين .

ومع ذلك فعندما استدار المترو وأصرت عجلاته على القضبان بعد فندق هليوبوليس بالاس . . وضعت الأم طفلتها على صدرها وتهيأت للنزول . . ولكنها لم تستطع الوقوف لأنها كانت تمسك فى الوقت نفسه بالأشياء التى تسوقتها من الحوانيت .

وابتسمت واحمر خداها وبدت منها آهة خفيفة تنبىء عن يأسها من حالها . . وكنت الوحيد الذى يرقب هذا فى العربة ولم أكن أدرى أأشفقت على السيدة الجميلة أم على الطفلة النائمة . . وأنا أقول للسيدة بصوت خافت :

- اتفضلى انزلى . . وأنا أناولها لك . .

فنـظرت إلى نظرة سـريعة وخيـل إلى أنها ترانى لأول مـرة . . وفتحت شفتيها ثم أطبقتها . . وانسدلت أهدابها مع هذه الحركة ، ولم أسمع بأذنى كلمة «مرسى» . . . فقد قيلت بصوت ناعم ممزوج بالخجل . .

وحملت عنها الطفلة ، وأمسكت هى بالأشياء التى معها . . ونزلت إلى الرصيف ،

لتتناول منى الفتاة ، وأنا واقف على سلم العربة . . ونظرت إلى بعينيها ومدت ذراعا واحدة . . ولكننى وجدت أن من القسوة أن أحملها فوق طاقتها فنزلت من العربة وتحرك المترو وسار فى طريقه :

- هات عنك بأه . . مرسى خالص . .
- ازاى حتقدرى تشيليها . . هو البيت بعيد ؟
- لأ . . خطوتين . .
- إذن حشيلها لغاية الباب .

فلم تقل شيئا ، وكان معى كراسة وكتاب فأخذتها منى لأحمل الفتاة دون مشقة . . وأسرعت فى الشارع القليل الضوء أمامى ، وكانت تتلفت . . وأدركت أنها تبحث عن خادم أو بواب ليحمل الطفلة ، ولكنها لم تجد أى إنسان ، فقد كان الشارع مقفرا . . وعلى باب البيت وضعت ما تحمله من أشياء وتناولت منى الطفلة . .

وغمغمت بكلام لم أتبينه تماما . . فقد كانت حواسى كلها مركزة على البريق الذى يشع من عينيها . . وعدت فى الشارع الطويل المظلم وحدى ونسيم الربيع يداعب أوراق الأشجار .

وبعد أن دخلت بيتى تذكرت أننى نسيت الكراسة والكتاب معها ولم أعر هذه المسألة إلتفاتا . . وكانت زوجتى طريحة الفراش منذ يومين . . وحرارتها مرتفعة والدكتور يشتبه فى حالة تيفود . . فحرصت على أن أوفر لها الراحة التامة ، وأن أعزلها عن الأطفال ، وابتدأنا بعد أن تأكدنا من التيفود نستعمل الكورمايسين ، ووجدت نفسى أتفرغ لها بكليتى . . فقد كان أول مرض لها منذ أن تزوجنا ، ولم يكن يضايقنى شىء سوى أن خبر مرضها انتشر فى الأسرة . . فجاءت أمها وخالتها الكبرى والصغرى وأختها وبنت خالتها ، وأصبح البيت كخلية النحل . . وبطل سحر الكورمايسين أمام هذه الفوضى . . فقد كانت كل سيدة تبدى رأيها فى المرض ، وتلعن الأطباء ، وتصف الدواء الذى استعملته فى مثل هذه الحالة . . وكانوا كلما وجدوها تشم أنفاسها يعطونها المرق . . والدجاج . . واللحوم فى غيابى . . فكانت تنتكس وبدلا من أن تشفى فى أسبوع ، استمرت مريضة خمسة أسابيع . . وكنت فى حالة تعاسة تامة ، إذ إن أعصابى كانت تتحطم فى النهار من الزوار والبحث عن الدواء ، وفى الليل من السهر بجانب فراش المريضة ومراقبة الأطفال ، وكنت أفكر فى هؤلاء وفى مصيرهم المحزن . . إذا ماتت الأم . . وكانت حالتهم تروعنى . . فإن ثلاثة أطفال أكبرهم فى الخامسة كان مشكلة كبرى بالنسبة لى . .

وفى دوامة من هذا التفكير المعذب ، كنت أعيش فى النهار والليل . . وفى الساعة العاشرة بالضبط . . وأنا أذكر هذه اللحظة كأنها حدثت بالأمس . . دق جرس

التليفون . . وكنت أتصور أن أحد الأقرباء يسأل عن صحة زوجتى . . فنهضت متثاقلا ، ورفعت السماعة فسمعت صوتا رقيقا :

- حضرتك الأستاذ جعفر . . ؟
- أيوه يا افندم . .
- طيب . . أنت نسيت عندنا حاجة . .
- أنا حاجة أيه ؟
- كتاب ونوتة محاضرات . .
- حضرتك مين . . . ؟
- أنا الست اللى قابلتها فى المترو من كام يوم . . وشلت منى الطفلة
- وعرفتى تليفونى ازاى . .
- كنت بقلب فى الكتاب النهاردة بالصدفة ، فلقيت عليه إسم فى أول صفحة قلت لازم دا إسمك . . وطلبتك من الدليل . .
- طيب يا ستى مرسى . .
- أبعتلك الكتاب ازاى . . ؟
- مش مهم أبدا . . أنا قريته والنوتة مالهاش قيمة . . ماتشغليش نفسك بالمسألة دى . .
- لكن لأزم أبعتهملك . . عنوان حضرتك إيه . . ؟
- ياستى ما تشغليش نفسك بالمسألة دى خالص . . أرجوك . .
- يعنى مش عاوز تدينى العنوان . . ؟
- لأ . . لأن المسألة مش عاوزه تعب . . أورفوار . .

ووضعت السماعة . . .

والواقع أنى شعرت بعد هذه المحادثة بشعور المحموم . . عندما تضع على رأسه كيس الثلج لتلتقط حرارته . . فقد شعرت ببعض الارتياح النفسانى . . وأسفت لأننى خاطبتها بجفاء . . فإن سيدة كاملة التهذيب تريد أن ترد الأمانة إلى أهلها . . كان يجب أن أكون معها أكثر رقة . . ولكن لماذا حدثتنى هى ولم تدع ذلك لزوجها ؟ . . وهل قطعت بأنها متزوجة . . وزوجها حى . . وإذا كان موجودا فهل من اللازم أن تحدث المرأة زوجها عن كل صغيرة وكبيرة ؟ . . دارت فى رأسى هذه الخواطر وأنا جالس وحدى فى ردهة البيت . . ولم أدر لماذا أعرت هذه المحادثة العارضة أكثر مما تستحق . .

وفى الليلة التالية سمعت صوتها فى نفس الميعاد . . ولم أدر لماذا اختارت هذه الساعة بالذات . . ومن العجيب أننى كنت معها أكثر جفاء من الليلة السابقة . . ولما وضعت السماعة لمت نفسى مرة أخرى ، وكنت أود أن تعاود دق الجرس . . لأعتذر لها . . ومع

دقات الساعة فى الليلة التالية سمعت صوتها . . وعاملتها فى هذه المرة بلطف . . واستمرت محادثتنا ثلث ساعة . . ولم أعطها العنوان . . ولم تبدر منى أو منها كلمة غزل واحدة . . ومع هذا فإننى كنت أشعر براحة تامة لهذه المحادثة وبأنها تزيح عن كاهلى متاعب النهار كله . . فكنت أنسى معها نفسى . . ومتاعبى كزوج وأب ورب أسرة . . ولعلها كانت تفعل مثلى وتنسى نفسها كأم فى هذه اللحظة . . وتعيش فى حلم ربع ساعة من يومها .

وفى ليلة من الليالى ، بعد أن وضعت السماعة ودخلت غرفة زوجتى لأزيد من الأغطية وجدتها متيقظة . . وابتدرتنى بقولها :

- كنت بتكلم مين . . ؟

ولم أكن مهيأ نفسى لهذا السؤال ، إذ لم أكن أتصور أنها ساهرة ، فاضطربت ، وأخيرا قلت :

- كانوا بيسألوا عنك . . بيت خالك فى شبين . .
- مسمعتش صوت الترنك ، دا جرس عادى . .
- مختيش بالك كويس . . دا ترنك . .

- انت . . كنت بتكلم واحدة ست . . وكل ليلة . . بتكلمها . . ليه الكذب . . استنى لما أموت . . ابق اعمل اللى أنت عاوزه . .

وابيض وجهى من الخجل وأنكرت . . ودافعت عن نفسى بكل قوة . . ولكنها أخذت تبكى وتسيل عبراتها على خديها ، وشعرت بجرمى . . وكنت معتادا أن أتمدد بجوارها . . لأقيس حرارتها وأعطيها الدواء كل أربع ساعات . . ولكن فى هذه الليلة رفضت أن أقترب منها . .

ففرشت اللحاف ونمت على الأرض . . .

وبعدهذه الليلة . . كنت أسمع التليفون يدق فى الساعة العاشرة تماما . . فلا أتحرك . . ولا أرد . . وكان جرسه يستمر دقيقة أو دقيقتين ثم يصمت . .

ومرت الأيام وشفيت زوجتى ، ولفرحتى بشفائها نسيت الحادث . وحدث فى أحد الأيام ، وكنت فى عيادة الدكتور عزمى أعالج أسنانى أن لمحت سيدة فى غرفة السيدات تحدق فى وجهى بقوة . . ثم مرت على فمها ابتسامة خفيفة . .

ونظرت إليها وتذكرتها . . لقد كانت سيدة المترو . . ولم تكن معها الطفلة هذه المرة ، بل كانت مع سيدة كبيرة لعلها أمها . . ولتشعرنى بأنها عرفتنى أخذت تتحدث بصوت عال .

وجاء دورها فى الدخول على الدكتور فدخلت مع مرافقتها . . ولم تمكث طويلا . . وعندما مرت على وهى خارجة كانت نظرتها حالمة . . وكأنها ردت بنت عشرين ربيعا . . عذراء خفرة . . كان فستانها بديعا ومنسجما . . ووجهها أكثر جمالا مما رأيته . . ولم يكن فى أسنانها علة مما جعلنى أتيقن أنها جاءت مرافقة للسيدة الأخرى . . وكانت تتردد على العيادة مع هذه السيدة فى أيام السبت والإثنين والأربعاء . . ولم أبادلها كلمة واحدة . . ولكننى كنت أشعر بانتفاضة كلما سمعت صوتها . .

وخيل إلى أنها تتحدث إلى وحدى . . وأننى لو لم أكن موجودا لما جاءت . . ولم أكن أجلس مع الرجال فى العيادة بل كنت أجلس فى الصالة . . على كرسى صغير لا أغيره . . وكنت أراها فى مواجهتى وأنا جالس أقلب فى أى مجلة أجدها . . وكانت نظراتنا تلتقى عرضا أكثر من مرة فى هذه الجلسة الصامتة . . ولم أكن أستطيع أن أحلل هذه العاطفة أو أستطيع تفسيرها . . أنا الرجل المتزوج . . الذى يحب زوجته ويحب أطفاله ويسعى لإسعادهم . . إذ لم يكن بينى وبين هذه المرأة ما يسمى بالحب . . لكننى شعرت أنها عندما جاءتنى هزتنى . . . وكنت أشبه نفسى بساعة الحائط المعلقة فى بهو كبير . . ومضى عليها أكثر من عشر سنوات وهى واقفة . . ثم جاء من حرك بندولها . . فمشت . . . وأصبحت تدق بانتظام . . وهذا ما حدث لى على وجه الدقة فإننى أصبحت أتحرك وأعيش وأعمل بأمل وغاية مرجوة . .

وكنت أخرج مع زوجتى بعد أن شفيت . . ونتريض بسيارتى الصغيرة لأجعلها تسترد كامل صحتها . . واشتاقت أن تمضى أسبوعا فى الإسكندرية عند أهلها ، فأخذنا الأولاد وذهبنا إلى هناك . . وذات مساء خرجت معها أتنزه بعد أن تركنا الأولاد فى رعاية جدتهم . . ولا أدرى لماذا طرأت عليها فكرة أن نواصل السير إلى استراحة شل فى الطريق الصحراوى . . وأن نمضى الليلة هناك . . فأدركت أنها تود أن تستعيد ذكرياتها ، وأن تسترد مكانتها عندى ، فقد قضينا فى هذه الاستراحة الليلة الأولى من زواجنا . . ولم أرفض طلبها . . واتصلت بوالدتها وقلت لها إننا سنمضى الليلة فى الخارج . . وزودت العربة بالبنزين . . وانطلقنا فى الطريق بسرعة هادئة . . .

كنا فى الربيع ، وبقيت أيام ثلاثة على شم النسيم . . والطريق الصحراوى خال أمامنا ، وليس به إلا بعض العربات القليلة ومع ذلك لم أسرع . . وزحف علينا الظلام وأنا أقترب من الاستراحة .

وفى أثناء سيرنا رأيت من بعيد عربة سوداء واقفة فى الطريق ، وبجانبها رجل وامرأة . . ولما اقتربنا تقدمت المرأة ولوحت لنا بيدها ، ولم أر أن أتوقف ، ولكن زوجتى

الحت بالوقوف لأنها شعرت بعطف على السيدة فى هذا الليل . . وبين الاستجابة والرفض توقفت بعد أن جاوزت العربة الأخرى بثلاثين مترا . .

ونزلت وحدى ورجعت إلى حيث تقف السيدة والرجل . . وعندما اقتربت . . رأيت وجها أعرفه جيدا . . كان وجه السيدة التى التقيت بها فى المترو . . ورافقتها حاملا طفلتها إلى بيتها . . وعندما وقع بصرها على عرفتنى . . ولكنها لم تظهر ذلك أمام الرجل . .

وقال لى الرجل إن العربة تعطلت بهما فى الطريق ولا يدرى السبب مع أن الموتور كان فى الورشة منذ يومين فقط . . وتناولت منه البطارية ورفعت غطاء المحرك وقلت له بعد أن عالجت إدارتها :

- ان أى محاولة منا فى هذا الظلام لمعرفة السبب عبث . . وأنا ذاهب مع زوجتى إلى استراحة شل فقط . . فتفضلا معنا . . وفى الصباح نرى ماذا حل بالعربة . . .

وأزحنا عربتهما عن الطريق وركبنا إلى الاستراحة .

وجلسنا فى شرفة الاستراحة على مائدتين متقاربتين . . . كان زوجها متوسط العمر ممتلىء الجسم نوعا ، يبدو رجل أعمال . . . وكان يكرر لى الشكر فى كل لحظة . . أما عفاف زوجته . . فقد كانت ترتدى فستانا أصفر قليلا وعليه وشاح أسود . . زادها جمالا وفتنة .

وكانت تنظر إلى فى عذوبة صامتة . . وكانت الشرفة خالية تقريبا إذ لم يكن وقت مرور عربات الشركة . . ودعانى الرجل إلى البار لأشرب منه كأسا . . ولم أكن أحب الشراب فى البار . . لأنه طبيعة المدمن ، ولكننى تناولت معه كأسا واحدة من الويسكى . . وشرب هو كثيرا وتحدث . . وكانت زوجته فى خلال ذلك جالسة مع زوجتى . . هناك فى ركن من الشرفة . . ورأيت أنهما استغرقتا فى الحديث . . وتآلفتا . . وكان نظر عفاف يلف ويدور ، ثم يستقر على ، فأغلق عينى وأرى وجهها فى قاع الكأس . .

صعدت مع زوجتى قبلهما لننام ، ولم يكن بالفندق نزلاء سوانا ، وكانت زوجتى متعبة فنامت وأغلقت النور ، وجلست فى الشرفة أنظر إلى الصحراء الفسيحة أمامى وقد بدت فى الظلام كبحر أسود عظيم الظلمات ، ثم رأيت عفاف تخرج فى الناحية الأخرى إلى الشرفة . . . وكانت ترتدى روبا حريريا أزرق على قميص ملتصق بجسمها ويشف عما تحته . . ورأيت صدرها فى لون المرمر ونعومته ، وقد انشق عنه القميص . . وقد لفت شعرها فى عصابة بيضاء . . ورأتنى دون شك وأنا جالس هناك أنظر إلى الصحراء . . ولم أسمع حس زوجها فتصورت أنه لايزال فى البار . . وظللت ساهرا حتى أطفئت أنوار الدور الأرضى من الاستراحة وأغلق البوفيه . . وخيم الظلام والسكون . . وبقى فقط نور

الكشاف يرسل ضوءه الباهر عبر الصحراء .

وكانت الساعة قد جاوزت الواحدة صباحاً عندما سمعت نقراً خفيفاً على باب الغرفة ، فتحركت وأضأت المصباح الجانبى ، وفتحت الباب ، فوجدت عفاف على العتبة . . وكانت حافية وبالروب المفتوح . . وعندما وقع نظرى على صدرها ضمت ثوبها وقالت :

ـ سلوى هانم صاحية ؟ . .

ـ نامت والله من شوية . . عاوزة حضرتك حاجة ؟ . .

وهمست :

ـ سيجارة . . .

ـ لمنصور بيه ؟ !

ـ ليه . . .

وجريت وأعطيتها العلبة . .

ـ واحدة كفاية . . بس علشان أنام . .

ـ معاكى كبريت . . .

ـ ولعها انت . . .

واحمر وجهى وأشعلت السيجارة ، فتناولتها وزمتها بين شفتيها ، ورأيت بريق عينيها يختلط مع الدخان الأزرق وأنفاسها العالية . . ولم أسمع حس أقدامها وهى تبتعد . . وأغلقت الباب بالمفتاح . .

واستيقظت مبكراً قبل الشروق . . ونزلت إلى الحديقة الصغيرة التى خلف الاستراحة وجلست هناك وحدى . . تحت الأشجار . . أفتح صدرى للهواء وأنعم بالسكون والجمال . . وكنت أعرف أن زوجتى لا تصحو قبل الثامنة . . إذ إن المرض أثر على أعصابها . . ومع خيوط الشمس الأولى النافذة بين أوراق الشجر . . رأيت عفاف مقبلة من بعيد

وقالت مغمغمة وهى تقترب :

ـ قاعد هنا ليه . . لوحدك ؟

ـ سلوى بتصحى متأخرة . . وأنا قاعد أتمتع بالجمال . .

ـ فين . . ! ؟

ـ فى هذه الحديقة . . فى الهواء . . فى . . .

ونظرت إليها وقطعت الكلام :

ـ منصور بيه . . لسه نايم . . ؟

ـ من الفجر راح مصر . . .

ـ إزاى . . ؟

ـ لقى عربية رايحه بدرى . . فركب يجيب عربية جيب ولا ونش

ـ مين أشار عليه بكده . . ؟

ـ ميكانيكى . . . لقاه هنا . .

ـ دا حمار . . عربيتكم . . مفهاش حاجة أبدا . .

ـ وعرفت ازاى . . ؟

ـ عارف من الليل . . وكنت اقدر أدورها ساعتها . .

ـ وليه مادور تهاش . . . ! ؟

ـ كنت تعبان . . إن كان معاكى المفاتيح أجيبها هنا . . واضربيله تليفون

ـ المفاتيح فوق . . .

ـ هاتيها من فضلك . . .

ـ لما اشرب الشاى . . انت مستعجل ليه . . ووقفت بجوارى تنظر إلى الأشجار وقالت :

ـ أترى هذه الحديقة الصغيرة التى نبتت فى الصحراء . . كم هى جميلة . . أتمنى أن يكون لى واحدة مثلها . . وفى وسطها بيت صغير . . فى قلب الريف بعيدا عن صخب المدينة . . .

ـ هذا ماتمنيته قبلك . . كلما دعانى صديق إلى عزبته ، ورأيت الجمال والهدوء والروعة تحيط بالإنسان . . ولكننى أعرف الريف فالناس هناك لايدعونك تتمتعين بالجمال

والهدوء إطلاقا ، لا يتركونك فى سلام ، وإن كنت لا تسببين الضرر لأحد ولا تؤذين حتى بعوضة . . وفى الليل لا تنامين . . تسمعين صوت الرصاص . . .

- متوحشين . .

- ليس هذا التوحش فى ريف مصر وحدها . . بل فى كل مكان فى الأرض . . طبيعة الحياة والإنسان . . أرى فى عينيك النوم . .

- لم أنم إطلاقا . . كنت خايفة وحدى . .

- وكان فين منصور بيه . . ؟

- من البار إلى الميكانيكى . . . وجئت عندكم بالليل ، وأنا أتصور إن سلوى هانم لسه صاحية ، وكنت أود أن أنام معها فى الغرفة ونطردك

- عندما طلبت السيجارة . . لم أكن أتصور أنك تدخنين . . .

- إننى لا أدخن إطلاقا . . . !

واصفر وجهى وقلت :

- هيا نشرب الشاى . . .

- شوف سلوى هانم صحيت ولا لسه . .

وصعدت إلى زوجتى فوجدتها لاتزال نائمة فتركت لها ورقة بأنى ذاهب إلى العربة المتعطلة . . وإن كنت أعرف أننى سأعود قبل أن تصحو وشربت الشاى ، وجاءت لى عفاف بمفتاح العربة وقالت ، وأنا أخرج بعربتى :

- أنا ذاهبة معك . .

- ليه ؟ . . خليكى بلاش تعب . .

- أنا أعرف أسوق . . وإن دارت أجيبها . .

فنزلت من العربة وفتحت لها الباب الخلفى ، لتركب وحدها فى الخلف . . فركبت وهى تغالب انفعالها . . وسرنا . . ووصلنا إلى عربتها وعالجت الموتور ودار بعد ربع ساعة . . وهى تنظر إلى مستغربة لهذه البراعة . . ولكن قبل أن تسير العربة لاحظت أن إحدى العجلات الأمامية فارغة من الهواء . . .

ولم ينفع المنفاخ . . ورأينا أن نستبدل العجلة بالاستبن . . وجلست لأفك الصواميل . . وكانت هى تساعدنى . . وجلست على الأرض مثلى ولمحت وهى جالسة

فخذيها . . وبياض بشرتها وسرت فى جسدى النار . . ولكننى كنت أقاوم الرغبة بأعصاب قوية وإرادة من فولاذ . . كان الطريق خاليا . . والصحراء مقفرة وليس فى المكان سوانا . .

وعندما أخذنا ندفع العجلة بعيدا عن منحدر قريب ، طارت من أيدينا فوقعنا معا على الرمال ، متجاورين متلاصقين ، والنار تشتعل فى عيوننا وقاومتنى . . وقاومتها . . قاومنا الرغبة والاشتهاء معا . . وعلى قدر ما التصقنا ابتعدنا ودرنا أربع دورات أو خمس على الرمال . .

عندما جاء زوجها فى العربة الجيب كانت شمس الضحى ، قد ارتفعت ، وكنت جالسا وحدى تحت عامود الفنار . . وشمس الربيع أخذت تحمى . . وكانت زوجتى جالسة وحدها تشرب الشاى فى الشرفة . . وعفاف فى عربتها تملأ خزان البنزين ، ورأيت حبات الرمال . . لاتزال عالقة بشعرها . . لم تشأ أن تزيلها .

وعندما استدار منصور بعربته ليأخذ طريق القاهرة لمحنى وأنا جالس فحيانى . . ولوحت له بيدى اليمنى وأنا أتحسس بيدى الأخرى موضع أسنان حديثة انغرست فى لحمى . . !

أفيـــون

كان يؤلمه أنه لا يعيش كما يعيش الناس . . . يقضى الليل وسط الحبر والورق والحروف والرصاص ، ولكنه يجد نفسه مسوقا إلى العمل سوقا كأنه مطوق بالحديد . . .

«مهداة إلى أخى عاشور عليش»

كان الأستاذ علام محررا فى جريدة يومية كبرى من جرائد القاهرة الصباحية ، وكان يراجع الأخبار الداخلية التى ترد من المندوبين فى كل الأنحاء . . ويكتب لها العناوين . . ويبرزها بالحبرين الأسود والأحمر ، ويخرج الصفحة السادسة الخاصة بالأخبار والحوادث وهى أهم صفحة فى الجريدة . . وعليها تتركز أنظار القراء .

وعندما يجلس إلى مكتبه فى الساعة الخامسة من كل مساء تنقطع صلته بالخارج . . ويعيش فى هذه الدوامة التى لاترحم . . وعندما ينزل إلى المطبعة فى الساعة الثامنة تكون حواسه كلها قد تجمعت على صفحته وتركزت فيها «لتوضيبها» ودفعها إلى ماكينة الصب فى الميعاد . . ويسمع حركة العمال على ماكينات اللينوتيب ، والأسطوات يـزيتون آلات الطباعة الضخمة ، ويعدونها للدوران . . ومهندس الماكينات هنـاك يرقب هـذا ، وهو يدخن وقد تهيأ للعمل الجدى إلى الصباح .

وكان علام لا يحس بشىء مما حوله . . فحواسه كلها تتركز على صفحته ، وحيويته كلها تفنى فيها وتعمل لها ، . . حتى يفرغ منها .

وعندما يخرج من الجريدة فى الساعة الثالثة أو الرابعة صباحا ، ويركب سيارة إلى بيته فى السكاكينى ، تكون أعصابه قد أرهقت وجسمه قد تحطم من التعب . . فينام كالمخمور إلى الساعة الواحدة بعد الظهر . . . وعندما يتحرك ويفتح عينيه على الحياة من جديد . . يجد الناس جميعا راجعين إلى بيوتهم للراحة . . . وفى هذه الساعة يبدأ هو يتحرك ويتهيأ للذهاب إلى الجريدة . . . وكان يؤلمه أنه لا يجد الفراغ ليقرأ ، ويعيش الحياة كما يعيشها الناس . . لا يجد الفراغ ليأكل هنيئا . . ولا يجد الفراغ لينام مستريحا . . ولا يجد الفراغ حتى للحب الذى من أجله يعيش كل إنسان ، وكان بجواره فتاة حلوة . . ولكنه لم يجد الوقت لمغازلتها ، وقد أغلقت فى وجهه النافذة . . . بعد أن يئست منه . .

كان يؤلمه أنه لا يعيش كما يعيش الناس . . يقضى الليل فى هذه الخلية الدوارة التى تتحرك بسرعة الآلة . . يقضى الليل وسط الحبر والورق والحروف والرصاص ، وآلات الكبس ، وآلات الطبع . . وفى كل يوم كان يقرر بينه وبين نفسه أن يستقيل . . ولكنه يجد نفسه مسوقا إلى العمل سوقا كأنه مطوق بالحديد . . . وكان يقلق لأنه لا يجد التنفيس عن رغباته المكبوتة . . وعندما يقلق يظهر عليه التعب فيثور . . وتحمر عيناه ويتعارك مع زملائه فى العمل حتى يصل إلى رئيس التحرير وكان رئيس التحرير يعرف طباعه فيقابله بابتسامة مشرقة . . ويهدىء من ثورة غضبه . . ولكنه فى أشد حالات غضبه . . كانت الصفحة السادسة تخرج نموذجية وليس فيها خطأ فنى واحد . .

وكان يعرف أن الصحافة رسالة عظيمة والصحفى الفنان خالق ، ومبدع وأشبه بالرسول . . ويستطيع أن يدك العروش . . ويهز العالم أجمع . . ويكتب التاريخ من جديد . . وهو النور الوحيد الذى يبقى فى الظلام . . عندما تخفت جميع المصابيح وتتحطم . . وهو الكائن المعبر عن وجود الحضارة وتقدم البشرية ، وهو يعرف هذا ولذلك كان يعمل ويضحى بكل شىء .

ثم وجد نفسه قد أحب فتاة حبا جارفا وتزوج . . وكان يؤلمه أنه يتركها وحدها فى الليل . . ويتعذب لهذا . . ووجد نفسه فى جذب وشد ثم انقطع عن الذهاب إلى الجريدة ، وبعث بالاستقالة ، وعمل فى شركة من الصباح إلى الساعة الواحدة فقط . . وأحس بالراحة والحب ، ولذة النوم والمطالعة كما يشاء الإنسان ويرغب . . دون أن يخضع لقيد الساعة والزمن وسيطرة الآلة . . أحس أنه تحرر . . وذهب بعد ذلك بأيام ليطلب مكافأته ويودع زملاءه فى العمل . . ونزل إلى المطبعة . . ومرت أمامه الصفحة السادسة بعد أن جمعت وضبت ، وفى أثناء دفعها على العربة إلى المكبس انقلبت على الأرض . . ونظر العمال بعضهم إلى بعض واصفرت وجوههم ، فقد ضاع مجهود ساعات فى لحظة ، وستتعطل الجريدة ولن تلحق بقطار الصحافة وسيثور المدير ورئيس التحرير وكل من فى الدار . . وظل علام ينظر إلى الحروف الملقاة على الأرض . . ويقاوم ما بداخل نفسه من رغبة بكل ما يملك من قوة ظل أكثر من ثلاث دقائق لا يطرف ولا ينبس . . ومسح العرق المتصبب وقد أخذته الدوامة الكبرى . . ثم تحرك ووقف على الرخامة كعادته دون أن يدرى . . وأخذ يلقى تعليماته إلى العمال . . وكان يحبهم ويحبونه . . وبقوة سحرية جبارة جمعت الصفحة من جديد ، ودخلت ماكينة الصب وتسلل علام وخرج من المطبعة دون أن يحس به إنسان . . .

وفى اليوم التالى خرج إلى عمله الجديد مبكرا . . ويسمع باعة الصحف يصيحون بجرائد الصباح : الجمهورية . . الأخبار . . . وكان اسم جريدته الحبيبة يطن فى أذنه . .

وكأنما أراد الباعة إغاظته فعلى صياحهم .. وكان يحاول أن يسد أذنيه ، ولكن هيهات ..

وعندما عاد إلى بيته كان بحالة غير طبيعية ، وأخذ يتعلوك مع زوجته ، ويثور لأتفه سبب .. ووجد الجرائد والمجلات موضوعة على نضد فى الغرفة وكأنه يراها لأول مرة .. فصاح فى زوجته بغضب :

– مش عاوز الواد دا يجيب جرايد تانى .. مش عاوز ..

وذات يوم وجد ورقة تركها زميل له فى الجريدة يخبره فيها بأن يمر على الخزينة ليقبض المكافأة .. ووجد نفسه فى المساء يسير فى الشارع الحبيب الذى تسلطت عليه الأنوار من بروج الصحف .. ودخل جريدته .. ولكن بدلا من أن يمر على الخزينة نزل توا إلى المطبعة ، ووقف أمام الرخامة وسمع زملاؤه صوته المألوف :

«ياابراهيم عبد اللطيف .. ياأديب يافنان .. فيه خبر حلو علشانك جايزة القصة .. وكتاب جديد لطه حسين .. الساعة بقت كام ... عاوزين نكبس الصفحة» .

وطلب فنجاله الأول من الشاى .. ولكن عندما جاء به الفراش ووضعه أمامه على الطاولة .. لم يره .. ونسيه تماما .. فقد كان مستغرقا بكليته فى الصفحة السادسة ...

كـان مستقيما لايحب المجـون ، ويحب أن يكـون عملاؤه من طرازه ، وكان يعجب من تنقلى من غرفة إلى غرفة . . . ومع ذلك فما كان يتذمر وهو يصعد بى مئات الدرجات إلى الطوابق العليا .

سكان حى عابدين القدامى يعرفون الباشمهندس . . فقـد كان سمسـار المنازل والغرف المفروشة فى ذلك الحى . . بل أشهر سماسرة المنازل على الإطلاق . . وكان يتخذ لـه محلا مختـاراً فى شارع عبـد الدايم عنـد بقال رومى يـدعى نيكولا . . يبيـع البقـول والخمور . . ويتخذ من قبو مظلم فى الدكان شبه حانة .

وقابلت إبراهيم السمسار لأول مرة منذ عشرين عاما وأنا خارج من عملى . . . وكان جالسا عند نيكولا على كرسى قديم فى واجهة المحل . . يرتدى جاكتة بنية مقطوعة عند الكوع الأيمن . . وتحتها جلباب أبيض بخطوط سوداء رفيعة ويضع على رأسـه طربـوشا قصيراً ذبل بالعرق وامتص من غبار الطريق . . وحذاؤه أصفر وليس فيه خروق تخرج منها أصابعه ، ولكنه تركه من غير رباط . . لأنه كان يخلع نعليه وهو جالس على الكرسى بعد أن يعود من المشوار .

وكان أبيض مستطيل الوجه أحمر الشعر أخضر العينين ، ولعله من أصل شركسى ، فلم تكن لهجته فى الحديث عربية . . وكان يعرف القراءة والكتابة ويدون فى دفتر صغير مواعيد الزبائن ويخص لكل زبون صفحة . .

وعندما قابلته وعرف مطلبى ، كتب اسمى فى الصفحة السابعة عشرة . . وكـان يظننى طالبـا ولذلـك كتبه مجـردا من كل لقب . . فلما عـرف أننى موظف فى أكبـر بنوك المدينة . . أضاف لقب بك بخط كبير . . وكان أمينا ودقيقا فى عمله . . فما يتخلف عن ميعاد قط . . على الرغم من أنه سكير مدمن . . وكان يعرف أكرم الأسر الأفرنجية التى تؤجر غرفة واحدة فى سكنها لتستعين بإيجارها على مواجهة الحياة . . ولهذا عرفته . . فقد كنت أحب أن أقيم مع تلك الأسر الطيبة فى هدوء واطمئنان .

وكان يخرج بى أحيانا من منطقة عابدين إلى حى سليمان باشا فقد أجر لى غرفة عند سيدة إيطالية بدينـة فى شارع النمـر . . وأسكننى مرة أخـرى فى قصر النيـل عند أرملة

يونانية .. فلما قلت له إننى سأتركها فى نهاية الشهر لأنها تلعب القمار فى شقتها . . ذهل وظل يلعنها ساعة . . وقال لى إنه لن يذهب إليها بعد ذلك بأى إنسان .

وكان مستقيما لا يحب المجون . . ويحب أن يكون عملاؤه من طرازه وكان يعجب من كثرة تنقلى من غرفة إلى غرفة . . ومع ذلك فما كان يتذمر وهو يصعد بى مئات الدرجات إلى الطوابق العليا . . ويتنقل من شارع إلى شارع . . ويظل يدور فى الحى ثلاث ساعات أو أربع . . دون أن يظهر عليه التعب . . مع أنه قد جاوز الخمسين . . فإذا عدنا إلى المكان الذى تحركنا منه . . اندفع إلى داخل البقالة كالقذيفة ليشرب كاسين . . ويخرج وعيناه تلمعان . . ووجهه ينضح بالعرق . .

وكان نيكولا البقال لا يطمئن إلى ، ويخشى أن يقدم كاسات الخمر أمامى لمن يشربون عنده خلسة . . فلما اشتريت منه زجاجات الجعة . . وطمأنه إبراهيم ، كان يجلسنى مع زبائنه المختارين فى داخل المحل . . ويقدم إلى ثلاثة أو أربعة من الزبائن يترددون عليه يوميا فى فترة الغداء . . أردأ أنواع الكونياك . . والنبيذ . . والزبيب . . ويتركهم يعبثون فى الجبنة الرومى والزيتون . . وبرميل الطرشى . . وهم واقفون حول طاولة المحل . . كان منهم موظف فى وزارة الأوقاف فى قسم الإعانات الخيرية . . ثم شخص نحيل قصير يبيع الكتب القديمة فى قلب القاهرة . . ويسكر بثمنها . .

وكان يتردد على البقال ثلاثة أو أربعة من حوذية العربات الكارو التى تقف فى شارع قوله . . يدخل الواحد منهم بجلبابه الأزرق وقامته الضخمة . . ويقف بجانب الطاولة دون أن ينبس بشفه . . ويضع له نيكولا الكاس . . متخفيا وراء البرميل فيرفعه إلى فمه مرة واحدة ويمسح شفتيه بظهر يده . . ويخرج ليجلس فى الظل على ناصية حارة البلاقسة . . حيث يتجمع سرب من النساء فى العصر ، لملء صفائح الماء من الحنفية العمومية .

وكان الأطفال يقفزون حول الحنفية كالكتاكيت . . وكان معظم النساء دميمات سمينات يظهر الفقر بوضوح على ملابسهن الرخيصة ووجوههن الباهتة .

وكن كثيراً ما يتعاركن . . ويتدخل الحوذية فى فض المعركة . . أو يشتركن فيها . . وكنت أسمع فى كثير من الحالات الزعيق والصراخ يصم الآذان . . ولا أرى أية معركة حقيقية . .

ولم يكن إبراهيم السمسار . . يتخلف عن البقال ، أو يختفى من الحى . . فى أى يوم . . وعلى الرغم من أنه سكير ، فإنه كان يأتى حتى فى حالات مرضه . . وكان يقول لى إذا لم أعمل فمن الذى يطعمنى ويطعم فراخى . . لا شك أننا سنتسول جميعا . .

وقد استمرت معرفتى به أكثر من سبع سنوات ، وما رأيته متكاسلا وكنت أعطيته من النقود ما يطلب .. وكان يرضى بالقليل .. وكنت أعرف أنه يسكن فى حجرة فى حارة الشيخ عبد الله .. ولكننى لم أكن أعرف فى أى منزل فى الحارة تقع هذه الحجرة ... ولم يكن هناك موجب لمعرفتها لأننى كنت أجده عند البقال كلما طلبته ..

وأسكننى فى آخر جولة له عند سيدة سويسرية .. كانت تشتغل ممرضة خصوصية .. وتقيم فى حى قصر النيل ، فى بيت مكون من ثلاث غرف .. هى فى الرابعة أو الخامسة والثلاثين من عمرها .. ولا تمكث فى مسكنها إلا قليلا .. فقد كان معظم عملها فى الخارج .. وكانت أحيانا تغيب عن البيت أسبوعا بطوله ..

وفى هذا البيت حططت ترحالى أخيرا .. وشعرت بالاستقرار .. بعد طول تنقل من مسكن إلى مسكن .. وأصبحت لا أرى إبراهيم السمسار إلا نادرا .. وكان إذا احتاج إلى بعض النقود ، يجيئنى فى مسكنى ، أو فى محل عملى ، فقد غدا لطول عشرته لى وإخلاصه الشديد من أحسن أصدقائى .

وكان يعرف أننى استرحت .. عند هذه السيدة السويسرية .. فيقول وهو يبتسم :

- الحمد لله .. استرحنا من طلوع السلالم ..

وكانت هذه السيدة .. نظيفة متأنقة فى مسكنها وملبسها .. وتبذل أقصى الجهد لراحتى .. وتركت لى التليفون ومكتبها الصغير ورفعت كل ما بينى وبينها من كلفة فى الحديث .. وأصبحت تنادينى باسمى المجرد وكنت أراها رائحة وغادية أمامى فى قميص النوم .. ومع ذلك فلم أكن أشعر بأية عاطفة لأنها مع جمالها كانت باردة كالثلج ..

ودخلت غرفتى ذات يوم .. لتقول لى :

- إن سيدة تريدك ..

فنظرت إليها مستغربا وسألتها :

- أين ... ؟

- على الباب الخارجى ..

وخرجت مهرولا .. فوجدت فتاة ترتدى ملاءة سوداء وقدمت لى ورقة فى استحياء ..

وقرأت الورقة .. وكانت من إبراهيم السمسار يقول فيها إنه مريض جداً وأنه أرسل لى ابنته لأعطيها بعض النقود لسوء حالته ..

وسألتها :

– أبوك . . . تعبان ؟
– خالص . .
– دقيقة واحدة . . لغاية ماالبس . . لازم أشوفه . .
ولبست مسرعا . . وتقدمت أمامى لترينى البيت . .
وسألتها :
– ومين معاه دلوقت ؟ . .
– مفيش حد . .
– وأمك . . . ؟
– ماتت من زمان . . وأبوى ما تجوزش تانى . .
– مفيش غيرك ؟ . .
– مافيش غيرى . . أنا اللى باخدمه . .

ومشت أمامى فى الحارة . . وابتدأت أشم رائحة القمامة والماء القذر الملقى بجانب الجدران . . وشعرت بالغثيان . . ولكننى تابعت السير وراء الفتاة . . فقد كانت وادعة ذليلة ، يبدو البؤس والفقر الأسود من مشيتها وحركتها . . وقد أدركت الآن أن هذا الرجل . . هذا السمسار السكير كان يعيش فقط ليطعم هذه ويكسوها ، وكان يشتغل حتى وهو مريض لهذه . . فلم يكن له غرض آخر فى الحياة . .

وقفت أمام بيت قديم من ثلاثة طوابق . .
وقالت :
ـ اتفضل . .

ودخلت وراءها إلى فناء البيت . . ومشت إلى حجرة على يمين الداخل وفتحت الباب . . ووجدت إبراهيم ممددا هناك فى زاوية من الحجرة على طريحة بالية . . وكانت النافذة الوحيدة المطلة على الفناء مغلقة . . ولذلك تبينت وجهه بعد جهد . .

وسلمت عليه . . وشكرنى بصوت ضعيف . .
وقلت له :
– حاسس بإيه . .

– مش عارف والله ياسى عبد الرحمن . . همدان خالص . . وبالليل باشعر بسخونة شديدة . . أنا حاسس مفيش فايدة المرة دى . . وأترك لك أمينة المسكينة . . مالهاش حد بعد ربنا غيرك . .

وكانت أمينة واقفة فى ركن من الحجرة . . تنظر إلى أبيها وفى عينيها الأسى الصامت . . وأخذت أفكر فى الذى أفعله لهذا الرجل المسكين . . ورأيت أن أذهب إلى

أقرب طبيب . . وحينما هممت بالذهاب . . سمعت طرقا شديدا على النافذة . . وصوت أنثى تزعق . .

- انت يا بنت يا أمينة . .

واحمر وجه أمينة وأسرعت إلى الخارج . . وسمعت الصوت الحاد يردد :

- فين الإيجار . . ؟

وهمس إبراهيم وهو يدور بعينيه فى ألم :

- مين يا بنت . . . ؟

- . . .

- مش قادرة . . تستنا لغاية ما تحرك . .

واشتد زعيق المرأة دون أن يرد عليها أحد . . ثم ذهبت . . وخرجت إلى الطبيب . . وجاء وهو يتأفف . . ونظر إلى المريض من بعيد . . ثم قال لى إن حالته ميئوس منها . . والأحسن أن أحاول نقله إلى المستشفى وكتب له دواء . . فخرجت معه لإحضاره من الصيدلية . .

ولم أستطع نقله إلى أى مستشفى مجانى . . فقد رفضه الجميع . . بحجة أنه لا توجد أمكنة . . وصاحبة البيت تطالبهم بإيجار الحجرة وتهددهم بالطرد فى كل ساعة . . والمريض قد اشتد عليه المرض ، وأصبح مذهولا لا يحس بشئ مما يجرى حوله ، ووقعت الصاعقة كلها على رأس الفتاة المسكينة . . التى لم يكن لها أحد فى هذه المدينة الكبيرة . . سوى والدها . . حتى مرض وعجز عن الكسب ، وتركها الآن لقسوة الحياة . .

وكنت أعود المريض كل يومين أو ثلاثة . . وأرى حالته تزداد سوءا وأسمع عراك صاحبة البيت وتهديدها بالطرد . . . وأمينة تقابل هذا كله بالبكاء الصامت . .

وذات مساء رأيت وأنا داخل عفش الحجرة ملقى فى فناء البيت وتركت صاحبة البيت للمريض الحشية التى ينام عليها فقط وأخرجت الباقى . . ولم يكن المريض يقوى على الحركة . . وقد ذهل عن كل شئ حوله . . وكانت أمينة تعول . . وعندما رأتنى صمتت . .

ورأيت أن أستدين مبلغا صغيرا لأدفع لهذه المرأة الشرسة الإيجار . . وخرجت لأبحث عن النقود . . وعندما عدت فى الليل . . كان إبراهيم قد انتهى . . ودفناه فى الصباح . . وكانت جنازته فقيرة بائسة مثله . .

وفى أول الشهر أعطيت أمينة بعض النقود . . لتدفع منها أجرة الحجرة وطلبت منها أن تأتى إلى بيتى كلما احتاجت إلى شيء . . ورأيت أن أبحث لها عن عمل كفراشة فى أية مدرسة للبنات . .

وجاءتنى بعد أسبوعين . . وفتحت لها السيدة السويسرية الباب . . وأدخلتها فى الصالة . . وأخذت أحادثها بعطف . . والسيدة جالسة معنا ثم أعطيتها بعض النقود . . لتعيش منها إلى أن أعثر لها على عمل وجاءت بعد ذلك بأيام وقالت لى السيدة السويسرية بعد أن فتحت لها الباب وانتحت بى جانبا . .

- ولماذا لا تجعلها تقيم هنا حتى تجد لها عملا . . انت حتقعد تكد عليها . .

ورأيت أن الفكرة حسنة . . فبعنا عفشها وحملت ملابسها . . وجاءت لتقيم عندى . .

ورتبت لها السيدة أريكة لتنام فى غرفة المائدة . . وغيرت ملابسها . . وبدت أنيقة جميلة كالعروس . . كانت تبقى فى الشقة دائما ولا تبرحها إلا مع السيدة فى يوم الأحد . . وبعد شهر أصبحت كواحدة منا . . ولم تكن تفعل لى شيئا أكثر من غسل ملابسى . . وإعداد فنجان الشاى فى الصباح . . فإنها لم تكن تعرف الطهى . . وكانت السيدة تجئ لها بالطعام من الخارج . . وكنت أود أن أدفع لهذه السويسرية أكثر من الجنيهين اللذين أدفعهما لايجار الغرفة نظير طعام الفتاة . .

فكانت تقول لى :

- وكيف تعيش . . أنا أعرف أن ماهيتك صغيرة . . بس عجل وابحث لها عن عمل . .

وأخذت أبحث . . ومرت الأيام ، وازداد عطفى لها . . وكانت السيدة السويسرية ترانى أضحك مع الفتاة وأمازحها ، وأحاول أن أمسح أحزان قلبها . وكنا نخرج فى مساء الجمعة نحن الثلاثة إلى سينما صيفية قريبة وكانت السيدة السويسرية تحاول دائما أن تجلس على الكرسى الملاصق لى . . ولكننى كنت أجلس أمينة بجوارها . . وأجلس أنا بعيدا . . وكنت ألاحظ امتعاضها . .

وكلما مرت الأيام ازداد عطفى على الفتاة وكانت براعمها تتفتح أمامى كزهرة الصباح الجميلة . . وتغيرت بعد أن شبعت . . وأصبحت أنثى ناضجة . . وكانت تضحك من كل قلبها . . وهى تقلد المدام فى حديثها معى بالفرنسية . . وكنت أعيش مع هاتين المرأتين . . قانعا بالحديث ، والمتعة الروحية ، ولذة من يرعى يتيمة مسكينة ويدفعها فى أمان إلى طريق الحياة . . وعلى الرغم من أن السويسرية كانت تخرج أمامى من الحمام بالروب المفتوح . . فإننى ما اشتهيتها أبدا . .

وسررت عندما ألحقت أمينة بالعمل فى مدرسة للبنات لأننى كنت أخاف عليها من ركوثها طول اليوم فى المنزل وحدها . .

ومرت الشهور ونحن سعداء . . كانت تجيء فى العصر وأفتح لها الباب . . فتنظف البيت مرة أخرى وراء المدام ، فقد تعلمت منها النظافة الجنونية . . وتغسل لى ما اتسخ من ملابسى ومناديلى . . وتصنع لى فنجانا من القهوة . .

وكنت أسألها :

- مبسوطة يا أمينة فى المدرسة ؟؟ . .

- خالص . . الست سميرة . . إنسانة . . وحلوة والنبى . . وليه متتجوزهاش . . ؟

وكنت أضحك لهذه البساطة . .

- وهل قالت لك إنها عايزة عريس . . ؟

- طبعا . . أمال عايزة إيه فى الدنيا . . غير العريس . .

- عقبال عريسك . .

واحمر وجهها وتركتنى ودخلت المطبخ . .

وفى الليالى التى كانت تعود فيها الممرضة السويسرية من عملها مبكرة ، كنت أترك أمينة معها وأخرج لأجلس مع بعض أصحابى فى المقهى . . وأعود فى ساعة متأخرة من الليل . . فأجد الممرضة ساهرة فى الصالة . . وتقول لى :

- وليه السهر . . وانت بتصحى بدرى ؟ . .

- كنت فى السينما . .

- فيه سينمات لغاية دلوقت ؟ . . دى الساعة واحدة . .

وكان من عادتها إذا عدت من سهرى فى الخارج ، وكانت ساهرة أن تدخل غرفتى قبلى . . لترتيب السرير . . وتحمل لى دورقا من الماء المثلج . . ثم تقف تتحدث معى دقيقة أو دقيقتين . . بصوتها الناعم الخافت وابتسامتها الرقيقة التى اكتسبتها بحكم عملها كممرضة . . وعندما أشرع فى خلع ملابسى . . كانت تتركنى . . ثم تعود لتستأنف الحديث . . ولتطفئ نور الغرفة إذا سهوت وتركته مضاء . .

ولم تكن تخجل إذا رأتنى فى الصباح وأنا عارى الصدر وأقوم ببعض التمرينات الرياضية وكانت تنظر إلى هذا كشىء طبيعى . .

وكنت أود ، بعد أن اشتغلت أمينة ، أن أسكنها عند أرملة أعرفها فى حى الحلمية الجديدة لتعيش مع بناتها . . ولكن السويسرية رفضت وقالت لى :

- ليه . . هى مضايقانى فى إيه . . دى بالعكس مساعدانى خالص فى تنظيف البيت ، خليها والسنة الجاية أنا مسافرة سويسرا ومش راجعة تانى ، حنبقى نفارق بعض طبيعى . .

ولم أقل شيئا . . وهكذا عاشت أمينة معنا . . وكان السكان جميعا يتصورون أنها خادمة عند السويسرية . . وتركت الأيام تجرى .

وعدت ذات ليلة فى الساعة العاشرة مساء . . فلم أجدهما . . . فتصورت أنهما ذهبتا إلى السينما . . ولما عادتا سألت الممرضة . . فقالت :

- كان فيه حالة مستعجلة . . وخدت أمينة معاى . .
- وضرورى تخديها معاك . .
- إيه . . انت بتغير عليها ولا إيه . . ؟!

وضحكت فى تدلل . . وأظهرت اشمئزازى من هذا السخف ، فدخلت غرفتى . . وتركتها . . وسمعت بعد دقيقة ضحكا عاليا . .

ثم تكرر غياب أمينة مع الممرضة . . كانت تخرج بها . . وقد ألبستها أحسن فساتينها . . وأنقتها وعطرتها . .

وتأخرتا ذات ليلة . . وغلبنى النوم قبل أن تعودا . . ولما استيقظت فى الصباح نهرت أمينة حتى بكت ومنعتها من الخروج كلية فى الليل والنهار .

استيقظت صباح يوم من أيام الجمعة متأخرا . . وكانت أمينة تقدم لى شاى الصباح . . ولكنها لم تأت . . فتحركت من الغرفة بعد أن سمعت بكاء ينبعث من غرفتها . .

ولما ذهبت إلى هناك . . كانت منبطحة على الأريكة تتقيأ . . والممرضة واقفة بجوارها . . تحادثها . . بصوت خافت . . وكان وجهها أصفر وعيناها فى لون الدم . . ولما أحست بى الممرضة سألتها :

- فيه إيه . . أكلت حاجة . . ؟
- أبدا . . .
- أكلملها الدكتور . . .

فوضعت يدها على ذراعى وسحبتنى إلى خارج الغرفة . .

وقالت وهى تهمس وعلى فمها ابتسامة صفراء :

- دى حاجات نسائية . . متفهمهاش انت . . لأنك غير متزوج . .
- ماذا تعنين . . ؟؟
- إنها حبلى . .

وكأنما لدغتنى عقرب . . فأمسكت بذراعيها وقلت لها بصـوت يرعـد وأنا أهـزها بعنف :

- ومن الذى فعل فيها هذا . . انت مجرمة . . إنها يتيمة مسكينة ، وأنت تعرفين هذا . . فلماذا فعلت هذا . . ؟

- انت المجرم . .

وضغطت عليها . . فقالت بانفعال :

- لى سنتان معك . . فى بيت واحد فهل أحسست بوجودى . . وشعرت بى . . وأنا أفعل كل شىء لإرضائك . . وعندما جاءت تحولت إليها . .

- إنك حمقاء . . إنها أمانة فى عنقى . . وأعاملها كأخت . .
- تزوجها الآن . . أو استدع الطبيب ليجهضها . .
- وهل هذا هو انتقامك . . ؟

- إنه أحسن انتقام . . إننى أشعر بلذة لا حد لها . . عندما أعرف وقع هذا الخبر عليك . . وأعرف عذابك . .

واشتد ضغطى على عنقها واشتد صراخها . .

وفى خلال ذلك سمعت نافذة الشرفة فى غرفة أمينة تفتح وجسما ثقيلا يسقط على الأرض . .

الأعرج في الميناء

وقصص أخرى

الأعــرج فى المينـــــاء

عندما ذهبت إلى السويس لأول مرة فى حياتى لم تكن الحرب العالمية الثانية قد اشتعلت . . . ولم يكن الانجليز يعسكرون فى مدن القناة . . . وإنما كانت الحياة هادئة جميلة فى تلك المدينة

وكنت أعمل صرافا فى مصلحة كبيرة . . وأصرف الأجور والمرتبات لالآف من العمال والموظفين الذين يعملون فى الميناء .

وكان العمال يصرفون أجورهم مرتين فى الشهر والموظفون مرة واحدة فى اليوم الأول من الشهر .

وكانت هذه الأيام الثلاثة هى أشق الأيام . . . وكان أسوا ما فى المسألة أننى أصرف الشيك من البنك الأهلى فى سكة الزيتية . ثم أذهب بعد ذلك إلى المحافظة لاستبدال بعض أوراق البنكنوت بالعملة الفضية والنيكل والبرونز . . ولهذا كنت أتأخر فى الصرف إلى الساعة الرابعة بعد الظهر . . وأخرج من المكتب إلى الفندق وأنا محطم تماما فأتمدد على الكنبة إلى الغروب . . ثم أذهب إلى مشرب من مشارب الجعة المشهورة فى هذه المدينة . . وآكل الجامبرى السويسى والسمك المشوى . . وبغير الجعة والفسفور فى السمك كنت لا أستطيع أن أنام بعد العمل الشاق والإرهاق العصبى المدمر . وأنا أصرف ثمانية آلاف من الجنيهات وأنا واقف على قدمى . . وكان المتعب فى العملية الناس الذين يطلبون الفكة . . والفضة الجديدة . . ويرفضون بعض أوراق البنكنوت كأنها مزيفة . . ويأتى بعد الرجال . . المطلقات اللواتى يصرفن النفقة . . وكانت الواحدة منهن لا تستطيع أن تعد أكثر من عشرة . . وتحسب فى كل مرة أن نقودها ناقصة وأننى سرقتها ومنهن من كانت تتهم زوجها بسرقة ختمها . . وإرسال واحدة بدلها .

وكانت هذه الحوادث لا تنتهى أبدا . .

وكنت مع تعبى الشديد والخوف من العجز . . أجد لذة محببة فى دراسة هذه الوجوه التى تقف أمامى على شباك الصرف . . وأرى فى بعض النساء وجوها صباحا تصرخ بالفتنة فأهدأ . . فأكون كمن أعطى حقنة مورفين وهو فى أشد حالات الهياج العصبى .

وكان عملى مستقلا عن عمل الموظفين . . ومكتبى فى غرفة تطل على البحر . . ومن نافذتها كنت أشاهد ما يجرى فى الميناء وأرى البواخر الضخمة وهى تعبر القناة . . منطلقة فى عرض البحر وراسية فى الحوض الجاف . ومفرغة حمولتها على الرصيف . . داخل النطاق الجمركى . . وأرى العمال وهم يعملون ويغنون وعلى أكتافهم الأحمال الثقيلة ويجرون على السقالات والأرصفة وعرقهم يتصبب .

وكنت أصطفى اثنين من الموظفين بالمودة . . شاهين أفندى وكان فى قسم الإدارة وأمين أفندى وكان مهندسا فى الميناء وكان أعرج . . ويعد من أبرع المهندسين فى المصلحة على الإطلاق

وكنا نجلس نحن الثلاثة يوميا . . على قهوة فى مدينة السويس نستمر إلى منتصف الليل ثم يذهب كل واحد منا إلى بيته .

وكان بيت أمين من طابق واحد على سكة الزيتية . . وقريبا من البحر . . وكان أمين أعزب ولا يقوم على خدمته أحد . . وكان يأكل فى الخارج . . ويعطى ملابسه للمكوجى . . وينظف له البيت أحد الفراشين فى المكتب من حين إلى حين . . وكان مع عرجه رياضيا ويحب المشى . . . ويستحم فى البحر يوميا قبل الشروق . . فى الصيف والشتاء . . وأحسبه الوحيد الذى كان ينزل إلى البحر فى تلك المنطقة . . لأنها كانت مشهورة بحيوان «القرش» وكان يعرف هذا ولكنه لم يكن يخشى أى شىء فى الحياة .

وكنت أسمع أنه يشتهى النساء ولكنه لم يتحدث عنهن أمامى كشىء يشغل البال .

وكنا نجلس فى مساء الأحد على طريق البحر ونرى أسراب النساء الخارجات للتنزه وكان معظمهن من الأجانب . . ومن الإيطاليات .

وكانت تمر أمامنا أختان متشابهتان فى الجمال وطول القوام . . وكانتا أجمل من نرى من النساء وتبدوان متعاليتين . . فى أرستقراطية تامة . . لاتتحدثان إلى إنسان ولا تختلطان بأحد . . وكنا نرى أن جمالها الأرستقراطى لا روح فيه . . ومع ذلك فقد كانتا محط أنظار الرجال ولكن ما من إنسان كان يجرؤ على الاقتراب منهما .

وكان المكتب فى بور توفيق . . والفندق الذى أقيم فيه فى السويس . . وفى شارع السوق الرئيسى . . وكنت أضيق ذرعا بالضجيج والحركة فى الشارع وركوب القطار كل

يوم . . وأود لو أعثر على سكن فى بور توفيق . . ولكنها كانت ضاحية بنتها الشركة لموظفيها . . . ومساكن الأهالى فيها قليلة . . وإن وجدت بيتا صغيرا . . فليس معى عفش . . وتأثيث بيت حتى على أبسط صورة ليس بالأمر الهين على شاب مثلى راتبه صغير . . وكان جلال وهو فراش الخزينة والذى يرافقنى وأنا أحمل الصرة يعرف المشقة التى أعانيها من المسكن فى السويس . . فأخذ يسعى منذ قدومى ليجد لى غرفة مفروشة فى بور توفيق . . وأخيرا دلنى على غرفة عند سيدة أجنبية تسكن فى طرف هذه الضاحية . . . وأوصانى وأنا ذاهب إليها أن أكلمها بلغة أجنبية حتى تتصور أنى أجنبى . . لأنها لا تسكن المصريين . . ومتى أدركت الحقيقة بعد أسبوع أو أسبوعين . . تكون قد خبرت طباعى واطمأنت إلى . . وذهبت على هذا الاعتبار وقرعت بابها .

وفتحت لى الباب . . نصف فتحة وكانت خارجة من المطبخ . . وترتدى مريلة على ثوب بنى قصير . . وكانت غير متزينة . . ولكنها تبدو مشرقة . . وقلت لها بالفرنسية عن بغيتى . .

فقالت :

ـ تفضل .

وأرتنى الغرفة . . وكانت فوق مستوى أحلامى .

ولكننى رأيت أن أستعمل المكر الريفى حتى لا أظهر لهفتى على الغرفة .

ـ هل تدخلها الشمس . . . ؟

ـ شمس . . . إننا فى الصيف . !

ـ ولكننى أحب أن أنام فى غرفة تدخلها الشمس . . صيفا وشتاء . .

ـ تعال فى الساعة الرابعة لترى الشمس بعينك تملأ الغرفة .

ـ سأجىء . . .

وقالت وأنا فى الطريق إلى الباب :

ـ من الذى دلك على الغرفة . . . ؟

ـ مسيو . . جورج . . .

ولا أدرى لماذا اخترت هذا الاسم . . وخفت أن تسألنى :

ـ جورج من . . . ؟

ولكنها أنقذتنى من الحرج . . بقولها :

ـ أتجلس عنده . . .

ـ أجل . .

فأدركت أنه حلوانى أو صاحب مشرب فى السويس . . .

وأطلت برأسها من النافذة وأنا أجتاز سور بيتها وقالت :

ـ ستأتى فى الساعة الرابعة . . .
ـ بكل تأكيد . . .
وفى مساء اليوم نفسه انتقلت إلى الغرفة . .

وكانت مارينا . . أرملة ، ترك لها زوجها فتاة فى التاسعة من عمرها وطفلا فى الرابعة . . وكانت الفتاة فى مدرسة إيطالية بالسويس . .

ومر شهر . . ولم أكن أعير هذه المرأة . . التفاتة . . ولا كانت هى . . ولكننى كنت قد غيرت طريقة حياتى فأصبحت لا أذهب إلى السويس إلا مرة أو مرتين فى الأسبوع . . وكان أمين يجىء إلى بيتى . . وأخرج معه إلى الميناء . . وكان يلاحظ لانشات المصلحة وبواخرها . . والعمال فيها . . وكان المحرك للميناء والقوة الفعالة فيها . . ويعمل دون صراخ أو ضجيج . . وكانوا يأتون به فى أيام راحته . . ويوقظونه من نومه . . لأنه الإنسان الوحيد الذى يستطيع أن يحرك هذه الآلات الكهنة . . ويديرها وينفخ فيها من روحه . .

وكان لا يحب القبطان ولا وكيله . . ويكره كل إنسان يجلس إلى مكتب بين جدران أربعة . . ويقول عنهم إنهم جهلاء . . لا يعرفون الحياة لأنهم لا يعيشونها . . وكان يغضب أشد الغضب عندما يراهم يخصمون يوما من بحار أو عامل انقطع عن العمل لمرضه . . ويقول ثائرا :

ـ هاتوه أمامكم لتروه . . واعرفوا حاله . . بدلا من تقرير مصير الناس على الورق . .

ولم تكن المنازعات تنتهى بينه وبين الموظفين فى المكتب أبدا . . لأنهما كانتا قوتين تتصارعان . . كان هو يعمل للخير وللحياة . . وهم للروتين والعفن . .

***

وكان يسكر مثلى ولكنه لم يكن يسبب الأذى لأى إنسان . وكان يدافع عن العمال ويتحمل كل ضروب العنت فى سبيلهم . . وكنت أصطفيه لأنه كان إنسانا وكان رياضيا . . يحب المشى والرياضة مثلى . . فكنا نقطع الطريق من بور توفيق إلى السويس سيرا على الأقدام . . وفى بعض الحالات نواصل السير إلى الأربعين . .

وكان يقرأ . . ويتحدث عن الأدب وأرى فى يده أكثر من كتاب لبروست وزولا . . وكنت أسأله :

ـ لماذا لا يوجد أديب فى الشرق مثل جوركى . . أو دكنز . . أو همنجواى . . ؟
ـ لأن الأدب عندنا ينفصل عن الحياة .

ـ أليس للاستعمار . . دخل فى هذا . .
ـ إن الأدب يزدهر وينمو . . حيث القلق والاضطهاد . . ولكننا لا نعيش فى الحياة ولا نصل إلى أعماقها . .
ـ ألا نأمل فى المستقبل . . ؟

ـ طبعا . . فمع كل المساوىء التى تراها فى الحياة والفن . . فنحن نتقدم . ولكننا نعقد الحياة . . ونشوه وجهها الجميل . . وهؤلاء العمال الذين تراهم فى الميناء يمكن أن يوجد من بينهم مائة قارىء يقرأون ويسمعون الموسيقى على أحسن وجه . . لـو هذبت مداركهم . . ورفعت مستواهم . . وجعلت لهم فى هذا المكان قـاعة للمطالعة ومثلها للموسيقى . . إنهم لا ينقصهم شىء . . عن أى إنسان أوروبى ولكننا نشوه الحياة عندنا وننقص من قدرنا متعمدين . .

وقد رنت كلماته فى أذنى وحاولت من هذه اللحظة أن أعيش فى الحياة . .

***

وكان يجىء إلى بيتى فى يومى الخميس والأحـد . . وكنا فى هـذين اليومـين نسهر ونسكر . . وكانت مدام مارينا تسهر معنا . . ونتحدث فى كل الشئون . . ولم أكن أدرى أنشأ بينى وبينها بعد هذه الشهور السبعة ما يشبه الحب . . ولكننى كنت أرتجف وأنا أراها كاشفة عن مفاتنها أمامى . . وكان من عادتها أن تغلق نوافذ البيت فى ساعة القيلولـة ، وتسدل عليها الستائر وتلبس قميصا أبيض قصيرا كـأنه مقـطوع بمشرط فى نصف دائـرة كاملة . . أو كأنها خلعته فى الجانب الأيمن من الكتف ونسيت الجانب الأيسر فتركته على حاله . . ثم تنساب فى البيت وهى على هذه الصورة وخصرها مائل إلى الجانب وتوقظنى من أحلامى وهى تنحنى أمامى وتأخذ سيجارة من علبتى . . وتشعلها . . وتنفث دخانها وأنشق عبير أنفاسها . . . وعندما رأتنى أقرأ كثيرا . . وأحبس نفسى فى الغرفة . . قالت لى وهى باسمة فى أسى . . .

ـ لماذا تتعب نفسك فى الدرس يامسيو مراد . . هل تعد رسالة للدكتوراة . . ؟
ـ إننى أقرا لأتسلى . . .
ـ أخرج إلى الشارع لترى الناس وتتمتع بالحياة . . لاتضيع شبابك هكذا . . .
وأمسكت بيدى مرة . . وكنا ندفع السفرة إلى جانب الحائط . .
ـ أرأيت . . أثر الكتب على جسمك . . إنك ضعيف محطم . . .
وكأنما لسعتنى بسوط وعلا وجهى الاصفرار . .

وذات يوم من أيام الصرف للعمال . . تأخرت فى استبدال العملة . . الفضة فى المحافظة . . .

وتعطلت بنا السيارة فى الطريق إلى بور توفيق فزادت الأمر سوءا . . وعندما وصلت إلى باب المكتب فى الساعة الثالثة بعد الظهر . . كان آلاف العمال يقفون فى الشارع . . ويسدون على الطريق . . وفى عيونهم التذمر والقلق . .

ودخلت المكتب وأغلقت ورائى الباب . . كان لا بد من عد الفضة قبل البدء فى الصرف . . وأخذ العمال يتصايحون فى الخارج . . ثم أخذوا يقرعون الباب بعنف وازداد الاضطراب والصياح . . وصحت فيهم وتوقفت عن العمل . . وزاد هياجهم . . وأفلت الزمام من يدى . . ومن يد القبطان . . وكل رجل مسئول فى الميناء . . .

وهاجوا ودفعوا الباب بالقوة ودخلوا . . وكانت النقود مبعثرة على الطاولة . . وزاغت عيونهم . . واصفر وجهى وتقدموا فى هياج نحو الطاولة .

وكنت واقفا وحدى . . وبجانبى الساعى . . ونحن نكاد نختنق ونتحطم . .

وفى تلك اللحظة الحاسمة . . سمعت صوت أمين خلف هذه الجموع . . ونظروا جميعا إلى الخلف وتسمروا فى أماكنهم . . ودخل يشق الصفوف . . . وانقطع كل صياح . . وعاد السكون والنظام . . . ووقف بجانبى وأنا أصرف لهذه الجموع . .

وسهرنا فى مساء الأحد مع مارينا كعادتنا . . وسكرنا . . . وكان من عادتها أن تجلس معنا بعد أن ينام طفلها وتذهب ابنتها إلى سريرها . . وتغلق عليها النور . .

ثم تقبل علينا رشيقة ضاحكة . . وقد ارتدت رداء بسيطا يبرز محاسنها ويزيدها جمالا . . .

وكانت تدير الجرامافون وتدور علينا بالكؤوس . . . وهى نشوى طروب . ولما انتهت السهرة ونهض أمين ليذهب رأيت أن أرافقه إلى المحطة فقالت مارينا :

ـ سأخرج معكما . . .

وخرجنا ثلاثتنا إلى الطريق . . وأحسست بالصفاء وبالسرور وبجمال الضاحية . . وجمال الطبيعة من حولى وجمال القمر . . .

ولما أركبنا أمين القطار وعدت معها فى الشارع الذى على جانبيه الأشجار كنا وحدنا . . ولم نصادف إنسانا فى الطريق . . . وكنا نسير متمهلين . . . وسألتها وقد شعرت بضربات قلبى تشتد :

ـ هل أنت مستريحة لوجودى فى بيتك . . . ؟

ـ طبعا . . إنك فى غاية الأدب . . وأنا أستفيد منك . .

ـ كيف . . ؟

ـ ايجار الغرفة . . والطعام . .

ـ ولكن فائدتى أنا ليست مادية كما ذكرت . . فأنا أشعر معك بسعادة روحية . . سعادة من يحب . .

ـ يحب . . . !!

ـ أجل . . إننى أحب . .

ـ تحب من . . . ؟

ـ أنت . . .

ـ هل أنت سكران . . .

ـ لماذا . . . ؟

ـ لأنك بدأت تهذى . . .

وظهر على وجهها الغضب .

ـ ألا أصلح للحب . . . ؟

وهزت كتفيها . . . ولم تنبس . . .

شعرت بمثل الدوامة تلفنى وبمثل موج البحر الذى بجوارى يدفعنى إلى بعيد . . .

ودخلنا البيت صامتين . . .

وكأنها شعرت بالخنجر الذى غرسته فى قلبى . . فقد أخذت تعاملنى بلطف ودون كلفة كأننى فرد من الأسرة . . وتطلب منى أن أساعد بنتها فى دروس المدرسة . . وتشركنى معها فى نقل الأثاث . . من غرفة إلى غرفة . . وفى تنسيق المائدة . . وتطلب منى أن أختار لون الطعام الذى أحبه . . ولكنى رغم هذا لم أتقدم نحوها بأية خطوة جديدة . . .

***

وفى يوم الأحد التالى جاء أمين وسهر معنا كالعادة . . وكنا نتعشى عشاء بسيطا فى الصالة ونشرب النبيذ الإيطالى . . ونستمع إلى الموسيقى . . ولاحظت على المائدة . .

وكانت مارينا تجلس بيننا . . أن يدها لامست يد أمين أكثر من مرة . . ولم أكن أعرف أهذه الحركة جاءت منها عفوا أم متعمدة . . .

ولكن لم يظهر على وجه أمين أنه أحس بيدها أو لاحظ منها هذه الحركة . وعندما نهضنا عن المائدة وجلسنا . . ندخن فى الفراندة . . ذهبت هى إلى المطبخ لتصنع قهوة ومشيت إلى غرفتى لأجىء بعلبة السجائر . . ورأيتها وأنا راجع . . مقتربة منه تعانقه وهو يدفعها عنه بلطف . . وتأخرنا فى السهر ولما نهض أمين ليذهب إلى السويس . . خفنا أن يفوته آخر قطار . . فعرضت عليه أن يبيت . . وبعد الإصرار . . قبل ونام فى غرفة وحده . .

وذهب كل منا إلى فراشه . .

وفى آخر الليل تنبهت على حركة . . وسمعت صوتها . . وكانت تهمس فنهضت ومشيت نحو مصدر الصوت . . فرأيتها بجانب فراش أمين . . وهى حافية وبقميص واحد وصدرها كله عار . . وكانت تلتصق به وهو يدفعها عنه بقوة ولكنها كانت تعاود الكرة . . فغضب ودفعها بعيدا . . وأغلق عليه الباب بالمفتاح . . .

وفى الصباح نهض قبل أن أصحو وذهب . . .

***

ولم يأت إلى بيت مدام مارينا بعد هذه الليلة . . وقال لى معللا انقطاعه بأن بور توفيق هادئة . . أكثر من اللازم ولا تجعله يحس بالحياة فى الليل . . ويجب أن نغيرها . . فاخترنا مكانا آخر نمضى فيه السهرة . . وسألتنى المدام ذات مرة :

ـ لماذا لا يأتى صاحبك الأعرج . . . ؟

ـ إنه يتعب من المشوار . . .

ـ ما الذى يعجبك فيه حتى تصاحبه . . ألم تلاحظ مشيته . . وهندامه وشكله القبيح . . .

ـ ولكن النساء تحبه رغم هذا . . .

ـ إن هذا أعجب شىء سمعته . . . لابد أن تكن عاهرات . . .

ـ وإذا لم تكن عاهرة . . .

ـ تكون مخبولة . . فإن أى امرأة بعقلها تبصق على وجهه إذا اقترب منها . . .

وكنت أعرف أنه جرح كبرياءها فى الصميم فلم أعجب وأنا أسمع منها هذا الكلام . . .

وكنت أذهب إلى بيت أمين بعد الظهر . . إذا ما كانت لى حاجة فى السويس . . أو مررت على البنك . .

وذات مساء فتح شراعة الباب ولم تكن هذه عادته . . ولما رآنى ظهر على وجهه الاضطراب رغم أن وجهه كان لا يعبر عن انفعاله . وكان من عادتى أن أدخل توا إلى غرفته .

ولكنه ابتدرنى بقوله وهو يشير إلى غرفة الجلوس . . .

ـ أقعد هنا يا مراد . . . الأودة ملخبطة . . وفيها بق . . الحمار ما جاش ينضف . . حالبس حالا . .

ومضت دقيقة وسمعت همسا وصوت أنثى ولغة أجنبية لاأعرفها . . ثم ظل امرأة فى الصالة وخرجت بخفة . . ولما أصبحت فى الطريق . . نهضت ونظرت من النافذة . . فوجدتها كبرى الأختين الأرستقراطيتين اللتين كانتا تتنزهان أمامنا فى طريق الزيتية ولا يجرؤ إنسان على الاقتراب منهما .... .

***

وحدث عصر يوم من أيام الخريف أن جاء شاهين إلى البيت وهو مضطرب . . . وطلب من مارينا أن توقظنى من النوم . . وأخبرنى وهو يبكى . . أن أمين سقط وهو يركب القطار وهو يتحرك . . فى محطة بور توفيق . .

***

وعندما نقلناه إلى المستشفى . . كان أشق الأشياء على نفسه أن يراه محمولا على عربة ذات عجلات . .

وقرر الطبيب إجراء عملية جراحية له . . ولكنه انتهى بعد نصف الليل قبل أن تجرى العملية . . . ولما عدت إلى البيت . . كانت مارينا لاتزال ساهرة وفى عينيها بقايا من دمع . .

ذراع البحـــار

ركبت «الأقمـار السبعة» وأنـا مسافـر إلى استانبـول وهى سفينـة كبيـرة من سفن البضاعة . . تحولت بعد أن نشطت السياحة فى هذا الخط إلى سفينة ركاب . . وكـانت طويلة وضخمة وتدار بالفحم . . ولم أكن قبل سفرها بساعات قد استطعت أن أحجز فيها مكانا . . إذ كانت الرحلة الأولى لها بعد الحرب مباشرة . . والإقبال على السفر إلى الخارج كان شديدا .

ولكن حدث فى آخر لحظة وأنا خارج من مكتب شركة الملاحة بالإسكندرية غاضبا ويائسا أن التقى بى أحد العمال فى المكتب وقال لى إنه يستطيع أن يجد لى «قمرة» أنيقة فى «الأقمار» بأقل من ثمن «تذكرة» الدرجة الثانية وما على إلا أن أقطع تذكرة على الدك . وقطعت تذكرة «الدك» وعندما صعدت إلى السفينة . قدمنى الرجل إلى بحار فيها يدعى «برتو» . . وأنزلنى برتو بعد أن أقلعت السفينة إلى جوفها ليرينى «القمرة»

وكانت فى القاع وقريبة من آلات السفينة ومحركاتها وموقد النار فيها ولكنها رغم هذا كانت «قمرة» نظيفة بسرير صغير ودولاب . . وفيها كل ما يحتاج إليه المسافر . . وكان بابها الصغير يفتح على هبو النار فى الفرن . . ولكن هذا لم يصرفنى عنها . . لأنها خير من النوم على الدك والتعرض لبرد الليل وكنت أقدر أننى سأقضى فيها الساعات الأخيرة من الليل فقط . . ولكن عندما أخرجت ملابسى من الحقيبة وسويت أمورى فى «القمرة» وجلست فى «الهول» الذى أمامها إلى مائدة مستديرة أعدت للعمال والبحارة وطلبت من عاملة البوفيه الشاى . . سحرنى المكان بجوه الغريب وما فيه من وجوه جديدة . . فأصبحت لا أبرحه ولا أصعد إلى سطح السفينة إلا قليلا . .

***

وكنت أجلس مع البحارة والفتيات العاملات فى السفينة . مع الوقادين والعطشجية ومهندسى الآلات . . ومع بعض ركاب الدرجة الرابعة الذين يختارون هذا البوفيه لرخص

أسعاره . . نأكل ونضحك ونغنى ونتحدث بكل لغات الأرض . . . ولم يسألنى واحد ممن حولى عن جنسيتى . . فكلنا بشر . . وكان فى السفينة بحارة من كل الأجناس وركاب من كل بقاع الأرض وكنا نجتمع فى هذا المكان الدائرى فى القاع والأمواج تلطم السفينة وتلاعبها . . ونحن فى صفاء ومودة . . وقد نسينا كل الخلافات التى يثيرها رجال الحروب وكل المنازعات التى تقع على الأرض . . وكل المشاكل عن الجنس واللون والقارة . . كنا ننسى كل هذا ونعيش فى هذه الألفة مجتمعين . . وكلنا جنس واحد من خلق الله . . كلنا بشر . .

وكنا نتناول العشاء على هذه المائدة الكبيرة نأكل المكرونة . . واللحوم المحفوظة . . والأسماك ونشرب الجعة ونتشارك فى الطعام والشراب . . ونستمع الى صوت المندلين من أحد البحارة . . وكانت نار الفرن الكبيرة تشتعل عن قرب منا . . وعندما يفتح العامل الباب ويغذيها بمجراف الفحم . . كان الضوء الأحمر يسقط على الوجوه فينيرها . . وتبدو اللحى الكثة والخفيفة والعيون الزرقاء . . والخضراء . . والقمصان المقطوعة . . والملوثة بالفحم والزيت . . . وعندما يغلق باب الفرن تعود الظلمة التى تريح الأعصاب . . وعلى ضوء المصابيح الخافتة كنا نجلس إلى ساعة متأخرة من الليل . . بعضنا يغنى . . وبعضنا يتخذ من المكان الفسيح أمام البوفيه مرقصا . . فيسحب فتاة ويرقص . . على أنغام الجرامافون . . أو الراديو . . أو المندلين . .

وكان بعض الرجال فى السفينة يغازلون النساء بالقول والعمل . . وقد ينقلب الغزل الى معركة بالأيدى . . ولكنها تنتهى سريعا بالضحك الطويل .

وكانت تنظف لى قمرتى فتاة تدعى هيلينا . . وكانت قبيحة وتبدو كلها عضلات كلاعبة الباسكيت بول . . كما يأتى رجل آخر فى الساعة الثامنة من كل صباح ويغسل أرض القمرة بالفرشاة والصابون . .

وكان هذا كله من ترتيب «برتو» وعمله . . . لأنه كان يسألنى كلما وجدنى على السطح إن كنت مستريحا . .

وعندما يأتى العامل ليغسل القمرة فى الصباح . . كنت أترك له كل شىء وأذهب الى حمام كبير فى الطابق الثانى لأحلق ذقنى وأقوم ببعض التمرينات الرياضية وأستحم . وعندما أعود يكون الرجل قد فرغ من عمله أو فرغت هيلينا من عملها كذلك وحملت إلى طعام الإفطار .

وكان الرجل الذى يغسل القمرة . . . يرتدى ملابس البحارة . . وكنت أراه يعمل كل الأشياء . . وكان غير حليق . . ولكنه يبدو شابا من نظرة عينيه وقوة عضلاته . . ويبدو أن زملاءه البحارة استغلوا هذا وحملوه ما لايطاق من العمل .

فكنت أراه يغسل جوف السفينة ويمسحها بالفرشاة والصابون . . ويشترك مع طابور البحارة الصباحى الذى يغسل ظهر السفينة وقمراتها قبل أن يصحو أى راكب . . وينقل الفحم . . ويحمل الأكياس والصناديق . . ويقوم بكل ما يطلب منه . . وكنت أحييه كلما جاء فى الصباح إلى القمرة بهزة من رأسى دون كلام . . لأننى كنت أتصور أنه لا يعرف الإنجليزية أو الفرنسية فلما علمت أنه يعرف قليلا من الفرنسية أخذت أحادثه واستراح الرجل إلى وأنس بى . . لأنه كان يعامل من البحارة بخشونة وقسوة وأصبحت أثق فيه ثقة مطلقة وأترك له النقود . . والساعة الذهبية والولاعة فى الغرفة . . وأذهب لأخذ حمام الصباح .

***

وعلمت منه أن له سبع سنوات لم يضع قدمه فى خلالها على الأرض . . وأنه ركب كثيرا من السفن من كل الجنسيات والأنواع . . وحاول النزول إلى البر فى كل الموانى . . ولكنه كان يرد خائبا . . ويعاد إلى نفس السفينة . .

وسألته :

ـ لماذا

ـ لأنى لا أحمل أوراقا . . . ولا أعرف جنسيتى . . . !!

ـ مواطن عالمى . . !!

ـ كلها أرض الله . . .

ـ وأين ضاعت أوراقك . . ؟

ـ تطوعت فى الحرب الأخيرة . . . وأصبت فى الجبهة . . وخرجت من المستشفى . . وأنا لا أعرف من أين جئت . . وماذا حدث . . نسيت كل شىء . . حتى اسمى .

وكان يقول هذا وهو يبتسم فى مرارة وسألنى :

ـ وأنت تركى . . ؟؟

ـ لا . . . إننى مصرى . .

ـ وجواز سفرك مع القطبان . . . ؟

ـ بالطبع أخذه أول ما وضعت قدمى فى السفينة . . .

ـ بغير هذا الجواز لا تستطيع أن تتحرك شبرا فى أوروبا . .

ـ أعرف ذلك

ـ ورقة صغيرة . . ولكنها تساوى كثيرا . . .

ـ هل حاولت النزول إلى البر فى الإسكندرية وأخفقت ؟؟ .

ـ لا . . لم أحاول ذلك . . ماذا يفيدنى الشرق . . وأى شىء أعمل فيه . . . إننى أريد أن تعود إلى ذاكرتى وأعود إلى وطنى . . أريد أن أقبل أرض بلادى .

ـ وهل نزلت فى مرسيليا . . أو جنوا . . ؟

ـ حاولت مرارا . . ولكن بعد عشر دقائق يعثر عليك البوليس بسهولة ويعيدك إلى نفس السفينة .

وأشعل سيجارة . . ونفض رمادها . . وقال :

ـ إن قبطان هذه السفينة هو الانسان الوحيد الذى عطف على . . نظر إلى نظرة إنسان . . وأبقانى فى سفينته أربع سنوات . . لم يطردنى أو يلقنى فى البحر وسمانى «مكسيم . . . » فنادنى بمكسيم منذ الآن .

وتصورت حال مكسيم . . وقد ترك زوجته وأطفاله . . ووطنه وأصبح ضائعا . وأسفت للمعاملة القاسية التى يلاقيها من البحارة . . ولم أكن أدرى أين ينام فقد كنت أراه يدخل كل القمرات وينظفها . . ويبيع أمواس الحلاقة والصابون والكولونيا . . وكل ما يحتاج إليه المسافر . . ولكنه مع هذا لم يكن يصعد إلى الظهر إلا قليلا . .

***

وكان يعاون الفتيات العاملات فى غسل الأطباق والأوانى وكى المفارش والملايات وأراهن حوله فى العمل وأنا ذاهب وراجع . . ولكنه كان يبدو معهن صارما وخشنا كأنه لا يشتهى النساء بصفة عامة . . أو كأنه تركهن إلى الأبد بعد كل الذى حل به من نكبات . .

***

ولكن حدث ذات مساء ونحن نستمع إلى الجرامافون . . وقد بقى خمسة أو ستة من الركاب حول الحلبة الصغيرة . . المعدة للرقص . . أن نهضت فتاة وأخذت ترقص . . فقال لى أحد الجالسين :

ـ قم لترقص معها . . .

ـ انى لا أعرف الرقص . . .

ـ هذا غريب من شاب . . ولكن على أى حال قم وعانقها . . .

ـ ولا هذا . . .

ـ ألا تشتهى النساء . . ؟

ـ أشتهيهن أكثر من أى شىء فى الحياة . . ولكننى لا أفعل هذا !!

قم أنت . .

ـ إننى أحب أن أفرغ من كأسى أولا . .

وفى أثناء غفلة الحديث . . وجدنا الفتاة فى أحضان رجل . . يدور بها فى الحلبة كأبرع راقص على الأرض . . وكان هذا الرجل هو مكسيم . . وقبل أن تكف الموسيقى رأينا سحنة مكسيم تتغير وتتقلص عضلات وجهه . . ثم ترك الفتاة فجأة واختفى .

وكانت هناك حفلة سيمفونية تذاع فى الراديو «ليلة الأحد» فصعدت إلى الدور الثانى وجلست بجانب الراديو لأسمعها . . وسهرت إلى الساعة الثانية صباحا ولما نزلت وجدت مكسيم يخرج متسللا كاللص من قمرة . . فى الجناح الخاص بالسيدات . . وعرفت رقم القمرة . . وفى الصباح أحببت أن أشاهد وجه هذه المرأة . . فرأيتها . . وكانت صبية . . وبيضاء ملفوفة . . وشاهدت شيئا كموضع أسنان فى نحرها . . .

***

وحدث فى صباح يوم وأنا راجع من الحمام . . وكانت السفينة قد بارحت ميناء بيريه بعد أن ظلت راسية فيها يومين . . أن تفقدت علبة سجائرى الذهبية فلم أجدها . . فسألت عنها هيلينا . . فقالت بصوت هادىء :

ـ لقد سرقها «مكسيم» انه لص . . اصعد وقل لبرتو فى الحال وإلا ضاعت العلبة . .

ولم أشأ أن أفعل هذا لأنى لا أحب أن ألقى التهم دون دليل . ولاتزال ثقتى فى مكسيم لم تتزعزع . . ومن السهل أن يمر أى إنسان ويرى العلبة من باب القمرة المفتوح وتعجبه . . فيلتقطها ويضعها فى جيبه . . من السهل أن يحدث هذا و لا داعى لاتهام مكسيم . ولكن الظاهر أن هيلينا حدثت برتو عن سرقة العلبة . . لأنه نزل فى المساء ونحن جلوس حول المائدة . . وقال يخاطب البحارة

ـ إن علبة السيد المصرى الذى يقيم معكم قد سرقت . . وسارقها واحد منكم وإن لم تظهر فى الحال ستعرفون ما أفعله . .

ورأيت الجميع ينظرون إلى مكسيم . . كأنه الشخص الوحيد الذى يمكن أن يسرق

وظهر الغضب على وجهه . . . ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا وسط هذا الإجماع فتندت عيناه بالدموع . . .

وقلت لبرتو . . وقد تأثرت لحال الرجل :

ـ إن العلبة لاتساوى هذه الضجة . . وقد أكون تركتها أمس على إحدى الموائد فى الطابق الثانى . . لأنى قضيت جانبا من الليل هناك .

فهز برتو رأسه . . .

وهنا صاحت هيلينا : ـ أتحبون أن تعرفوا أين العلبة . . . ؟

وتقدمت وأخرجتها من سترة مكسيم . . . المعلقة على مشجب فوق رأسه وأرتها للجميع . . وتقدم برتو ولكم مكسيم لكمة قوية طرحته أرضا . .

وكان مكسيم من القوة بحيث يضرب عشرة مثل برتو . . ولكنه لم يفعل شيئا . . . وانسحب من المكان . . .

***

وفى الصباح التالى لم يأت لتنظيف «القمرة» كعادته ولما قابلته ظهر الاضطراب على وجهه . . فأفهمته أننى لا يمكن أن أتهمه بالسرقة وليعد إلى تنظيف القمرة . .

ـ هل تعرف أن العلبة وضعت فى جيبى . . . ؟

ـ طبعا . . وأنا لا أشك فى أمانتك . .

ـ شكرا . . ولكننى لا أحب أن أثير مشاكل . .

ـ ولماذا المشاكل . . ؟

ـ من السهل عليهم أن يلقونى فى البحر . . فأنا رجل ضائع ولا أعرف لى دولة تحمينى منهم . . لقد نظروا إلى جميعا كأننى الانسان الوحيد الذى يمكن أن يسرق . . وما ظنوا بى الظنون الا لأنى ضعيف . . ومسكين . . وأعمل معهم من غير أجر لآكل وأعيش إننى آكل من فضلات طعامهم . . لقد أذلونى ومرغوا إنسانيتى . . فى الأوحال لأنهم يعرفون أننى مضطر . . إنهم يأووننى . .

ولكن لن أقبل هذا الذل . سأنتحر . وأخيرا تأتى هيلينا وتسرق العلبة وتضعها فى جيبى . .

ـ ولماذا تفعل هذا . . ؟

ـ لأنى لا أبيع جسدى لهذه القبيحة . . لا أحد يفكر فيها كأنثى . . !

***

ووقفت ذات يوم فى مقدمة السفينة أرقب قرص الشمس وهو يغيب فى جوف البحر وقد سحرنى المنظر عن كل ما حولى . . ولما غابت الشمس وتلفت وجدت مكسيم يحمل كرسيا طويلا ووراءه سيدة . . .

ووضع الكرسى بجانبى وجلست السيدة . . وكانت شقراء . . وجاوزت سن الصبايا ولكنها كانت عارية الذراعين والصدر . . وتتزين زينة بنت العشرين .

وانسحب مكسيم بعد أن ألقى إلى بالتحية . . وعاد بعد قليل يحمل لها وشاحا من حجرتها وضعته على كتفيها وشكرته . . ثم قالت له وقد وضعت فى فمها سيجارة :

ـ أطلب لى ثقابا من هذا السيد . .

وأشارت إلى . .

فتقدمت وأشعلت لها السيجارة بولاعتى . . وانصرف مكسيم . . وتلفتت إلى وقالت بالإنجليزية . . :

ـ مسكين . . . !!

ـ من . . ؟؟

ـ ذلك الجنتلمان . . .

وأشارت اليه وهو يمضى . .

ـ وهل قص عليك قصته . . . ؟

ـ نعم . . وإنها محزنة . . وإنه لرجل تعيس . .

فأدركت أنه يحكى قصته لكل من يلتقى به من الركاب . . .

وسألتنى الأمريكية . . وكانت لا تزال ممسكة بالسيجارة . . وبدا لى من عينيها أنها خارجة فى التو من البار . . .

ـ هل اقتربنا من البسفور . . ؟؟

ـ بقيت ليلة . . .

ـ هل سافرت فى هذا الخط من قبل . . . ؟؟

ـ أكثر من مرة . .

ـ وركبت مثل هذه السفينة . . !!؟؟

ـ لا . . لم أركب مثلها . . ويظهر أنها الرحلة الأخيرة . . لها فى البحر الأبيض . . لأنها ذاهبة بعد ذلك إلى المحيط . . .

ـ ومن الذى أخبرك بهذا . . . ؟؟

ـ مكسيم . . .

ـ ألا تجلس . . ؟

وسحبت كرسيا . . .

ـ سائح . . . ؟؟

ـ نعم . . .

ـ دون رفيق . . ؟

ـ قد أعثر عليه فى الطريق . . .

ـ ألم تعثر عليه بعد . . ؟؟

وأسبلت عينيها . . فلم أجب . . ورأيت أن أغير مجرى الحديث فسألتها :
- أذاهبة إلى البسفور . . ؟؟
- أجل . . وسأركب إكسبريس الشرق من استانبول . .
- وحدك . . ؟
- وحدى وقد أعثر على الرفيق فى الطريق . .
وضحكت وبدت أسنانها . .
- ما اسمك . . ؟
- رشاد . .
- تركى أو بلغارى . . ؟
- مصرى . .
- إن إسمى جوان . . ألا تشرب . . ويسكى . . ؟
- أنا الذى سأطلب الشراب . .
- كما تحب . . .

- ولكن فى البار . .
- إذن فلنبق هنا قليلا . . فما أجمل البحر . . فى هذه الساعة .
- إننى لم أره وأر جماله إلا فى هذه الليلة . .
- وأين كنت من قبل ؟ إنه جميل كل ليلة .
- كنت فى القاع . .

وصفت لها القمرة وكيف أخذتها . . فضحكت . . وقالت :
- كنت أتصورك من نزلاء الكباين اللوكس . . ؟؟
- الحياة دائما تخدعنا . .
- ولكنك جنتلمان رغم كل شىء ورغم فقرك . . وأنا أحب صوتك فقط وليس القمرة . . . وليس شيئا آخر . .
- لست مغنيا . .

- لم تفهمنى . . أحب صوتك لأن فيه خشونة آسرة وهذا خير من أن أقول لك إننى أحب قامتك الطويلة أو رباط رقبتك . . وأنت ماذا تحب فى . . ؟

- كل شىء . . . شعرك . . ولون عينيك . . ولون شفتيك . .
- إنه الروج . .
- أحب ما تحت الروج . .
- متزوج . . ؟

وبلعت ريقى . .

ونظرت إلى طويلا . . ثم أرخت أهدابها وقالت :

- لا داعى لهذا السؤال . . ! هل رأيتنى وأنا قادمة إلى ناحيتك الآن . . هل رأيتنى من قبل كما رأيتك . .

- أجل . . .
- وكنت ستحادثنى . . ؟
- بالطبع . .
- وكيف تبدأ الحديث . . .
- سأخلق أى سبب . .
- وإذا لم تجد . . ؟
- أطلب سيجارة .
وضحكت . . .

- هذا لا يحدث من رجل لامرأة على الإطلاق . . سأعطيك الآن هذه السيجارة . . وأشعلها لك . .

وجلست معها حتى الساعة العاشرة ليلا . . وأنزلتها إلى قمرتها فى الدور الثالث . . ووقفت على بابها . . فدعتنى إلى الدخول فاعتذرت لها بأننى متعب . . !! وأود أن أنام . . !!

ولمحت هى مكسيم . . يحمل صينية فى الممر . . فصاحت فيه :

- أطلب لى العشاء يا مكسيم . . وتعال أنت . . !!

وفى ظهر اليوم التالى بدأنا ندخل الحدود التركية . . . فتمهلت السفينة فى سيرها وأقبل زورق يحمل رجال البوليس التركى وصعدوا إلى السفينة وأخذوا يتنقلون بين الركاب . . وجلس رئيسهم بجانب القبطان فى الصالون . . يقلب فى الجوازات . . وكانت المسافة إلى استامبول لا تزال بعيدة . . فاختلطوا بالركاب وأخذوا يحادثونهم . . وصعد بعضهم إلى البرج . . وجلس يستريح . .

***

وبلغنا استامبول . . وألقت السفينة مراسيها . . وتجمع الركاب على الظهر لينزلوا إلى المدينة . . وكنت آخر من نزل من الركاب . . ولكن كان ورائى شخص آخر ينزل على السقالة . . وقد أحاطت به فصيلة من الجند وكان وجهه صامتا أخرس وعندما نزلنا إلى الرصيف . . مر أمامى وتلفت إلى . . وظل صامتا لقد كان مكسيم . . . وسمعت من يقول :

- إنه سفاح . . سفاح نساء . . بدأ يقتل زوجته . .
- لا إنه جاسوس . .
- سفاح . . عاد من الحرب فوجد زوجته فى أحضان رجل آخر فقتلها . . وهرب .

ولكن السيدة الأمريكية لم تكن تسمع شيئا مما يقال . . وكانت تنظر إلى الرجل المطوق بالجند وتقول بالإنجليزية :

«وحوش . . !!» .

ولم أكن أعرف الحقيقة . . ولكن الرجل على أى حال هبط إلى الأرض كما كان يتمنى . . ولا أدرى أبدأ شقاؤه فى هذه الساعة أم انتهى . . ومهما يكن أمره فهو على أى حال لم يكن مواطنا عالميا كما وصف نفسه . . .

التقيت بنادية لأول مرة فى الأسبوع الأخير من أكتوبر . . وكانت تقف حائرة فى صالة بنك من بنوك المال بالقاهرة وتنظر فى استرحام إلى الوجوه التى حولها عسى أن تجد من ينقذها . . فقد رفض الصراف أن يصرف لها صكا تحمله قبل أن يتحقق من شخصيتها .

ورأيتها وهى تجول نصف جولة فى صالة البنك . . ثم ترجع إلى الشباك وتقول . . بصوت يغلب عليه التأثر :

- إنى لا أعرف أحدا هنا . .

- وأنا لا أستطيع أن أصرف لك الشيك . . آسف . .

وتركها الرجل وعاد إلى عمله . .

وأشفقت على السيدة فقد رأيت عينيها مخضلتين بالدمع وتقدمت من الشباك وأنا أقول :

- أنا أعرف السيدة . . . إنها تسكن معى فى نفس الشارع . .

وقدمت جواز سفرى . .

فتناوله الرجل منى دون أن ينبس . . .

وناول نادية النمرة فى الحال وابتعدت . . ولكنى لم أبرح البنك . . جلست على كرسى فى البهو لا يبعد عن المكان لأننى كنت أود أن أؤكد للرجل بصورة لا تحمل الشك أن الحركة ليست مسرحية . . وأنه لا دخل للعواطف فى الموضوع . . كما كنت أود أن أطمئن عليها حتى يصرف المبلغ . . وأخرجت من جيبى دفترا . . وأخذت أدون فيه شيئا كأننى أراجع عملية حسابية . . حتى رأيت السيدة تضع الجنيهات فى يدها . . وقبل أن تجتاز السلم الرخامى رأيتها تتلفت كأنها تبحث عنى . . فلما لم تجدنى خرجت مسرعة . . .

وفى الساعة التى اختفت فيها عن نظرى . . أدركت أننى تهورت . . وأن عملى يدل على حماقة بالغة فمن الجنون أن أضع اسمى بجانب سيدة لا أعرفها . . ومن المحتمل أن يكون الشيك مزورا أو مسروقا وحتى وإن كان من زوجها . . فإن المسألة لا تخلو من المتاعب . . ثم تذكرت أنها كانت تلبس ثوب الحداد . . . فاحتمال أن تكون أرملة أقرب إلى العقل . . وأنها جاءت لتصرف معاشا أو مكافأة عن زوجها الراحل . .

وقد خفف هذا الخاطر من حدة القلق . . ولكنه لم يبعده كلية . .

ورأيت أن أستعيد صورتها كاملة جملة وتفصيلا . . حتى أجعلها ترسخ فى مخيلتى . . . إذ ربما أحتاج إليها يوما ما . . . !!

كانت ترتدى فستانا أسود . . طويل الأكمام . . وكان وجهها أبيض جميل التقاطيع . . وعيناها فى لون شفتيها . . وبسمتها خفيفة . .

وكان رأسها عاريا وشعرها أسود يغطى قرطها . .

وكانت مشيتها سريعة . . وحذاؤ ها أسمر . . وجوربها يغطى مفاتن الساق . .

وكانت سنها لا تتجاوز السابعة أو الثامنة والعشرين وصحتها بوجه عام جيدة . . ومن مميزاتها «حسنة» فى حجم العدسة على الخد الأيمن . . وضمة فى الزاوية اليسرى من الجفن . .

وابتسمت وأنا أستعيد كل هذه التفاصيل . . كأنى أقف أمام المحقق لأروى كل ما حدث .

***

ومر الشهر الباقى من الخريف وشهور الشتاء . . وبدأنا ندخل فى الصيف . . وفى صباح يوم تلقيت حوالة بريدية باسمى من ابن خالى بهجت فى بنى مزار لأصرفها وأعطى قيمتها لابنه إبراهيم . . لأنه يريد أن يشترى كتبا للامتحان . . وكان ابنه فى كلية الهندسة ويسكن فى المنيرة . . فلما ذهبت إلى بيته علمت أنه انتقل إلى الروضة . . ولعنته لأنه انتقل دون أن يخبرنى ولأنه دائما يسبب لى المتاعب هو ووالده . . كنت لا أحب هذا المشوار . . لأن المواصلات كانت فى غاية السوء .

ولكن مجرد ذكر الامتحان والكتب جعلانى أسرع إلى هناك .

وعرفت البيت بمشقة وبعد بحث طويل . . وكان البيت فى نهاية الشارع وفى جهة ساكنة كأنها خالية من السكان . . وسألت «مكوجيا» عن إبراهيم فعلمت أنه يقيم فى شقة صغيرة فى الدور الأرضى من المنزل .

ونقرت على الباب أكثر من ثلاث دقات فلم يرد على أحد وأخيرا نزلت إلى خادمة عجوز من الدور العلوى . . وقالت :

- الافندى خرج . .
- راح فين . . ؟

وسمعت صوتا آخر . . صوتا ذكرنى بشىء قديم . . .

- بيذاكر بره . .

ورفعت رأسى فرأيت وجها أبيض كنجمة الصبح يتكىء على الدرابزين . . ونظرت إليها . . ورأيت الحسنة على الخد . . والضمة فى الجفن وعرفتها . . وكانت قد رأتنى وعرفتنى من اللحظة التى وقفت فيها أنقر على الباب وأرجع إلى الوراءوأتلفت . باحثا عن إبراهيم . .

ولم أرفع بصرى إليها هذه المرة وهى متكئة على الدرابزين فقد رأيت الساق من غير جورب عارية ومسترخية . .

وقالت ضاحكة :

- داحنا ساكنين صحيح فى نفس الشارع وأنا مش عارفة . .

وضحكت وعجبت لتصاريف الأقدار ودعتنى لأستريح حتى يعود إبراهيم فاعتذرت لكثرة مشاغلى . . وتركت لها المبلغ الذى أرسله والده . .

ولم أركب الترام ولا الأتوبيس فى العودة . . مشيت على البحر . .

وكان من عادتى أن أزور إبراهيم بعد الامتحان . . لأطمئن على النتيجة . . وأكتب لوالده ولكننى زرته قبل أن يمتحن لأعرف أحواله ولأرى نادية . .

وأعرف بعض الشىء عنها بطريق غير مباشر من حديثى فى مختلف الشئون مع إبراهيم . . وعلمت أنها أرسلت له النقود مع خادمتها زكية . . وأنه لم يرها سوى مرة واحدة وهى نازلة على السلم . . ولم يواجهها أو يحادثها قط . . .

ومن زياراتى الأخرى علمت أنها أرملة . . وتوفى زوجها منذ سنتين فى هذا المنزل وأنها تعيش من معاش ضئيل . .

ولم أجد سببا معقولا لكل هذا الفضول . . فإن مجرد وضع اسمى على صك باسمها لا يعنى أن أطلق وراءها العيون . . ولكن تحدث أشياء كثيرة فى الحياة يعجز المرء عن تفسيرها . .

وكنت فى ذلك الوقت أسكن فى العباسية الشرقية وأعيش مع زوجتى وأولادى . . عيشة رضية . . .

ولم أكن أشكو من فراغ فى البيت أو قلق فى العمل . .

وكانت عواطفى مشحونة بالحب لزوجتى وأولادى . . وليس هناك من ثغرة لإنسان آخر . . ومع هذا وجدت نفسى أدور حول الصك وصاحبته . . .

وكان من عادة إبراهيم أن «يخزن» العفش مع رفاقه من الطلبة فى غرفة رخيصة يؤجرونها معا . . خلال العطلة الدراسية . . اقتصادا فى المصاريف . .

فلما ذهبت إليه لأسوى أموره مع صاحب البيت . . قابلتنى نادية . . ولما علمت بالعزال أظهرت رغبتها فى أن تأخذ عفش إبراهيم عندها لأن شقتها واسعة وستعفيه من أية مصاريف . . فشكرتها . وتحت إلحاحها قبلت وفى نيتى أن نرد لها هذا الصنيع بهدية يحملها لها إبراهيم عند عودته من البلد . .

وأخذت زكية وإبراهيم ومعهما حمال . . ينقلون العفش إلى فوق .

وجلست مع نادية فى مدخل شقتها نتحدث وننتظر العفش . .

وكانت هذه أول مرة يرى فيها إبراهيم نادية مواجهة . . ويدخل عتبة بيتها . . فلما قالت له ضاحكة :

إيه . . كله . . دا . . يعنى دا عفش عروسة . . مش عفش تلامذه . . !!

ارتبك وظهر على وجهه الخجل . . والواقع أن ابن خالى بهجت . .

كان يحب ابنه إبراهيم ويدلله ويأتى له بأكثر مما يحتاج إليه . . وزاد عطفه عليه بعد وفاة والدته . .

وبعد أن فرغ إبراهيم من نقل حاجاته . . وجلس بجانبى . . يشرب عصير الليمون كان فرحا . . لأنه سيظل فى البيت الهادىء الذى اختاره بنفسه . . وزاد فرحة لما قالت له نادية :

- إن شاء الله لما ترجع فى أكتوبر . . ستجد شقتك محجوزة لك . . واللى حيسأل عنها حنقوله سكنت . . !!

ونظر إليها مسرورا . . وسلمنا عليها وخرجنا . . وسافر إبراهيم فى مساء اليوم نفسه إلى البلد . . ولم أجد مبررا للذهاب إلى بيت نادية فى غياب إبراهيم . . فانقطعت عن الزيارة . .

وعاد إبراهيم ومعه والده فى أوائل أكتوبر ليدفع له المصاريف ويشترى حاجاته . . ، ووجد إبراهيم شقته خالية . . فأنزل عفشه فيها كما كان . . وكان من عادة بهجت . . كلما جاء إلى القاهرة أن ينزل فى بيتى . . .

ولكنه فى هذه المرة نام فى بيتى ليلة واحدة . . وفى الليلة التالية . . لم يأت . . وأصبح ينام مع إبنه إبراهيم . . .

وكنت أعلل ذلك بقرب البيت من كلية إبنه خصوصاً وأنه سيدفع له المصاريف بنفسه ، ويقربه من ملاهى الجيزة . . التى يحب بهجت أن يقضى لياليه فيها . .

ولكن جاءنى بعد أسبوعين وعرفت منه السبب الحقيقى . . جاء يستشيرنى ليتزوج نادية . فقلت له :

- عرضت عليها الموضوع . . .
- أبداً . . أنا شفتها مرتين عرضاً . . وكلمتها مرة . . عاوزك انت اللى تتكلم . . .

وأحسست من مجرد سماعى هذه الكلمات بالألم . . أحسست كأننى كنت أحتجز نادية لنفسى فلما تقدم هذا الرجل إليها قبلى تركتها له . . . أحسست بهذا الإحساس أنا الرجل المتزوج ذو الأولاد . . ولم أستطع حتى أن أخفى انفعالى عن وجهى . . .

ولكن بهجت الرجل الريفى لم يلاحظ انفعالى . .

وأخذت أزنه كرجل يتقدم إلى سيدة من عشيرتى . . فإن نادية كانت قد امتزجت بدمى دون أن أمهد لذلك بشىء من عواطفى أو أن أتقدم من جانبى بخطوة !! . . شىء حدث فى الخفاء ولم أحس به . . .

أخذت أزنه . . كرجل يتقدم لامرأة أعطف عليها العطف كله . . فهو رجل أرمل فى الخامسة والأربعين ماتت زوجته الأولى من أربع سنوات . . ولم يخلف منها سوى إبراهيم وهو فى السابعة عشرة من عمره . . وغداً سيتخرج . . ويصبح رجلاً وتنقطع علاقته بأبيه . . وبهجت رجل ميسور . . وهو لا يقامر . . وبعد وفاة زوجته . . كان يسهر فى بعض الملاهى ويشرب قليلاً من الخمر . . ولكنه سيقلع عن هذه الآفة بعد الزواج . . .

ووجدت نفسى أتقدم إلى نادية وأعرض رغبة بهجت بكياسة وهدوء . . .

فنظرت إلى طويلاً :

- إنى سعيدة . . بحياتى هكذا ولم أفكر فى الزواج . . .

فلما قلت لها إنه رجل ميسور وليس معه أولاد خلاف ابنه . . إبراهيم قالت بانفعال :
- هو أنا بقرة علشان يشترينى . .
فتركتها . . .

ولكننى عاودت معها الحديث فى الموضوع فى الزيارة التالية . . . بعد أن رأيت رغبة بهجت الشديدة فى هذا الزواج . .

فقالت بغضب :
- هو انت خاطبة ياصادق أفندى ؟ ماتجوز نفسك الأول . . . بلعت ريقى . . .

فقد خاطبتنى بكلفة وغضب . . . وكنت أود أن أهمس وأقول :

- إننى متزوج . . .

ولكننى لم أنطق . . وأدركت من هذا . . أنها لم تسأل إبراهيم عنى . . وربما لا تقابله قط فى غيابى . . وقد عللت ذلك بخجل الغلام الشديد . . ولأنها أرملة محافظة تحب أن تحافظ على سمعتها . . .

وأقسمت ألا أفاتحها فى هذه المسألة مرة أخرى . . . ولكن بهجت لم ييأس . . بقى فى القاهرة . . مقيماً فى شقة إبنه . . ثم سافر إلى بنى مزار على أن يعود بعد أن ينجز أعماله هناك . . .

وظل يتردد بين القاهرة . . وبنى مزار . . .

ومرت شهور واقتربنا مرة أخرى من الصيف . . ومن الامتحان . . واعتكف إبراهيم ليذاكر .

وطلبنى والده عصر يوم فى التليفون . . وسمعته يقول :
- عاوزك ضرورى . .
- إذا كان علشان المسألة إياها . . أنا متكلمش فيها تانى أبداً . .
- أبداً . . علشان إبراهيم . . عاوزين نوديه للدكتور عبد العزيز إسماعيل صاحبك . . الواد تعبان . .
- دا من المذاكرة . . سيبه ما تشغلش نفسك . . .
- إعمل معروف تعال . .

وكنا فى بداية الصيف . . فأخذت معى ابنتى سعاد . . لأجلس بها ساعة على النيل . . وفى شارع الإخشيد . . . رأيت نادية مقبلة من بعيد . . . وحيدة كما أراها دائماً . .

ولما اقتربت . . رأت الشيء الصغير الذى يتوثب بجانبى ليلاحق خطوى . . وحدقت ثم سدرت . . ثم ارتعش فمها . .

كان الشبه كبيراً وواضحاً بينى وبين ابنتى . . ولم يدع مجالاً للشك والسؤال . . .

ورأيت نادية تدور بها الأرض كأنها تهوى . . فارتعش بدنى . . ولكنها أتت بحركة بارعة أنقذت بها نفسها . . من السقوط . . فجلست إلى الأرض وضمت الصغيرة إلى صدرها وأطلقت عليها كل عواطفها المكبوتة . . أخذت تغمرها بالقبلات الممزوجة بالدموع . .

وتضحك وتغمغم . . .

- أبوكى وحش . . .

ثم حملتها وذهبت بها إلى بائع شيكولاتة فى الشارع . .

وبعد هذا بأسبوع . . حدثنى ابن خالى بهجت وهو يطير من الفرح . . إن نادية قبلت الزواج منه . . . وسيكون الزفاف بعد أيام قليلة فى شقتها . . .

***

وذهبت لأحضر الزفاف وأكون شاهداً فى العقد . . وبعد العقد تعشينا . . وهنأنا العروس وكانت الدعوة مقصورة على نفر قليل من الأقارب . . فانصرفوا بعد العشاء . . وأخذت أتهيأ للانصراف . .

فسلمت على بهجت ولما نزلت على السلم فزعت لصوت طلقات نارية انبعثت من شقة إبراهيم . . ونزلت مسرعاً . .

ودفعت بابه . . ووجدت الغلام قد أفرغ رصاصة . . فى رأسه . . وأمامه على المائدة . . صورة سيدة قد مزق جسدها الرصاص . . وكانت صورة نادية . . فى ثوب أبيض . . . ورفعت الصورة الممزقة سريعاً ووضعتها فى جيبى قبل أن يصل إنسان . . .

ورأيت أن ألحقه بعمل عند صديق لى يملك مصنع نسيج كعامل أو مخزنكى . . وقال لى الصديق . . إن حسن أفسد عمال المصنع جميعاً . إذ إنهم يلتفون حوله . . ويأخذ هو يقص عليهم من أحاديثه . . حتى خلب ألبابهم . . وأخيراً اشتغل فراشاً فى بنك من البنوك . . وانقطعت الشكوى منه . . ولكنه لم ينقطع عن زيارتنا إذ كان يزورنا بانتظام فى يوم الأحد وهو يوم راحته . .

وحدث أن تعطل الجرس الكهربائى فى البيت . . فقلت للخادمة أن تذهب وتجىء بالكهربائى الذى على ناصية الشارع فسمعتنى زوجتى وقالت .

«استنى يابنت . . . حسن جاى بكرة . . .»
فسألت فى استغراب :
«حسن مين . . .؟»
«حسن بتاعنا . . .»
«حسن . . . لكن ما علاقته بالكهرباء . . .»
«دا بقى كهربائى مدهش . . .»
وقرأت على وجهى الإنكار . . . فقالت :
«بكره حيصلح الجرس قدامك . . .»

وجاء حسن . . . ونظر إلى الجرس ولم يكن فى حاجة إلى سلم . . وعالجه . ودق . . كما عالج المكواة المتعطلة فكوت . . وعندما أصلح مفتاح الصوت فى الراديو . . . آمنت ببراعته .

***

وأصبح حسن هو الكهربائى الخاص بنا . . . فكانت زوجتى تكلفه بأن يغير المصابيح ويركب «برايز» جانبية لكل حجرة . . كما ركب لمبة «سهارى» فى الصالة . . . وفى المطبخ . . وفى كل أسبوع كنت أجد تغييراً . . فقد أصبحت العملية . . سهلة . . وأصبحت الدورة الكهربائية فى البيت هى شغل زوجتى الشاغل .

وذات يوم جئنا بنجفة كريستال جديدة وركبناها فى الصالة . . ولكننى وجدت هذه النجفة منقولة فى اليوم التالى إلى غرفة الصالون . . وفهمت من زوجتى أنها رأت أن تنقلها إلى الصالون لتناسب الطقم . . وتنقل نجفة الصالون إلى الصالة . . . وعلمت طبعاً أن الذى قام بهذه العملية هو حسن الكهربائى الخاص . . ولم أعر المسألة أهمية . . وإنما فكرت فى التطور الذى يحدث للإنسان . . فإن هذا الغلام البليد الخامل الثرثار . . قد تطور . . وأصبح كهربائياً ممتازاً معتمداً على ذكائه فقط . . فهو لم يتعلم هذا الفن فى مدرسة ! ومن يدرى ربما يصبح أمر سن آخر . . أو جراهام بل . . . أو حتى استفنسون . . يجب أن لا نيأس من صلاحية أى إنسان للحياة . . . كنت أحاور نفسى بهذا ومثله وأنا جالس مع زوجتى وأطفالى وقد جمعتنا الشرفة فى الليلة التاسعة من رمضان . . عندما سمعنا دوياً وانفجاراً أعقبه ظلام تام فى البيت فقد سقطت النجفة التى ركبها حسن ولم يبق منها شىء . . وحمدت الله على أن الخادمة كانت بالرضيع فى المطبخ بعيداً عن مكان الانفجار . . .

كان عندنا خادم صغير فى البيت اسمه حسن . . وكان عمله مقصوراً عـلى شراء الأشياء من السوق . . إذ لم يكن يصلح لشىء سوى هذا . . ولكن هذا العمل البسيط لم يكن يؤديه حتى على أسوأ وجه . . وليس ذلك لأنه كان يسرق . . فقد كان مثالاً يحتذى فى الأمانة . . وإنما لأنه كان يخرج فى الساعة السابعة صباحاً ليجىء بالإفطار . . فلا يعود إلا قرب الظهر . . وكان سوء تصرفه هذا يقع على عاتق زوجتى المعذبة وحدها . . لأننى أتناول فنجانا من القهوة وأخرج إلى رياضة الصباح . . وأولادى يأخذون السندوتش ويذهبون إلى المدرسة . . وتبقى المسكينة وحدها ترقبه من الشرفة . . ولبها مستطار . . وتتحول بكليتها إلى عينين ترقبان أى شىء أسود يتحرك فى الطريق . . وكانت تحدث نفسها :

«أهو جاى . . . بس لما يورينى وشه . . .»

وتهيىء نفسها لتستقبله بالكف . . ولكن لا يكـون هو . . وتـظل فى البيت تدور كالنحلة وتأكل نفسها من الغضب . .

وعندما يجىء تكون قد بـردت كالثلج . . واستسلمت لليأس التام . . وتحولت عاطفتها من الغضب عليه إلى الخوف على مصيره . . وعندما يقرع الباب . . وتراه ممسكاً بالسلة الفارغة كما خرج بها تسأله فى صوت خافت :

«كنت فين ياحسن . . . ؟»

«الفلوس وقعت ياست . . .»

وهو لا يكذب فى هذا ففى سبع حالات من تسع يحدث له هذا . . ويحدث بترتيب ونظام ! كأحدث النظريات الفلكية ! .

وكنت عنـدما أرى زوجتى فى البيت وهى تقفـز من النافـذة إلى الشـرفـة . . إلى الباب . . فى لهفة وقلق لاستقباله . . أقول لها :

«لا تشغلى نفسك به . . ولا داعى لأن تكلفيه بهذا المشوار . . .»

«أنا بس خايفة . . أحسن ياكله الترمواى . . مسكين . . يتيم . .»

وهكذا تتحول عاطفتها من النقمة عليه إلى الشفقة به . . ولم أعجب فقد ورثت هذه الطباع الحميدة من والدها . . .

***

ولم يكن حسن يفعل أى شىء غير مقبول فى السوق . . . لأنه كان لا يذهب إلى السوق على الإطلاق . . وإنما يجد أى ولد فيجره إلى الحديقة العامة . . وهناك يجلسان تحت الشجرة . . ويضع السلة بجانبه ويخرج من جيبه حدوتة من التى تباع بنصف القرش ويقرأ ويتحدث مع الغلام حتى ترتفع شمس الضحى . . .

فقد كانت عنده لذة عارمة فى أن يقرأ هذه الحواديت ويقص ما فيها على الناس . . . كان يتحدث إلى البواب . . والمكوجى . . وبائع الثلج . . والخبز . . والخضار . . ويعطل هؤلاء جميعاً عن عملهم . ورغم كل هذه المساوىء فإنه بقى فى بيتى . . لأن قطع اللقمة عن جائع يتيم . . أهون منها قتل النفس . .

ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان . . فقد أصبحنا ذات يوم . . وإذا بحسن يطول نصف ذراع . . ثم أصبحت قامته تمتد ثلاث بوصات يومياً . . دون انقطاع . . وهذا الشىء مروع . . وأصبح ينحنى وهو داخل من الباب الخارجى . . ثم أصبح لا يستطيع الدخول على الاطلاق . . وكنت أرى هذا الطول المفاجىء وأغرق فى الضحك وأتألم .

ورأيت أن ألحقه بعمل عند صديق لى يملك مصنع نسيج كعامل أو مخزنجى . . وقال لى الصديق . . أن حسن أفسد عمال المصنع جميعا . أذ أنهم يلتفون حوله . . ويأخذ هو يقص عليهم من أحاديثه . . حتى خلب ألبابهم . . وأخيرا اشتغل فراشا فى بنك من البنوك . . وانقطعت الشكوى منه . . ولكنه لم ينقطع عن زيارتنا اذ كان يزورنا بانتظام فى يوم الأحد وهو يرم راحته . .

***

وحدث أن تعطل الجرس الكهربائى فى البيت . . فقلت للخادمة أن تذهب وتجىء بالكهربائى الذى على ناصية الشارع فسمعتنى زوجتى وقالت :

« استنى يا بنت . . . حسن جاى بكرة . . . »

فسألت فى استغراب :

« حسن مين . . . ؟ »

« حسن بتاعنا . . . »

« حسن . . . لكن ما علاقته بالكهرباء . . . »

« دا بقى كهربائى مدهش . . . »

وقرأت على وجهى الانكار . . . فقالت :

« بكره حيصلح الجرس قدامك . . . »

وجاء حسين . . . ونظر الى الجرس ولم يكن فى حاجة الى سلم . . وعالجه . . ودق . . كما عالج المكواة المتعطلة فكوت . . وعندما أصلح مفتاح الصوت الراديو . . آمنت ببراعته .

***

وأصبح حسن هو الكهربائى الخاص بنا . . فكانت زوجتى تكلفه بأن يغير المصابيح ويركب « برايز » جانبية لكل حجرة . . كما ركب لمبة « سهارى » فى الصالة . . . وفى المطبخ . . وفى كل أسبوع كنت أجد تغييرا . . فقد أصبحت العملية . . سهلة . . وأصبحت الدورة الكهربائية فى البيت هى شغل زوجتى الشاغل .

وذات يوم جئنا بنجفة كريستال جديدة وركبناها فى الصالة . . ولكننى وجدت هذه النجفة منقولة فى اليوم التالى الى غرفة الصالون . . وفهمت من زوجتى أنها رأت أن تنقلها الى الصالون لتناسب الطقم . . وتنقل نجفة الصالون الى الصالة . . . وعلمت طبعا أن الذى قام بهذه العملية هو حسن الكهربائى الخاص . . ولم أعر المسألة أهمية . . وانما فكرت فى التطور الذى يحدث للانسان . . فان هذا الغلام البليد الخامل الثرثار . . قد تطور . . وأصبح كهربائيا ممتازا معتمدا على ذكائه فقط . . فهو لم يتعلم هذا الفن فى مدرسة ! ومن يدرى ربما يصبح أمر سن آخر . . أو جراهام بل . . . أو حتى استفنسون . . يجب أن لا نيأس من صلاحية أى انسان للحياة . . . كنت أحاور نفسى بهذا ومثله وأنا جالس مع زوجتى وأطفالى وقد جمعتنا الشرفة فى الليلة التاسعة من رمضان . . عندما سمعنا دويا وانفجارا أعقبه ظلام تام فى البيت فقد سقطت النجفة التى ركبها حسن ولم يبق منها شىء . . وحمدت الله على أن الخادمة كانت بالرضيع فى المطبخ بعيدا عن مكان الانفجار . . .

ركبت المترو ذات ليلة من نفق جنزا . . وكنت أود أن أقوم بجولة ليلية تحت المدينة الكبيرة . . وأرى ضواحى طوكيو الـرائعة تسبـح تحت أضواء الأرض والسـماء . . أرى الفوانيس الحالمة على واجهات المنازل ترسل الأنوار الحمراء والزرقاء . . وتحكى بأشكالها قصص الأساطير ، والبالونات من كل الـرسوم والألـوان تشع بـالأنوار ويتسـاقط عليها المطر . . فيصقلها ويزيدها توهجاً وبهجة ونزلت من القطار .

ولما وصلت نهاية الجولة . . غرقت بكل حواسى فى هذا الجمال . .ونسيت نفسى حتى انقضى جزء كبير من الليل . .

ووجدت مطعما على الطريق . . وكنت أحس بالجوع الشديد . . وأخاف ألا أجد طعاما فى الفندق الذى نزلت فيه فى مثل هذه الساعة من الليل . .

فـدخلت المطعم . . وطلبت وجبـة عشاء يـابانيـة كاملة . . وأحسست بـالدفء والجمال حولى . . فأكلت متمهلا . . ولما فرغت من الطعام . . وخرجت إلى المحطة . . وجدت أن القطار الأخير قد مر منذ أربع دقائق . . فاستأت وتملكتنى الحيرة . . وأخذت أروح وأجىء على الرصيف . . وأنا أفكر فى وسيلة أعود بها إلى المدينة .

وخرجت إلى الشارع لأسأل رجل البوليس . . وكانت المنطقة كلها لا تزال تتلألأ بالأضواء الحمراء والخضراء والزرقاء . . كأنها حبات الزمرد . . والياقوت . . والمرجان . . على صدر حسناء . .

والحوانيت لا تزال ساهرة . . والحركة فى الشارع المجاور للمحطة على أشدها . . وشاقنى المنظر كله وأخذ بلبى . . ولكننى أحسست بوطأة البرد وأنا فى العراء . . وتحت السماء المقرورة . . فتحركت أحتمى بالمساكن . . ولم أر أحدا من رجال البوليس أمامى ورأيت شابا يتحرك فى الطريق . . فتقدمت إليه وسألته بالإنجليزية :

ـ ألا توجد قطارات الآن إلى جنزا . . ؟
ـ آخر قطار مر منذ لحظات .
ـ والسيارات . . ؟
ـ تستطيع أن تركب «تاكسى» . ولكن هذا سيكلفك أكثر من ألف ين . . وتستطيع بأقل من هذا المبلغ أن تقضى الليل هنا . .
وفى الصباح اذهب بالقطار إلى حيث تريد . .
ـ أتوجد فنادق رخيصة هنا . . فليس فى جيبى الآن . . سوى «ينات» قليلة .
ـ يوجد فندق واحد . . وسنذهب إليه أرجو ان يروقك . .

ومشيت مع الشاب صامتا . . ثم أخذنا نتحدث وقطعنا جولة كبيرة . . ولما بعد بى عن الشوارع الرئيسية ودخل فى الحوارى الضيقة القليلة الضوء المملوءة بالحانات وأماكن اللهو . . توجست منه شرا . . وخشيت أن يكون قد تصورنى أمريكيا . . وأنه يقودنى الآن إلى الهلاك . . فعرفته بجنسيتى . . وقال مبتسما :
ـ أعرف أنك من الشرق . .
ـ من مصر . . ونحن أصدقاء . . ونحبكم . .
ـ هذا طبيعى . . ونحن نحبكم أيضا . .
ـ بلادكم جميلة . . كأنما يرسم خطوطها وألوانها رسام عبقرى . . كنت أتوقع أن أرى الثلج لأرسم لوحة الشتاء . .
ـ إنها لا تثلج الآن . . انتظر شهرا آخر . . هل أنت رسام . . ؟
ـ نعم رسام . . ورسمت مشاهد حية . . من حى جنزا . .
ـ طوكيو كلها فى هذا الحى . . هل أعجبتك . .
ـ شىء فوق الخيال . . اعتدت أن أشرب القهوة كل صباح فى مقهى صغير لا يتجاوز حجمه أربعة أمتار . . ولكن أى جمال فيه . . وأى فن . . وأى رسوم على الجدران وأى لوحات . . وألوان . . وأى فنان وضع تصميم المكان . .
ـ يوجد كثير من الفنانين فى طوكيو . . وتستطيع أن تزورهم وترى أعمالهم . .
ـ هل الفندق بعيد . . ؟
ـ لا . . لقد اقتربنا منه . .
ودخلنا شارعا صغيراً . . على أبوابه الفوانيس الزرقاء . . وبه أكثر من مرقص ومقهى ورأيت فتاة تقف وراء باب زجاجى . . دون حركة . . وتصورتها رسما على الزجاج . . فوقفت أمامها من الخارج . . أتأمل . . فلوحت لى بيدها تدعونى للدخول . . فوقفت مبهوتا . .
وقال لى الشاب :
ـ أتحب أن تدخل . . ؟

ـ سأرى الفندق أولا . .

ورجعنا مرة أخرى فى تيه من الشوراع الضيقة . . وشعرت بقلبى يدق بعنف . . شعرت بالخوف الحقيقى الذى ينتاب الغريب وهو يرافق شخصا لا يأمن جانبه . . وسواء أكان هذا الخوف له سبب معقول . . أو ناتج عن تلف فى الأعصاب . . فإننى أحسست برعشة . . وغرقت فى دوامة من الرعب القاتل . .

وأغمضت عينى برهة ثم مشيت مع الشاب . . وأنا أقول فى نفسى لابد مما ليس منه بد . .

ولم نبعد فقد دخلنا مرة أخرى فى صف من المنازل الصغيرة المدببة السقوف وعلى واجهاتها الفوانيس . . واجتاز بى عتبة صغيرة من الرخام . . وصعدنا سلمين ثم توقف كاتو . . وأخذ يخلع نعليه . . وأشار بأن أحذو حذوه . . فخلعت نعلى . . واجتزنا صحنا مفروشا بالحصير الجميل . .

واستقبلنا رجل فى الأربعين مربع عريض الصدر . . وكلمه كاتو باليابانية . . فقادنى الرجل وهو يرحب إلى غرفة مفروشة بالحصير . . والحشيات والوسائد . . وكانت المرتبة مفروشة . . فوق الحصير . . وأرض الغرفة خشبية وترتفع عن الأرض بمقدار ثلاثين سنتميترا .

فسررت جدا من هذا الجو اليابانى الخالص وسألنى صاحب المنزل :

ـ أعجبتك الغرفة . . ؟

ـ جدا . . إنها جميلة للغاية . .

ـ كنت أخشى ألا تروقك . . لأنه لا يوجد بها سرير . .

بالعكس . . إنها أعجبتنى أكثر . . كم أجرها فى الليلة . . ؟

ـ ألف ين . .

ـ حسن . . والشاى والإفطار . .

ـ هذه الأشياء كلها رخيصة هنا . . ولا تكلفك كثيرا . . واطلب ما تحب . .

ووضعت يدى فى جيبى . . وأعطيت كاتو مائة ين . . فأخذها وانصرف مسرعا . .

وسألنى صاحب المنزل إن كنت أحتاج لشىء وكنت أحس بالبرد فطلبت بعض الشاى . . ودخلت على فتاة جميلة تحمل صينية الشاى ووضعته أمامى على الحصير وصبته فى الفنجان . . وأخذت ترحب بى بالكلام والابتسام وانحناءة الرأس . . وأدركت أنى لا أعرف لغتها فزاد ابتسامها . . ووضعت لى الوسائد . . وخرجت . . وأخذت أتهيأ للنوم . . ولم يكن معى بيجامة . . فخلعت سترتى وتمددت على الفراش . . ولكننى لم

أنم . . وكان المنزل هادئا . . وليس به أدنى حركة تدل على وجود نزلاء . . آخرين . .

وأغمضت عينى لأنام . . فعادت إلى ذهنى صورة الفتاة الواقفة على باب الملهى الزجاجى . . وكنت أعرف أن المكان لا يبعد عنى كثيرا . .

ووجدتنى أنهض وارتدى السترة وأخرج . . وقلت للرجل صاحب المنزل إننى ذاهب الى مرقص قريب وسأعود . . وأعطيته أجر الغرفة مقدما حتى لا يتصور أننى أخدعه . .

وأسرعت إلى الحانة . . ودفعت بابها الزجاجى . . ووجدت ساحتها صغيرة وفى وسطها بار دائرى . . يقف فيه خمس فتيات . . يقدمن الخمر لثلاثة من الزبائن وكان الضوء ضعيفا . . والدخان يملأ جو المكان . . والهدوء يخيم . . واستقبلت بابتسامة وانحناءة من جميع الفتيات . . ولم أكن سكيرا . . ولا أحب شرب الخمر . . ولا أدرى لماذا دخلت وأنا أعرف أنها حانة . . والواقع أننى لم أجد مكانا غيره ساهرا فى الحى كله . . وترددت قليلا أين أجلس . . وظللت واقفا . . ثم رأيت سلما خشبيا صغيرا . . ملاصقا للفتاه الجالسة على الخزينة . . فصعدت سريعا . . ووجدت فى الدور العلوى . . نفس البار الدائرى . . ونفس الضوء الخافت . . ونفس الرسم على الجدران وكان فى اليسار ثلاث فتيات فقط . . ورجل واحد . . أخذنى بنظرة سريعة ثم عاد لكأسه . .

ووجدت نفسى أجلس أمام واحدة من الفتيات . . ولعلها جذبتنى بقوة المغناطيس الذى فى عينيها وكانت ترتدى صديرا من الصوف الرمادى . . وبنطلونا أحمر . . كأى فتاة أمريكية من برودواى . . وجلست أنظر إلى عينيها برقة . . كانت وادعة . . ولا يبدو عليها أنها من فتيات البارات . . وأدركت أننى لهذه الوداعة اخترتها . . فالغريب يلجأ دائما إلى منطقة الأمان . . ووضعت الفتاة أمامى صحنا من البطاطس المحمر . . ولم تسألنى ماذا أشرب . . ولعلها عرفت أننى لا أشرب على الإطلاق . . وكانت عيناى تسبحان فى الزجاجات التى أمامى تقرأ الأسماء فى هذا الضوء الخافت . . ورأيت بالونة زرقاء مكتوبا عليها «نبيذ وحسان» . . فى كل الأركان الدائرة . . وتذكرت أن هذا هو اسم البار . .

وعاد نظر الفتاة على وجهى وسألتنى برقة :

ـ لماذا لا تأكل . . أأجىء لك ببعض الكبد والقلوب المشوية . . فقلت وأنا أنظر إلى عينيها . .

ـ أجل . . مع كوب من النبيذ . .
ـ أحمر . . ؟
ـ أحمر . .

ووضعت الكوب أمامى . . ونظرت إليها . . لم أر فتاة فى مثل جمالها . . لا فى

بوخارست ولا فى وارسو . . ولا فى برلين . . ولا فى بودابست . . ولا فى استنبول . . ولا فى هونج كونج . .

وقلت لها وأنا أرفع الكوب إلى شفتى . .

ـ ألا تشربين شيئا . . ؟

ـ سأشرب . .

وجاءت بشىء أحمر فى قعر الكوب . . ورفعته إلى شفتيها . . تناولت عشر قطرات لا أكثر . . ونظرت باسمة . . أدركت أنها لا تشرب الخمر . . وتعجبت لوجودها فى هذا المكان . . وأدركنى العجب أكثر . . منذ محادثتها فقد بدت على ثقافة عالية ولم تكن تدفعنى إلى الشراب أو تطلب لى منه كفتيات الحانات . بل كانت تتركنى بكل حريتى وعندما طلبت لها كأسا أخرى رفضت . . وقالت :

ـ واحد يكفى . . المهم أن نجلس ونتحدث . .

وسألتنى :

ـ متى جئت طوكيو . . ؟

ـ منذ يومين . .

ـ ونازل فى أى فندق . . ؟

ـ فلم أتذكر اسم الفندق وبحثت فى جيوبى عن البطاقة المكتوب فيها الاسم فلم أجدها . . وفتحت فمى كالأبله . . وقلت لها :

ـ لا أعرفه . . .

فضحكت . .

ـ أتعرف كيف تذهب إليه وحدك . . ؟

ـ أبدا . . اعتدت أن أعطى البطاقة للسائق . . وهى مكتوبة باليابانية . .

ـ هل اسمه . . أمبريال . . نيوكوهاما . . جيانسو . . نيكاسيو . . دايتشى . . ؟

وعددت لى مئات الأسماء . .

ـ أبدا . .

ـ وكيف ستهتدى إلى حوائجك . . ؟

ـ فى الصباح . . سأتصل بشركة السياحة . . وهى التى تعرف اسم الفندق . .

وعاد إلى قلبها الضحك . .

ـ إن هذا ممتع . . وأين ستقضى هذه الليلة ؟ .

ـ فى فندق قريب منكم على الناصية . .

ـ آه . . عرفته . .

ـ هل أطمع فى جولة حول المدينة بصحبتك غدا . . ؟

ـ آسفة لا أستطيع . .
ـ وكيف أراك . . ؟
ـ هنا فقط . . .
ـ إن بلدتكم جميلة . . لا يشبع الإنسان من جمالها . .

وهنا رن صوت :

ـ إنك لم ترها وهى مضروبة بالقنابل . . كانت حطاما . . ضربها الأنذال بكل ما لديهم من قوات الجو . .

وتلفت فوجدته الرجل الذى كان يسكر هناك فى الظلام . . ولقد نسيته . . وكان يتكلم الإنجليزية بطلاقة . .

ـ إن هذا كان ردا على بيرل هاربور . .

ـ لا . . إنك لم تر طوكيو . . فى ذلك الحين . . لم يحدث لمدينة كما حدث لها من الضرب الوحشى المركز . .

– ولكنها الآن تبدو كأجمل الحسان . .

– بقوة سواعدنا بنيناها من جديد . . إن طوكيو . . هى اليابان كلها . . هات كأسا للسيد ياهينا . . ولنشرب نخب طوكيو . . ونخب الشرق كله . .

فرفعت الكأس إلى شفتى ورفعتها الفتاة . .

وكانت تبتسم . . وقبل أن ينصرف الرجل انحنى لى ثلاث مرات . . فنهضت عن الكرسى وأخذت أرد له التحية بعدد انحناءاته . .

ودخل بعده أربعة شبان المكان . . . وكان أحدهم يرتدى معطفا قصيرا أبيض . . فرأيت وجه الفتاة يتجهم . . وجلسوا حول الفتاتين الأخريين سميا ونلدا يصخبون . . ويضحكون . . وانتهى الجو الحالم الذى كنا نعيش فيه منذ لحظات . . وشعرت بالضيق . . ولاحظت على هينا الضجر فسألتنى :

– شعرت بالتعب . . ؟
– نعم . .
ـ الأحسن أن تستريح . .
ـ وكيف أراك . .
ـ فى انتظارك غدا . .

وأخرجت ورقة بخمسة الآف ين . . وتناولتها الفتاة وهبطت بها سريعا وسمعت

صوتها وهى تحاور صاحبة الخان . . وعادت وقدمت لى أربع ورقات كبيرة وبضعة ينات صغيرة . .

فقلت لها متعجبا :

- إنك لم تأخذى شيئا . .

- هذا هو حسابك . . إنك لست بسكير .

ونظرت إلى عينيها طويلا . .

فسألتنى :

- ما اسمك . . ؟

- لطفى . .

- اسمى هينا . .

- اسم جميل . . . !

ونظرت إلى صورة عروس يابانية تغنى بالقيثار . . فى ركن من المكان وقلت لها :

- فكرت فى أن أرسمك بالكومينو . . وأرجو ألا ترفضى لى هذا الطلب . .

- غدا ستتحدث فى هذا .

وأعطتنى يدها . .

فرفعتها إلى شفتى . .

وعندما هبطت إلى الدور الأرضى نظرت إلى صاحبة الخان طويلا وأنا خارج . .

وقالت برقة :

- شرفتنا ياسيد . .

وانحنت الفتاة الواقفة على الباب وقالت :

- شكرا ياسيد . . شرفتنا وآنستنا . .

وخرجت إلى الطريق . . وأمامى أضواء قوس قزح . . فى السماءوالأرض . .

* * *

وفى المساء التالى لبست هينا ثوبا آخر وبدت مجلوة كالعروس من غير أصباغ . . أو أحمر على الشفاه . .

وقالت .

- هل اهتديت إلى الفندق . . ؟

- أجل . . وأفكر فى نقل حوائجى إلى هذا الحى . .

- لماذا . . ؟
- لأكون قريبا منك . .
وضحكت :

- عشقتنى بمثل هذه السرعة . . إننى أقيم هناك مثلك . .

- ولكنك تعملين هنا . .

- يمكنك أن تجىء من السابعة وتبقى إلى ما بعد منتصف الليل . . وفى هذا الكفاية . .
- كما تحبين . .

ولم يكن بالمكان العلوى أحد سوانا . . وكانت الفتاتان الأخريان أكثر رقة مما قدرنا . . فقد تركتانا وحيدين وهبطتا إلى الدور الأرضى . .

وقلت للفتاة :
- هل أطمع فى الصورة . . ؟
- أى صورة . . ؟
- أرسمك . . وأنت لابسة الكومينو . .
- ليس عندى كومينو . . .

- سأشتريه لك . . وأعطيك خمسة آلاف ين على الرسم . . وخرجت منى هذه الكلمات كالقذيفة بحكم الصنعة . . .

فاحمر وجهها . .
- فتركتها دقيقتين ثم سألتها :
- مارأيك . . ؟
- دعنى أفكر . .
- ها هو عنوان الفندق . . وسأنتظرك فى البهو غدا فى الساعة الحادية عشرة صباحا . .
- سأجىء فى الرابعة بعد الظهر . .

قالتها برقة . . وكنت أود من فرط السرور أن أطوقها بذراعى . .

***

وفى الساعة الرابعة مساء رأيتها تدفع الباب . . كانت تلبس جاكتة وجونلة زرقاء وزادها هذا نضارة . . واستقبلتها فرحا . . وكانت خجلى بعض الشىء ثم زايلها الخجل

بعد أن شربنا الشاى وتحدثنا . . ثم صعدنا إلى غرفتى . . وأريتها الكومينو الذى اشتريته لها فسرت به . . ودخلت وراء الستر لتخلع ثوبها وتلبسه .

وعندما خرجت كانت أجمل ما وقعت عليه عيناى .

وجلست أمام المرآة تسرح شعرها على الطريقة اليابانية وتبدو فى زينة مناسبة للرداء ومنسجمة معه . .

وأمسكت بالفرشاة وأخذت أعمل . . وأستريح . . وأجعلها تستريح وتسترخى . حتى كانت الساعة السادسة . . وكان عليها أن تذهب إلى عملها . فودعتها على أن تجىء غدا لنكمل اللوحة .

***

ولم أذهب إلى الحان من تلك الليلة . . جلست فى غرفتى . وهى أمامى على التابلوه . . وكنت أدخن بشراهة . . وأنظر إلى ما تحت الكومينو . . كنت أفكر فى البشرة الناصعة . . وفى صورة لفينوس العارية . .

كنت أفكر فى صورة أضع فيها كل روحى وفنى .

***

وجاءت فى اليوم التالى فى الميعاد . . وجلست أرسم بسرعة . . حتى أتممت الصورة . . وقلت وأنا أضع الفرشاة جانبا :

– هل تساعديننى على أن نكمل هذا العمل . . ؟

– كيف . . ؟

– أريد أن أرسمك على الطبيعة . . ولا أحد سيراها هنا . . لأنى سأحمل الرسم معى . . ولا أحد يعرفك هناك . .

– لا تقل هذا . . لقد خاب ظنى فيك . . هل أنا محترفة . .

– العفو . . إننى أريد أن أرسم عذراء . . وأرسم الخفر الذى على وجهها . . والخجل الذى فى عينيها . . وأنا أراها عارية . . أريد أن أرسم هذا . . وهذا لا يأتى إلا منك . . فلا تحرمينى من هذه المنحة . .

– هناك كثيرات صنعتهن هكذا . . فاذهب إليهن . .

– لا . . أنا لا أريد محترفة . . أريدك أنت وسأعطيك عشرة آلاف ين . . لجلسة واحدة . .

وأغمضت عينيها وفى غمرة الانفعال تناولت يدها وقبلتها .

وهمست :

- سأنتظرك غدا . .

- سأجىء يوم الخميس . .

وخرجت ونسيت أن تأخذ الكومينو معها . . فضممته إلى صدرى . .

***

وفى يوم الخميس جاءت . . وكان العذاب الأكبر لى ولها لأنها رفضت أن تقف عارية تماما . . ورأيت أن أضع غلالة رقيقة على جسمها فى هذه الجلسة . . لأتفادى غضبها وليكون وجهها طبيعيا ومشرقا . . وأرسم فى هذه الجلسة وجهها وجيدها وكتفيها . . وفى الجلسة المقبلة تكون قد اعتادت وأرفع الغلالة وأكمل الصورة . .

وفعلا رسمت نصفها . . وخرجت مسرعة على أن تعود بعد يومين لتكمل الصورة وتأخذ العشرة آلاف ين . .

***

وفى الصباح كنت أتجول فى المدينة . . وخرجت إلى حديقة مشهورة . . فرأيتها بصحبة رجل أعمى فى ممشى الحديقة . . وكان واضحا أنه والدها . . وبعدت عنها حتى لا ترانى . .

ظللت ألاحظها من بعيد حتى خرجت بالرجل . . وكان عطفها عليه شديدا . . وحنانها لا يصور . .

وظللت وراءها حتى أركبته الأوتوبيس وغابا عن نظرى . .

***

وذهبت إلى المشرب فى مساء اليوم نفسه . . فاستقبلتنى باسمة . . وقلت لها قبل أن أجلس :

- لقد رأيتك فى الصباح فى الحديقة . . . .

ـ أعرف هذا وكنت أود أن أحدثك ولكنك زغت . .

- والآن أنا أريد أن أشرب كوكاكولا . . أو عصير الليمون . .

- ان فعلت هذا سأطرد من هنا . .

- وماذا يحدث لو طردت . . ؟

- سيموت أبى من الجوع . .

واخضلت عيناها بسرعة . . ونظرت إليها ثم أطرقت . . وفى يدى السيجارة . .

وقالت وهى تبلع عبراتها :

- أصيب أبى بالعمى فى الغارات المدمرة على طوكيو . . وأمى عجوز فوق الستين . . وليس لنا معاش . . أو أى شىء نعيش منه . ولهذا أنا أعمل فى الصباح والمساء فى مطعم ارتاكا وفى الليل أجىء إلى هذا المشرب . . لأوفر لأبى مبلغا من المال . . ليسافر به . . إلى موسكو . . وهناك يسترد بصره فى معهد فيلاتوف . . ولقد وفرت مبلغا . . والخمسة آلاف التى أخذتها منك مع العشرة آلاف التى سآخذها غدا . . أكملت ثمن التذكرة وعجلت بسفره إلى هناك . . فأنت الآن إنسان لا ينسى . . جزء من حياتى وسعادتى . .

وشعرت بقلبى يتمزق . . وقلت لها :

- أرجو أن تسكتى . .

وأخذت أدخن . . وأحكى لها ما شاهدته ورسمته فى جنترا وفى الضواحى وأريتها بعض الرسومات . .

فقالت باسمة :

- غدا لن تكون وحدك سأر افقك فى كل جولة لأنه يوم راحتى . . وتصورت نفسى وهى بجوارى رشيقة جميلة كالطاووس . . بشعرها وحسنها . . جالسة معى فى السيارة . . والمترو وعلى العشب فى الحدائق . . وتحت السماء والمطر يتساقط علينا . . وأنا أحميها منه بمعطفى وصدرى . . وشعرت بسعادة . . غيبتنى عن وعيى . .

وفجأة سمعت موسيقى راقصة فى الدور الأرضى . . وسمعت بعدها ضجة وصعد بعض الشبان اليابانيين إلى الدور العلوى الذى نجلس فيه . . ورمقنى واحد منهم بنظرة قبل أن يجلس . . وطلبوا الشراب . . وجلسوا جميعا يشربون ويصخبون ولم تغير هينا مكانها ولم تقدم لأحد منهم شيئا . . تركتهم جميعا للفتاتين الأخريين . .

وجلست حوالى ساعة وأنا أقدر خروجهم ولكنهم بقوا يصخبون . . وكان نظرهم يقع على ثم يعودون إلى سكرهم . وحديثهم . .

ووعدت هينا على لقاء فى الصباح . . ثم أخرجت محفظتى وأعطيتها ورقة مالية لتدفع الحساب . . ونزلت إلى الخزانة ولبست معطفى . . ونزلت السلم . . ولما رأيتها لا تزال واقفة على الكيس . . تجادل صاحبة الحان . . انتظرت على السلم . . وكان وجهى إليها . . وسمعت حركة شديدة من الشبان فى الدور العلوى ثم ظهر واحد منهم على البسطة العليا من السلم وكان يرتدى معطفا أبيض . . ورآنى فأخذ يهبط السلم ببطء وحولت

وجهى عنه . . وأنا أحس بهم جميعا يهبطون ورائى منظر رجل سكير أخذ يغنى . . وقد أغلق عينيه . . وفجأة أحسست بيد هينا تجذبنى بقوة وتدفعنى بعيدا عن السلم . . وسقط الشاب لابس المعطف بكل قوة . . مدحرجا ومقلبا حتى وصل أرض الحان . .

وهبط من كان وراءه . . وضرب هينا على وجهها بوحشيـة . . فلم أملك نفسى وصفعته وتشابكنا فى عراك دموى . . واختلط الحابل بالنابل . . ورحت فى غيبوبة . .

***

ولما أفقت وجدت نفسى مستريحا على كرسى بيدلق . . وذراعى مربوطة إلى صدرى وكانت هينا بجوارى وعلمت أننى فى بيتها . . وأنها حملتنى بعد تضميد الجرح إلى هنا .

وقالت لى باسمة . .

– لماذا ضربته . . كانوا سيقتلونك .

– لو لم أفعل هذا لانشل ذراعى من الغيظ .

– أعرفت لعبتهم . . ؟

– أجل . . كان سيهبط على من فوق بكل قوته كأنه لا يكاد يتماسك من السكر . . فنقع معا على الأرض . .

– وفى أثناء ذلك تطير المحفظة بكل ما فيها من نقود . .

وتحسست جيوبى . .

وقلت لها :

– لقد طارت فعلا . .

– لاتحزن . . سنستضيفك هنا حتى تسافر . .

– الحمد لله . . إن تذكرة العودة محفوظة فى الفندق . .

وضحكت هينا . .

– عظيم . . إذن لم تخسر شيئا من جراء هذه المعركة . .

– لن أدخل حانة مرة أخرى فى حياتى حتى وإن كنت أنت الساقية . .

– وأنا لن أكون ساقية بعد اليوم . . سأكتفى بعملى فى المطعم .

وتناولت يدها . . وضغطت عليها . . ورأيت عينيها تتألقان بالجمال والحب وظلت ممسكة بيدى . . ثم دفعتها فى جيبها وأخرجت المحفظة ووضعتها فى مكانها من سترتى .

وقالت برقة :

– والآن متى نكمل الصورة . . . ؟

- لن نكملها . .

- كيف . . ؟

ونظرت إلى مستغربة . .

- لقد قررت هذا . . قبل أن يقع الحادث . . إن أعظم صورة للفنان هى التى لم تكمل . . لأنها الصورة الوحيدة التى تعيش فى قلبه ووجدانه .

وتناولت بذراعى السليمة المحفظة وأعطيتها ورقتين بعشرة آلاف ين . . ورفضت أن تأخذ المبلغ . . وتحت الإلحاح الشديد قبلت . . ولما اقتربت من ذراعى الجريح ومسحت عليها بيديها . . وأعطتنى شفتيها فى غمرة عواطفها الجائشة . . قبلت شعرها . . وجيدها . . ولم أشأ أن أطفىء النار المشتعلة فى قلبى .

كانت سميرة فتاة يتيمة فقيرة وقد تبنتها السيدة صفية من سن العاشرة وعاشت فى بيتها . . . معززة كواحدة من الأسرة . . وكانت ترافقها فى زياراتها لصاحباتهـا وفى كل خطوة تخطوها فى مدينة القاهرة وتذهب معها فى كل عام إلى المصيف . .

وكانت السيدة صفية تزور والدتى فى يوم الأربعاء من كل أسبوع . . ومعها سميرة وتبقيان عندنا إلى الساعة العاشرة مساء . . وكانت والدتى تأمرنى أن أرافقهما فى العودة .

وكانت صفية هانم أرملة تقرب من الستين رقيقة المشاعر عذبة الحديث وفية . إذ كانت جارة لنا فى العباسية . . فلما انتقلت إلى حدائق القبة حرصت على أن تزورنـا فى الأسبوع مرة دون انقطاع وكانت سميرة رغم فقرها وشعورها بحالها تدخل بيتنا ضاحكة كوردة الصباح . . وكانت تترك صفية هانم مع والدتى فى الصـالون . . وتجلس معى فى البهو . . وأنا أستمع إلى الموسيقى وأقلب فى كتب القانون وكنت أطوى هذه الكتب وأقبل عليها . . وكان يجمعنا الشباب ووحدة المشاعر فى بيت كله عجائز . . وكانت قد اكتسبت عادة ذميمة تعلمتها من السيدة صفية . . عادة تقبيل اليد . . فكانت تقبل يدى عندمـا تـرانى . . وكنت أدفعها عنى بـرفق وأجذب يـدى بسرعـة فألمس فى أثنـاء هذه الحـركـة صدرها . . وأحس ببراعم نهديها النافرين .

«مش حتبطلى العادة دى . . . ؟»

«ما أقدرش . . . »

«لكن أنا مش ست . . »

«مبسلمشى على رجالة غيرك . . . »

والحق أننى كنت أشعر بلذة محببة لمجـرد وضع راحتهـا فى يدى وأنـظر إلى عينيها الباسمتين وأنفها الدقيق . . وشفتيها القرمزيتين . . وأشعر بسعادة غامرة . . .

وأصبح يوم الأربعاء من أحب الأيام إلى وكنت أترقبه وأحبس نفسى فى البيت من الصباح من أجل هذه الزيارة . . وكنت فى الواقع شبه عاطل ولا أؤدى أى عمل على الإطلاق منذ أن حصلت على الليسانس وكنت أفكر فى السفر إلى الخارج لأحصل على الدكتوراه أو أكتفى بالليسانس وأبدأ حياتى العملية بالتمرين عند أحد المحامين الكبار .

وكان يؤلمنى أنه مضى على أكثر من عامين وأنا أشبه بتنبل من تنابلة السلطان . . والواقع أن الأسرة كان فيها أكثر من واحد من طرازى . . ممن لا يؤدون أى عمل بعينه وينتظرون محصول العزبة .

وكان أخى عبد السلام مثالا للرجل المتبطل وكنت أخاف من عامل الوراثة وأخشى أن أصبح مثله . وأعيش كما يعيش أعزب منتفخا . . يشكو من الربو والنقرس ويأخذ من المجتمع ولا يعطيه أى شىء . . كنت أراه أمامى وهو يتحرك فى البيت . . وقد تكرش بطنه وترهل وأصبح يثور لأتفه سبب . ولا يكف عن النزاع مع والدتى بسبب النقود . . ثم يتناول عصاه وكوفيته ويخرج إلى القهوة . . ليلعب النرد إلى الساعة الواحدة . . صباحا .

كانت حياته رتيبة فارغة متعفنة وكنت أخشى أن يكون هذا هو مصيرى المحتوم . . ولكننى كنت أحس بانتفاضة كلما رأيت سميرة وبصحوة وبحيوية تهزنى . . فأقرر أن أذهب فى الصباح إلى مكتب الأستاذ شوكت . . وأتناول منه أى قضية وأذهب إلى المحكمة ولو لأطلب التأجيل . !

ولم أكن أدرك العلة التى تربط سميرة . . بالشعور بتعاستى وضآلتى . . فإنها فتاة فقيرة ولا أهل لها . . وبينى وبينها حاجز أشعر به أكثر كلما تقدمت فى السن . . ولكن وجودها فى البيت كان المصباح المنير لنا جميعا . . لوالدتى المسنة التى تشكو من الوحدة . . ومن وكيل العزبة الذى يسرقها منذ وفاة المرحوم . . ولعبد السلام أخى . . الذى جاوز الخمسين . . ولم يضم إليه امرأة . . هذا هو تقديرى . . ويشعر فى قرارة نفسه بتعاسة الخصيان . . ثم أنا الشاب الذى يفتح صدره للحياة . . ولكن بلا أمل فى المستقبل .

وكانت صفية هانم فى أكثر الحالات تذهب من عندنا إلى الجيران لتزورهم وكانت تترك سميرة فى بيتنا حتى تفرغ من هذه الزيارة . . وكانت أمى تذهب معها وكنت أبقى مع سميرة . . أتحدث إليها وأخرج بها إلى الشرفة فى أشد الأيام برودة وكانت تسألنى :

«مش بردان . . .»

«أبدا . . .»

«طيب وريني إيدك . . .»

وأعطيها يدى فتمسكها فى راحتها وتضعها على خدها وتغمغم :

«باردة زى التلج . . .»

وكنت لا أرد وأتناول يدها وأعصرها . . وأنا صامت مستغرق أحس بضربات قلبينا فى هذا السكون . . وكنا نظل على هذا الحال مدة . . ثم أحدثها عن الأفلام التى شاهدتها فى الأسبوع الماضى وعن أحلامى وأمانى فى الحياة حتى نسمع صوت والدتى فنفهم أن الزيارة انتهت وأرتدى سترتى لأنزل معها إلى البيت . . ومع أننى أكره المشى مع النساء فى الطريق . . لكننى كنت أشعر بسرور ولذة وأنا أرافقها إلى حدائق القبة .

ولم أكن أشعر بأى قلق مالى . . وكنت أقدر أننى سأعمل يوما ما ولو بأن أذهب إلى العزبة وأدير شئوننا . . ولكنى مرتبط بالقاهرة ارتباطا كليا . . لأن والدتى مريضة ولا تطيق البعوض فى العزبة ولأننى كنت مازلت أفكر فى الذهاب إلى الخارج لأدرس الاقتصاد فى لندن . . ولم أكن أدرى لماذا تراوحنى هذه الفكرة فى ساعة ما . . وتذهب لتجئ وتجعلنى بينها كرقاص الساعة وكشاب فى السابعة والعشرين لم أكن أسكر أو أشعر بأى ميل إلى الخمر . . وكنت أرجع ذلك لعامل الوراثة أيضا إذ لم يكن هناك أحد فى أسرة الشيخ عبد الرازق يسكر على الإطلاق . ولا حتى أخى عبد السلام وحياته كلها فراغ . . أما النساء فقد مررت بأكثر من تجربة معهن . . تجارب قليلة تعد على الأصابع . . ولم يكن لى الاختيار فى الواقع إذ كن يجئن عرضا برفقة بعض الصحاب من الطلبة . . وكن من البغايا . . ويمثلن لونا واحدا من النساء . . ولكننى على أى حال كونت فكرة ما . . فكرة عامة .

فلما جاءت أخيرا سميرة تلك العذراء النقية هزت مشاعرى . . ولكن هناك الحاجز الطبيعى الذى يقوم بينى وبينها والذى تحس به هى أكثر منى فهى يتيمة ولا تعرف لها أسرة . . وكانت تشعر بالهوان لهذا والذلة ، ولم أكن أقيم وزنا لهذه الفوارق أو أفكر فيها . . ولكننى لم أتخذ معها أى خطوة عملية . . وظللت مترددا حائرا . . وكنت أنظر إلى أخى عبد السلام وقد شاخ قبل الأوان وترهل جسمه وتكرمش وبرزت خطوط وجهه . . وذهب البريق من عينيه وأخاف أن يلحقنى مصيره . . فقد ظل مترددا فى الزواج يقدم رجلا ويؤخر أخرى . . حتى أصبح لا ترضى به أنثى .

وكانت والدتى تنظر إليه وتتحسر . . وتضع آمالها كلها فى . . وتحاول أن تنقذ الميراث الذى سيؤول إلى وزارة الأوقاف . . . ولا شك أنها اختارت لى أكثر من فتاة من قريباتها . . . ولكنها لم تفاتحنى فى الأمر . . . لأنها تنتظر الوظيفة أولا . . ومرت الأيام ونحن فى الانتظار . .

وحدث فى أصيل يوم . . وكنت وحدى فى البيت فقد ذهبت والدتى مع عبد السلام . . إلى العزبة . . أن جاءت سميرة وحدها . فدخلت . . وأخذت تنظر إلى غرفة والدتى وإلى السكون الذى لم تألفه فى البيت . . :

«أمال فين ماما . . . ؟»

«راحت السينما . . .»

فضحكت إذ كانت تعرف أن والدتى لها عشر سنوات . . لم تر فى خلالها شاشة . .

«صحيح فين . . . ؟»

«فى العزبة كلهم . . .»

«أمال مين بيوكلك ؟»

«جايين بكرة . . .»

«صفية هانم تعبانة شوية . . وكانت عاوزة تشوف مامتك . . وتسألها عن دكتور كويس» .

«طيب أقعدى . . .»

«لأ ما أقدرش . . .»

«على طول كده . . استريحى حتى من السلم . . .»

«انت عارف هى عيانة . .»

«عيانة قوى . . . ؟»

«لأ . . لكن أحسن تنشغل»

«انت لازم خايفة . . . ؟»

«من إيه ؟»

«علشان مفيش غيرى فى البيت . . .»

«هو انت عفريت . . . ؟»

ولم أكن أدرى أهذا سذاجة منها أم دهاء نساء . . .

«أقعدى شوية . . .»

«أدينى قعدت . . .»

وجلست على الكنبة وجلست بجوارها . . وظللنا دقيقة كاملة صامتين . .

ثم انفجرنا بالضحك معا . . وقالت :

«ما تتكلم . . ساكت ليه . . راح فين لسانك . .»

«وانت عارفة أنا لى لسان معاك . . يبقى أخرس .»

«أمال حترافع فى المحاكم ازاى . . .»

«ساعتها أبقى آخذ حتة من لسانك . . .»

وضحكت . . . وذهبت إلى المطبخ وقدمت لها كوبا من عصير البرتقال ولم أجلس فى مكانى بجوارها وإنما جلست على حشية على البساط . . تحت رجليها . . فاحمر وجهها وسألتنى :

«قاعد ليه . . كده . . ؟»

«علشان أشوفك كويس . .»

وتناولت يدها . . . فتركتها فى يدى . . ولما ضغطت عليها . . شدت على يدى كأنها ترينى قوتها . . وخلصت يدها وهى تقول :

«غلبتك . . .»

فابتسمت وأدركت أنها تتعمد إقامة الحاجز الذى بينى وبينها كلما حاولت إزالته . . وظللت أنظر إليها أكثر من ثلاث دقائق . . وأنا أحاول أن أريها فى هذه النظرة أسرار قلبى .

وقلت بصوت خافت :

«تعرفى شعورى نحوك يا سميرة . .»

«طبعا ومش ضرورى كنت تتكلم . . .»

«وإذا سافرت بره . . تروحى معايا . . ؟»

«أنا . . ؟ . .»

«أيوه . . .»

«بصفتى إيه . . ؟»

«مراتى . . .»

«وانت عارف أنا مين . . ؟»

«من فضلك بلاش الكلام ده . . ؟»

«وانت من فضلك أسكت . . »

«حقول لماما علشان تكلم صفية هانم . . ؟»

«تبقى مجنون . . انت عارف إن مامتك تقبل . . إن قلت أى كلام علشانى . . ححرم آجى بيتكم بعد كده . . وما شوفكش أبدا تانى . . فليه تحرمنى من هذه السعادة . . أنا بعيش باقى الأسبوع . . على ذكرى يوم الأربع . . وكله فى صمت . . لا انت تقولى ولا أنا أقولك . . فليه أفسدت على سعادتى ليه . . ليه بس . . ؟»

وكان الدمع يجول متحيرا في عينيها . . فاقتربت منها ومسحت على شعرها . . فنكست رأسها . . ولما رفعت وجهها . . وجدت الدمع يحرق خديها وانحنيت لأمسح عبراتها . . فدفعتنى برفق وجرت إلى الباب وتركتها تنزل . . .

* * *

وجاءت بعد أن شفيت السيدة صفية وعادت والدتى من العزبة وكنت نائما فى غرفتى بعد الغروب . . وبابى مفتوح . . وفتحت عينى على صوتها . . وكانت جالسة فى الصالة على كرسى فى مواجهتى . . رأيتها وأنا مضطجع فى الظلام . . لابسة لأول مرة فى حياتها زيا أفرنجيا كاملا . . قبعة صغيرة وضعتها على جانب من الرأس وصديريا من الصوف المقلم وجونلة وحذاء فى لون الجونلة ومن غير جورب . . وخاتما صغيرا من الياقوت . . لمحته فى الأصبع اليمنى . . وكانت ساهمة وحزينة . .

ورأيت أن أبقى فى مكانى دون حراك . . فى الظلام . . وأسمع ما يدور من حديث واستطعت فى خلال هذه الجلسة أن أقرر شيئا حاسما . . قررت أن أذهب إلى الصالة وأن أعلن حبى لسميرة وأخطبها والكل مجتمع . . ولكن بعد دقيقة واحدة غيرت رأى . . ورأيت أن أخبر أمى وحدها بعد أن تخرج صفية هانم . . وخرجت عليهن . . وكانت سميرة تحاول أن تبدو أمامى باسمة مرحة . . وعندما رافقتها إلى البيت استطعت أن أتناول يدها فى الظلام وأن أرفعها إلى شفتى . .

* * *

وكان أول شىء فعلته عندما رجعت إلى بيتى أن حدثت والدتى عن رغبتى فى الزواج من سميرة . فقالت وقد صعقت من الخبر :

«سميرة مين يـامنيل . . دى خـدامة . . ورثت الخيبـة من أبوك . . كـان برضـه يسيبنى . . ويجرى ورا الخدامين . .»

وبلعت ريقى من الغيظ وكنت أود أن أصفعها . . ولكننى أشفقت على شيخوختها وانسحبت إلى غرفتى . .

***

وانقطعت سميرة عن زيارتنا . . . وعلمت أن صفية هانم زوجتها . . عندما شعرت بقرب الأجل . . .

***

وركبت البحر . . لأتم دراستى وأنسى تعاستى . . وكانت صورة أخى عبد السلام ماثلة أمامى . . بجسمه المترهل وتعاسته وأنانيته . . أنانية الرجل الذى يعيش لنفسه .

سمعت سعاد جرس الباب الخارجى يدق .. ومع أنها كـانت جالسـة قريبـة من الباب .. لكنها لم تنهض إذ كانت تشعر بتراخ وكسل ونادت خادمتها وداد بصوت عال ففتحت هذه باب المطبخ وظهر صوت الوابور .. يغطى كل الأصوات :

ـمش سامعه الجرس ..؟

ـ أبدا ياستى ..

ـ افتحى ..

ودخلت هدى .. فاستقبلتهـا سعاد مـرحبة . وقـالت هدى وهى تقبـل سعاد فى وجنتيها :

ـ ألف مبروك ..

ـ مرسى خالص ..

ـ قد ايه فرحت .. لما سمعت من فاطمة هانم .. لازم كده .. منقدرش نستغنى عن الراجل .. مهما كانت الظروف ..

ـ رأيك كده ..؟

ـ طبعا ومن الأول .. قلت لك لازم تجوزى ياسعاد .. حرام تضيعى شبابك .. وجمالك .. وترفضى عثمان بيه لأنه كويس قوى ..

ـ آدينى ياستى قبلت ..

ـوامتى .. هنفرح ...

ـ لما تفوت سنة على المرحوم ... قربنا ..

ـ نازلة معايا مصر . . أنا رايحه الصالون الأخضر . . . حاشوفلى حتتين .

ـ متأسفة خالص ياهدى . . النهارده أول يوم فى المدرسة . . ولازم استنى حلمى لما يرجع . .

ـ إحنا راجعين حالا . . .

ـ ما أقدرش . . الصبح وديته المدرسة بنفسى . . وفضلت معاه فى الحوش . . أكتر من ساعة . . وبعد كده وقفت بره السور . . مدة كبيرة . . ولما دخل الفصل عيطت ولما جيت هنا قعدت جنب التليفون . . وكل ساعة أضرب للناظرة حاجة تكسف . .

ـ معلهش علشان النهاردة أول يوم يخرج فيـه من البيت . . وبعدين تعتـادى على كده .

ـ والعياط . . . شىء يكسف . . !؟

ـ عينيك حلوة بالدموع . .

وضحكتا . . .

وأخذت الصديقتان تتجاذبان الحديث حتى جاوزت الساعة العاشـرة من الصباح فانصرفت هدى . . وبقيت سعاد وحدها تنظر إلى الساعة وهى رائحة وذاهبة فى البيت وداخلة من حجرة إلى حجرة دون غرض ولأول مرة فى حياتها شعرت بالفراغ . . بالفراغ المعذب . . وبوحدة المرأة الحزينة التى فقدت زوجها . . وهى فى أول شبابها . . فقد كان ابنها ينسيها هذا وينسيها بألاعيبه وبكائه وجريه فى البيت أنها أرملة وأنها وحيدة وأنها فقدت زوجها . . فقدت الرجل الذى كان يحيطها بذراعيه القـويتين وقلبـه الحنون . . أحست بالفراغ الكبير وانقبض صدرهـا وتألم وتحـركت فى حجرات البيت تـرتب بعض الأشياء الصغيرة . . ثم سمعت جرس الباب الخارجى يدق مرة أخـرى . . وتناولت الثلج من البائع ووضعته فى الثلاجة . . . ودخلت على خادمتها المطبخ . .

وكانت سعاد تعد من الصباح الباكر لطفلها طعاما شهيـا . . وبعض الحلوى . . كانت تود أن تحتفل باليوم الأول لدخوله المدرسة . .

وفرغت من كل شىء وهى لا تزال تشعر بالوحشة وانقباض النفس . . وتحركت إلى التليفون . . وأدارت القرص . . فوجدت نمرة المدرسة مشغولـة . . فعاودت الـدق . . فسمعت انشغال الخط مرة أخرى . . فجلست مكتئبة على كنبة . . وفى يديها خيوط من الصوف تنسج بها «بلوفر» لابنها . . وأخذت تعمل وكانت يداها تتحركان حركة آلية دون وعى ودون حس . . وبعد قليل ألقت خيوط الصوف وعادت تدق للمدرسة . . وشعرت

بالخجل يصعد إلى وجنتيها وهى تحادث الناظرة . وتسأل عن ميعاد الانصراف للمرة الرابعة . . وقبل الميعاد بساعة ارتدت فستانها الأسود وخرجت مسرعة إلى المدرسة .

وزاغت عيناها فى مئات الأطفال متناثرين كالزهور فى حوش المدرسة ولكن باصرتها تركزت فى دائرة زرقاء رسمت بها اسم حلمى على صدره ووجدته أخيرا . . فجرت إليه واستقبلته بين ذراعيها . .

وكان الغلام مسرورا بلقاء أمه . . وقد انفرجت أسارير نفسه عندما وجدها على الباب . . وعاد يشعر بعطف الأمومة يغمره ويشيع البهجة فى عالمه الصغير .

* * *

وكان عثمان خطيب سعاد يشغل وظيفة رئيسية فى إحدى الشركات بالقاهرة ويعمل فى الشركة فى الصباح والمساء . . ومع ذلك . . . ومع أن سعاد تسكن بعيدة عنه فقد كان يزورها فى بيتها يوميا منذ أعلنت خطوبتهما ، فقد بهره جمالها وسحره فتعلق بها وأصبح لايغيب عنها . . وكان يقضى معظم الوقت فى البيت لأنها كانت ترفض دعواته إلى السينما أو إلى نزهة فى الخارج . . . فلا تزال تلبس السواد ولم ينصرم عام على وفاة زوجها . . كما أنها لاتحب أن تخرج وتترك الغلام وحده فى البيت . . وكان عثمان يستاء لرفضها الخروج معه . . ولكنه كان يلتمس لها العذر . . ويضطر إلى ملازمتها فى البيت والسهر معها . . . وكان يراها أمامه جميلة رقيقة المشاعر عذبة الحديث . . تجمع كل مفاتن الأنثى . . ولكنه كان يستاء فى أعماقه لأن ظهوره فى جو حياتها لم يدخل السرور على قلبها . . إذ كانت لاتزال حزينة . . فهو لم يهزها ولم يمسح أحزان قلبها . . ولم يعد إليها إشراق وجهها . . . وكان يراها مشغولة بابنها أكثر منه . . كان يراها مشغولة بإطعامه . . وراحته والذهاب به إلى الفراش . . وإذا ارتفعت حرارته نصف درجة . . شغلت بتمريضه والعناية به وتستدعى له أكثر من طبيب . . ولكن عثمان كان يحتمل هذا بصبر ويعرف أن الحياة ستغيرها بالتدريج . . وأنها ستصبح له وحده بعد أن يمتلكها . .

* * *

وكان يجلس معها بعد العشاء فى الشرفة ويتمتعان بجو الخريف المنعش وبالهدوء فى هذه المنطقة وبالمنازل الجميلة الحديثة التى حول البيت . . وبالاضاءة الخافتة فى الشارع . . فاذا طلع عليهما القمر وغمرهما بضوئه وسحره تفتحت مشاعره للغزل . . فيناغيها . . ويناجيها ويمسك راحتها البضة بيده الملتهبة . . ويضغط عليها ويمسح على ذراعيها . فاذا راح فى سكرة الحب . . واقترب منها ليمسح على شفتيها بشفتيه ويبرد النار التى تشتعل فى قلبه . . . دفعته عنها برفق وهى تهمس :

ـ حلمى صاحى . . .

وكان يتألم لهذا الرفض ويتعذب . . . وصرخ من أعماقه وهى تمضى عنه إلى فراش الغلام . . .

- جته موته . .

ولكنها لم تسمعه . .

***

وكان عثمان يمضى يوم راحته الأسبوعية فى بيت سعاد ويجىء مبكرا ويحاول ملاعبة الغلام ومداعبته . . ولكن عطفه لم يكن طبيعيا . . كان متكلفا . . كان مجاملة للأم . . ولكن سعاد لم تكن قد خبرت بعد طباع خطيبها أو وصلت إلى أعماقه . .

واقترب يوم الزفاف . . تحدد فى الخميس الأول من الشهر التالى وكان الخطيبان فى فرحة وسعادة متصلة . . وكان عثمان يتعشى مع سعاد كل ليلة ويبقى فى بيتها إلى منتصف الليل . .

وذات ليلة تعشى حلمى ونام مبكرا . . وعندما جاء عثمان لم يره كما اعتاد ، وكانت سعاد فى هذه الليلة سعيدة . . وازينت وبدت فى ثوب من الساتان الوردى خلعت السواد وبدت كأجمل عروس رأتها العين . .

وكانا يتحدثان فى وفاق ومحبة . . وقررا الانتقال فى أول الشهر إلى شقة جديدة على كورنيش النيل لتكون العش الهنى . .

وبدا كل شىء ممتعا وسارا فى تلك الساعة . . وعندما ضمها إلى صدره ليقبلها لم تمانع أو تعتذر بوجود حلمى . . ولفرط السعادة التى غمرته وهو يعانقها نسى أن حلمى موجود فى البيت أصلا .

ثم خطر فى ذهنه خاطر . . .

لماذا لايدخل حلمى أية مدرسة داخلية . .

قرر أن يعرض عليها هذا الخاطر بعد الزواج . .

وجاء عثمان إلى بيت سعاد ذات صباح مبكـرا يصحبها إلى السـوق لشراء بعض الأشياء اللازمة لهما فى البيت الجديد . . وكان حلمى قد ذهب إلى المدرسة . . وفيما هما جالسان فى الصالة أحسا بهزة عنيفة فذعرا وارتجفا . . وعرفا أنه زلزال . .

وبعد أن مرت الهزة العصبية . . جرت الأم إلى التليفون تتحدث مع المدرسة فوجدت الخط مشغولا . . فظلت تتحرك فى البيت دون وعى وهى شاردة وقد ساورها القلق القاتل .

وبعد قليل سمعت من الجيران أن الزلزال أحدث ذعرا فى بعض المدارس ومات بسبب هذا أطفال . . فابيضت عيناها من الفزع وخرجت بملابس البيت تعدو إلى المدرسة . .

وكان من يراها وهى تجرى فى الشارع يتصور أنها جنت فقد كانت تجرى على شريط الترام ولا تحس بالسيارات المسرعة التى تكاد تدهسها . . ومع أنها منذ نزلت من البيت كانت تود أن تركب «تاكسى» . . ولكنها لم تركب ووجدت طاقتها العصبية تدفعها إلى الحركة والعدو . . وهى لاتحس بشىء مما حولها وبعد عشر دقائق رجعت إلى نفسها وركبت «تاكسى» إلى المدرسة .

وبقى عثمان فى البيت لم يخرج وراء سعاد . . وكان يود أن يسأل الناس ليتحقق من أن الزلزال وقع فعلا فى المدرسة التى فيها حلمى بالذات . . . وأن البناء انقض على الغلام وحده . . كان يود أن يتأكد من هذا وجعله هذا الخاطر سعيدا ومبتهجا وظهر البشر على وجهه .

* * *

ودخلت عليه هدى ولما علمت بذهاب سعاد إلى المدرسة . . قالت له :

ـ كان لازم تروح معاها . . ياعثمان بيه . .

ـ علشان إيه . . ؟

ـ وجودك يريح أعصابها . .

ـ دى طارت من غير ما تتكلم . .

ـ طبعا . . . أم . .

ـ اضربى للمدرسة علشان نطمئن . . دى غابت . . . باين مات . .

ـ حرام عليك . . تقول كده . . وتجيب سيرة الموت على لسانك دول أطفال . .

ـ بصراحة . . مش حا أستريح أنا وسعاد ما دام الواد دا عايش . .

ـ ليه . . تقول كده . .

وكان وجهه يفيض بشرا للأمنية التى يتمناها فى تلك اللحظة . . ويرجو أن تكون قد تحققت . .

ـ تفتكر ولا قدر الله إن جرى حاجة . . حتتجوزك سعاد . . .

ـ طبعا . . . وتكون كلها لى . .

ـ لأ . . . انت غلطان . . ودا تفكير حيوان مش إنسان . . سعاد حتتجوزك علشان تربى الواد . . وتكون أب له . . قبل ما تكون جوز لها انت ما تعرفشى سعاد . . تتمنى الموت لابنها فى الساعة المشئومة دى . . حرام . . لازم تنزل حالا وراها . . وتخليها تحس بأنك راجل نبيل . . وإنسان .

وكانت سعاد قد دخلت البيت وبيدها حلمى . . وسمعت الحديث كله . . سمعت كل ما قاله عثمان . . . ولكن عندما دخلت عليهما الغرفة لم تظهر ذلك . . كانت فرحتها بعودة ابنها تطغى على كل عواطفها ولم يستطع عثمان أن يخفى انقباضه لنجاة الغلام فاسود وجهه . . ثم فتح فمه دون أن ينطق بحرف .

ودخل حلمى الغرفة واحتضنته هدى . . . وقبلته . . وأخذت المرأتان تتحدثان وتقصان ما وقع لهما . . .

* * *

وكان عثمان فى صمت ووجهه أبيض . . وكانت سعاد تنظر إليه وهو جالس باحتقار شديد ومقت أشد وتود لو تطرده من بيتها . .

وأخذت هدى تضحك وتحاول أن تعيد البهجة إلى الخطيبين . . بكل ما تستطيع المرأة من حيل . . ولكن بعد أن خرجت هدى من البيت عاد الوجوم والصمت . . وتكشفت نفساهما . . وأصبح كل منهما يرى وجه صاحبه خالصا من كل قناع وكل زيف . .

* * *

وتحدث عثمان وردت عليه سعاد فى فتور . . ولما نهض ليخرج لم تستبقه كعادتها للغداء . . بل فتحت له الباب على مصراعيه . .

وعلى بسطة السلم ألقت وراءه بشىء صغير . . سمع رنينه وانحنى والتقطه . . وعندما أدار رأسه إليها . . كانت فى تلك اللحظة قد أغلقت الباب فى وجهه بعنف . .

الثعبـــان

مررت على الشيخ عبد العليم بكر وهو جالس تحت شجرة من شجر النبق قريبا من السكة الزراعية وحوله بعض الفلاحين . . وكان يحاسبهم على مياه «الوابور» فدعانى إلى مجلسه لأشرب القهوة ولأشترك معه فى الحساب .

ولما كنت عطشان وتعبا من المشوار الذى قطعته بالركوبة فقد ملت إلى الظل لأن الحرارة فى ذلك اليوم كانت شديدة والهواء اللافح يشوى الوجوه . . وكانت معى جريدة الأهرام اشتريتها من محطة بنى حسين فأخذ الشيخ عبد العليم يقرأ الأخبار ويسألنى عن سبب فتح بورصة القطن . . وعن تعميم مياه الشرب فى القرى وعن الجمعيات التعاونية لمعاونة الفلاح . . وعن المجمع الذى دقوا له الحديد فى شرق البلد . .

وكان الفلاحون يستمعون إلينا ولا يعلقون بشىء على ما نقول . . لأننا فى نظرهم متنورون وهم لا يرتفعون إلى مستوانا فى الإدراك والفهم . .

وتوقف الشيخ عبد العليم عن الحديث ورأيته يرقب شخصا يتخطى مجراة الوابور . . وخلفه خفير الزراعة عبد البصير وعرفت الرجل عندما اقترب فقد كان مأمون عبد الرحمن وكان من خيار الفلاحين فى عزبة الشيخ عبد العليم ومن زراع أرضه .

وابتدره الشيخ عبد العليم بقوله :

- أين الفلوس يا مأمون ؟
- اتفضل . .
- والجنيه . . . ؟
- أنا زارع فدان وتلت بس على وابورك يا عبد العليم بيه . .
- انت زارع فدان ونص . . والدلال قاس زراعتك . . وكمان اسماعيل أفندى . . كل ميه لازم المناكفة دى . . روح هات الجنيه .
- معنديش غير دول يا عبد العليم بيه . . .

- خذ فلوسك ولما تكملهم هاتهم مع بعض .
- أجيب منين . . . ؟ أبيع أولادى . . ؟
- روح بعلك كيلتين قمح . . ولانعجة . . ولا عنزتين . . من دا اللى داير ياكل دره الناس . .
- أنا معنديش غير دول دا حقك وزيادة . .
- بتقول إيه
- حقك . . يا بيه .
- من الصبح حنحجز على زراعتك وجاموستك . .
- انتو حتشترونا وتبعونا بأرضكم ووابوركم . . إيه الذل دا
- بتقول إيه يا كلب . .

ونهض الشيخ عبد العليم وتناول الرجل بعصاه . . ضربه على وجهه وصدره . . ضربا مبرحا . . وأبعدناه عنه . . وعاد الشيخ عبد العليم إلى مجلسه وهو لا يزال يزمجر من فرط الغضب . . ويهدد المسكين بطرده من العزبة . .

***

وأخذنا نهدىء من فورة الشيخ عبد العليم ونخفف غضبه بكل الوسائل . . وكانت الشمس قد تجاوزت السمت واشتدت حرارة يوليو . . وبدت كأن ألسنة من النار تخرج من الأرض .

وكانت الأرض منبسطة أمامنا وجذور القمح لاتزال بادية فى الأرض البور أما الحقول التى زرعت أذرة فقد كانت مخضرة ولا تزال عيدانها الصغيرة تقاوم الحرارة الشديدة والجفاف . .

وكان النيل قريبا . . ولكنه منخفض جدا والأرض عالية فلم يكن الفلاحون يستفيدون من مياهه فى الزراعة ولكنهم كانوا يشربون منه ويرسلون مواشيهم لتشرب وتستحم فيه . . ولهذا عملوا طريقا صغيرا «مدقا» ينحدر إلى النيل تنزل منه النساء لملء البلاليص . . والمواشى لتستحم .

وكان حسن ابن الشيخ عبد العليم قد هبط مع غلامين من العزبة إلى النيل من هذا المنحدر وأخذوا يلعبون فى الطين ويبنون منازل على الرمال . .

ولم يكن الشيخ عبد العليم يمنع ابنه من هذه اللعبة لأنها اللعبة الوحيدة التى يلعبها وهو يرافق والده إلى العزبة .

وكان الشيخ عبد العليم قد فرغ من محاسبة الفلاحين وانصرفوا لحالهم . . ونهض

ليصلى الظهر وفجأة سمعنا غلاما يصيح :

- الحقوا حسن .. ابن عبد العليم بيه ..

وتصورناه غرق .. فجريت مع والده إلى الشاطىء وخلفنا كل من سمع الخبر من الفلاحين ..

وعندما وصلنا إلى رأس المنحدر ونظرنا إلى أسفل .. تسمرت أقدامنا واتسعت أحداقنا من الرعب وخشينا إن قمنا بأى حركة أن تقع الفاجعة فقد كان هناك شىء أرقش ضخم .. قد التف حول نفسه واقترب من الماء ليبترد .. وكان حسن قد التصق بالجدار عند الشق الذى خرج منه الثعبان ومن الذعر الذى أصابه من الصياح ومن الحركة ..

ولم نكن ندرى عندما وقع نظرنا عليه أميت هو أم حى .. فقد كان متخشبا لا يطرف .. وكان الثعبان يقطع عليه الطريق فهو لا يستطيع النزول إلى الماء أو الصعود إلى الأرض .. ولم يكن فى الماء شىء .. سوى جاموسة ضخمة .. وكانت جاموسة مأمون .. ولم تكن تعير بالها لشىء مما حولها .. كانت باركة فى الماء وعلى خط مستقيم مع الثعبان .. وخشينا أن تتحرك فتدفع الثعبان إلى الحركة . فتقع المصيبة وأخذنا بالمنظر وصعقنا فقد كان الثعبان أرقش ضخما ولم نر لطوله وضخامته مثيلا .. كان كأنما خرج من الجحيم ..

ولم نكن ندرى كيف نتحايل ونقتله لأن أى حركة تنبهه سيكون معناها .. موت الغلام . وشعرت كأن سيالا كهربائيا يسرى فى جسمى كله فارتعشت .. وخيل إلى .. أن هناك أكثر من ثعبان .. يزحف على الأرض التى تحتى .. ويخرج من الشقوق .. فكنت أرفع رجلى وأخفضها وأنفض قدمى .. وأنا واقف وتلفت حولى فى ذعر .. وتصورت أحد هذه الثعابين قد التف حول عنقى .. وفى غمرة هذه التطورات المفزعة ألقى أحد الفلاحين حجرا ضخما على الثعبان .. وكان من المحتمل جدا أن يمضى كل شىء فى سكون لولا هذه الحركة الطائشة .. إذ إن الثعبان كان سيعود إلى جحره دون أن يؤذى أحدا ولكن بعد الحجر الذى ألقى عليه وأخطأه .. تحرك ورفع صدره ورأسه لينتقم .. واتجه إلى الغلام .. وصاح الجميع واضطربوا وصاح الشيخ عبد العليم وهو يمد مسدسه بيد مرتعشة ولا تنطلق منه النار :

- اضرب .. ياحسان اضرب ..

- الرصاصة حتصيب ابنك والجاموسة .. ولا أحد يمكن أن يصيب رأس الثعبان وهو يتحرك هكذا

- اضرب ياواد اضرب

وغشيتنا الغاشية . . ولم نعد نرى وأصبح الغلام بين فكى الثعبان كما صور لنا الذعر والاضطراب . . وفى تلك اللحظة الحاسمة دوت رصاصة من خلفنا . . رصاصة واحدة . . وسقط الثعبان والجاموسة معا وتلفتنا إلى مصدر النار . . فرأينا مأمون . . واقفا على الجرف وحده . . وبيده بندقيته القصيرة . .

وكنا جميعا نعرف أنه لا أحد غيره يمكن أن يطلق مثل هذه الرصاصة . . ويصوب مثل هذا التصويب . . لا أحد غيره على الإطلاق

***

وعندما ضم الشيخ عبد العليم ابنه إلى صدره وأخرج ثمن الجاموسة لمأمون . . رمى مأمون الأوراق المالية على الأرض باحتقار وانطلق فى الطريق وحده حانيا رأسه كأنه ما فعل شيئا . . .

ولم أر الشيخ عبد العليم محتقرا ذليلا كما رأيته فى تلك الساعة

هبط حسين من القطار وخرج مع الركاب من النفق إلى الرصيف . . وسره أن المحطة مزدحمة وأن القطار وصل فى الليل . . فشعر ببعض الاطمئنان واستطاع أن يسير فى الميدان دون أن يتلفت ودون أن يرقب كل عسكرى فى الشارع حتى ولو كان من عساكر المرور .

ولكن عندما خرج من الميدان وسار فى شارع عماد الدين عاوده الخوف وتصور أن كل مار فى الطريق يشير إليه وأن المخبرين ركبوا معه القطار من الصعيد وهم يتبعونه عن بعد ويترسمون خطواته . . وقد تركوه ليشعروه فترة قصيرة بالأمان . . ولكن الحبل فى أيديهم وفى اللحظة الحاسمة سيقبضون عليه ويعيدونه وفى يديه الحديد إلى ديروط . .

وكان منذ خرج من المحطة يود أن يركب سيارة . . ولكنه لم يكن قد قرر أين سيقضى الليل . . ورأى أن يسير . . وأن فى حركة جسمه فى الشارع تنفيسا عن مخاوفه . . فقد كان جالسا فى القطار دون حركة كالمشلول . . فوقع تحت تأثير القلق المدمر . . قضى ست ساعات كاملة فى عذاب لا يدركه عقل . . أما الآن فقد رأى أن يتحرك ويسير فى الليل حتى يختار المكان الذى سينام فيه .

***

وعلى ناصية شارع نجيب الريحانى رأى رجلا ضخما يرتدى الملابس البلدية وبيده عصا صغيرة يعبر الشارع ويتقدم نحوه . . فأيقن أنه مخبر من البوليس . . وشعر بخوف قاتل وحقد شديد . . وكان يخشى أن يقبضوا عليه فى الشارع ويجعلوه محط أنظار الناس وسخريتهم وفضولهم ساعة كاملة من الزمان . . كان يود أن يقبضوا عليه وهو نائم فى الفندق . . يوقظونه ويأخذونه . . وليذهبوا به بعد ذلك إلى المشنقة . .

وعندما أصبح هذا الرجل الغريب على قيد ذراع منه كور حسين يده ليلكمه . . ليضربه ضربة قاتلة .

وعجب لأنه استساغ القتل . . وعجب أكثر للحقد الذى برز فى صدره فجأة على كل المخلوقات البشرية . . وعلى هذا الرجل بالذات وود لو أن معه المسدس الذى ألقاه هناك فى السوق . . ليفرغه فى صدره . . وعندما سأله الرجل عن الساعة كان حلقه قد جف من الغضب والانفعال فحرك شفتيه دون أن يخرج منهما أى صوت . .

***

وفى ميدان مصطفى كامل كان قد استبعد عن ذهنه فكرة المبيت فى الفنادق إطلاقا . . لأن أسماء النزلاء تعرض على البوليس . . كما استبعد المبيت عند بعض أقربائه المقيمين فى حى السيدة . . لأن رجال البوليس فى المركز سيعرفونهم . وكانت رجلاه فى الواقع تحملانه إلى جهة يشعر عندها بالأمان ولأجل هذا ركب القطار وهرب . . فبعد أن عبر الميدان وسار فى شارع قصر النيل أدرك لماذا يسير فى هذا الحى أنه كان يسكن وهو طالب فى الجامعة عند سيدة أجنبية تقيم فى شارع قريب . . فذهب إليها ليقضى عندها الليل . . وكان خير مكان يختفى فيه عن الأنظار .

***

وقرع باب مدام رجينا . . وقادته إلى الداخل وهى مسرورة بعودته فقد كانت تحبه وعاش معها خمس سنوات فى سعادة تامة . . وقالت بعد أن استراح قليلا فى البهو :

– سأعد لك غرفتك ومنذ سافرت رأيت ألا أسكن أحدا . . فليس من السهل العثور على رجل نبيل أو سيدة محترمة . . وأنا الآن مستريحة وحدى . .

– لا داعى لأن تتعبى نفسك . . سأنام فى أى مكان حتى على هذه الأريكة .

– إنك بادى التعب ويجب أن تستريح . . راحة تامة .

***

وأعدت له الغرفة وكانت تروح وتجىء أمامه جميلة مشتهاة كما كانت . . ولكنه لم ينظر إليها هذه المرة كأنثى . . لأن صلته بالعالم والناس قد انقطعت . وماتت رغباته منذ تلك الساعة المشئومة . . ولم يعد يصلح لأى شىء . . إنه حطام يتحرك بقوة الدفع وبعد قليل سينهار كلية ويتوقف عن الحركة . .

***

ورأى بيتها كما تركه هادئا جميلا . . ورآها تضع الكتب على الرفوف فى ردهة البيت وفى غرفة النوم . . حتى فى الحمام . . ففى كل مكان كانت تقرأ . . وكان يهديها الكتب وتهديه . . ولكن الكتب والعلم وكل حضارة البشرية لم تمنعه من القتل . . !

ورأته جالسا على الكرسى وقد خلع سترته . . وظهر قميصه ملوثا بالغبار والعرق .

- أليس معك بيجامة . . ؟

- لا . . جئت لليلة واحدة وسأنام كما أنا . .

- كيف تخرج فى الصباح بهذا القميص اخلعه لأغسله وأكويه لك .

- لاداعى لتعبك والأمر يستوى عندى . . . فهذه ليلتى الأخيرة . .

- هل قررت الانتحار . . ؟

وضحكت . . . وأضافت :

- لماذا لم تسأل عنى طوال هذه المدة . . هل استطبت الحياة فى الريف إلى هذا الحد . . ؟

- ليتنى ما ذهبت . . .

- لماذا تبدو حزينا ؟ هل خسرت فى القطن . . . ؟

وهمس :

- خسرت الحياة . .

ولم تسمعه .

وأخذت منه القميص وذهبت لتغسله . . وكان قد تمدد على الكرسى محاولا أن يرخى أعصابه المشدودة . . ورأى أن يغتسل ليزيل غبار السفر فدخل الحمام . .

وفعل الماء البارد فعله فى جسمه ونفسه . فانتعش . . وعاوده الأمل فى الحياة . . .

***

وحدث نفسه بأن أحدا لا يستطيع أن يثبت عليه أى شىء . . . فقد كان السوق مزدحما . . وكان هناك كثيرون من عائلته وعائلة الرجل الآخر . . وما من إنسان راه وهو يطلق النار . . ما من إنسان . . وأخذت تدور فى رأسه هذه السوانح والأحلام . .

***

ورأته رجينا بعد أن غسلت القميص ونشرته لا يزال متمددا على الكرسى وقد ألقى رأسه إلى الوراء وأغلق عينيه . . فحسبته قد نام وتركته يأخذ راحته وذهبت إلى غرفتها لتنام . . وأطفأت النور فى البيت وسمعت بعد قليل جرس الباب الخارجى يدق بعنف . . فقامت وهى تعجب للطارق فى مثل هذه الساعة . . فلا أحد يطرق بابها فى الليل . . وفتحت الباب . . ووجدت ضابطا من البوليس على العتبة . . وابتدرها بقوله . .

- دا بنسيون مدام روز . . . ؟

- البنسيون فوق . . . فى الدور الرابع .

واعتذر الضباط وطلع السلم . . وأغلقت السيدة الباب وعندما استدارت رأت حسين يقف على باب غرفته . . وفى عينيه نظرة غريبة مرعبة وكان وجهه جامدا متصلبا . .

وعندما ترك مصراع الباب دار وسقط . . فتلقته رجينا على صدرها ولم توجه إليه أى سؤال وكان يرتعش من الخوف . . ويتصبب جسمه عرقا . . . ولما هدأ قليلا فتح فمه ليتكلم . . فوضعت أناملها على شفتيه . .

- لا داعى لأن تتكلم . . أنا أعرف كل شىء . . منذ دخلت . .
- تعرفين أننى قـ . . .
ويحث فى ذهنه عن كلمة قاتل بالفرنسية فلم يوفق . .
- أعرف أنك مطارد من البوليس . . . لأنك تشتغل بالسياسة . .
- لا . . ليس الأمر كما تتصورين . .

- ماذا . . هل سرقت خزانة عمك . . إنه بخيل ويستحق السرقة . . وكان يرسل لك المصاريف بمقدار . .

ورأت أن ترفه وتخفف عنه لأن حالته كانت محزنة . .

- الأمر أفظع من هذا . .
- ماذا . . . ؟
وفتحت فمها مرتاعة . .
وقال بصوت خافت :

- وقع لى حادث فى سوق القرية أمس . . رأيت رجلا . . يتعارك مع أخى ويخنقه . .

- ضربته بعصى . . ؟

- لم تكن معى عصا . . عندما رأيت لسان أخى المتدلى . . لم أشعر بنفسى وأنا أطلق النار على الرجل .

- وأصبته . . . ؟

- لم أشعر ولا أدرى كيف حدث هذا . . كل إنسان يمكن أن يكون قاتلا إذا مرت عليه لحظة رهيبة من الحياة . . كل إنسان . .

وأخذ يبكى وينتفض . .
وأشعلت سيجارة وهمست . .

- قتلته . . ؟

وكان صوتها ضعيفا . . يرتعش . .

- أجل . .

- وأنت الآن قاتل . . كأى انسان يقتل ليسرق . . ويقتل لمجرد القتل . .

وابتعدت عنه ونظرت إليه مرتاعة . .

- تخافين منى . . . ؟

- بالطبع . . ولولا تعاستك . . لولا أنك أشقى إنسان على ظهر الأرض لصرخت وملأت الدنيا صراخا . .

- كل إنسان يمكن أن يكون قاتلا . . إذا مرت عليه لحظة رهيبة من الحياة . .

- لا . . لا تقل هذا . . إنك شقى معذب . . وهل حسبت بعد أن ركبت القطار وهربت أن الأمر انتهى . . لا . . إن العذاب يأتيك من داخل نفسك . . . لقد أنهيت حياة إنسان على صورة بشعة . . وكيف تعيش بعد الجريمة وأنت رجل متعلم مهذب . . واجه المصير بشجاعة . .

- سأعود غدا . .

- أجل . . عد فى أول قطار وسلم نفسك . . هناك . .

- وهذه ليلتى الأخيرة . .

- وأنا مسافرة غدا مثلك . . راحلة إلى الخارج . .

- كم أشكرك . . إن قدمى ساقتنى إليك وأنا لا أدرى . . لم أكن أدرى أولا لماذا أسير فى حى قصر النيل . . وهذا من أسرار الحياة إن عقلى فكر فيك وأنا لا أدرى منذ ركبت القطار . . أنت الإنسانة الوحيدة التى تقدر شقائى وأضع رأسى على صدرها . .

- والآن حاول أن تنام فقد تعذبت كثيرا . . .

***

وقال وقد شعر بالأمل فى الحياة :

- ربما يكون الرجل قد جرح فقط ولم يمت . . فقد هربت دون أن أعرف ما حدث . .

- ربما . . هذا أمل جديد . . ونور فى الظلام . .

- لقد رأيت وأنا مغمض عينى فى تلك اللحظة الرهيبة الخيط . .

- أى خيط . . . ؟

- الخيط الذى يحركنا . . . الخيط الذى لا يرى . . .

- رأيته . . ؟
وضحكت . . .
- أجل . . بعينى هاتين . .
- إنه سر الحياة . . فكيف تراه . . وكيف يراه إنسان . .
- أى شيء رأيت إذن . . ؟
- لا أعرف . . ولم تمر على هذه اللحظة فى حياتى . . ولا أحب أن تمر . .
وكانت تبتسم بسمة خفية . .
- إن الرجل حى . . لم يقتل . .
- ربما . . مادام هذا هو احساسك . .
- إنه راقد فى المستشفى . . وعليه ضمادات . . وهويتحرك الآن وقد غفر لى طيشى وجرمى . . لأنه نبيل . .
وأعطته قرصا منوما . .

***

وفى الصباح عاد حسين فى أول قطار . . ورآه الناس يخرج من المحطة ويتجه مباشرة الى المركز . .

تقع حانة منيرفا فى الشارع الرئيسى فى حى الملاهى والحانات . . ولكنها لم تكن من طرازها . . كانت مستطيلة وهادئة ولها ساحة رحبة وشرفة تطل على الطريق .

وكان أكثر المترددين عليها من الأشخاص الذين يتناولون وجبات الطعام فى الخارج . . فقد كانت مشهورة بالكفتة الرومانى والمكرونة الإيطالى وأصناف المشويات الشهية ، وكان صاحبها يديرها برأس الفنان وعقله .

وكنت أذهب إليها كل مساء لأتعشى وأشرب القهوة الجيدة . وأكتب تحت ضوء مصباحها وأقرأ . . وأشاهد الحياة تجرى أمامى من شرفتها الواسعة . .

وكنت منذ قدمت من الريف أحس بالفراغ وأشعر بالنقص . . لأنى أصبحت بصورة لاتقبل الشك أعيش على هامش الحياة . . وأكتفى بالعمل الروتينى الممل فى الصباح . . دون أن أحرك مشاعرى أو أن أتقدم خطوة .

وبعد الحياة الأصيلة وسط الفلاحين فى عزبهم وكفورهم . وبعد مشاركتهم فى الطعام والشراب والعمل الشاق فى الأرض وبعد مخالطة الأخيار والأشرار منهم والغوص فى الأعماق . . جئت إلى هنا لأنظر إلى الحياة فى المدينة من وراء زجاج . .

أصبحت لا أرضى عن هذه الحياة . .

وكنت بحكم طباعى الريفية المتأصلة أنفر من أهل المدن ولا أستطيب صحبتهم ، ثم اخذت أحاول أن أرفع هذا الحاجز . . بالتدريج . .

وكما يحدث لكل إنسان يتردد على مكان معين . . فإنى قد وجدت نفسى بعد أسبوع واحد أعرف كل الوجوه التى تتردد على المشرب .

كنت أجد على «البار» رجلا ضخما عظيم الكرش . كان السيد عبد الغفار يدخل فى الساعة العاشرة تماما . . ويجلس إلى الرخامة العالية . . وأمامه كؤوس الشراب . . ولم يكن يأكل أبدا . . كان يشرب فقط . . ويشرب بشراهة . . يشرب إلى درجة تفوق كل مدارك الإحصاء خيل إلى أنه يشرب فى الليلة الواحدة . . «دنا» ممتلىء الحافة ، ولم يكن معه رفاق . كان يأتى ليسكر وحده . .

وقبل منتصف الليل بقليل كان يحصى الموجودين بعينيه ويطلب لهم الشراب . ولما يجدنى لا أشرب يقول للساقى :

- حسن . . لماذا نسيت السيد ؟

فألتفت إليه أقول شاكراً :

- ارجو إعفائى . . إننى لا أشرب . .

ويحدق فى وجهى بقوة :

- ولماذا تجلس هنا . . إذن . . ؟

- لأن المكان جميل . . ويريح أعصابى . .

- إنك كالذى يصلى طول النهار . . ويذهب فى الليل إلى وجه البركة . . !

وأعجبت النكتة بعض الحاضرين فضحكوا وضحكت معهم . .

وقال بإصرار :

- لابد أن تشرب شيئا . . ولو زجاجة صودا . .

وتحت إلحاحه الشديد طلبت من حسن «شوبا» من البيرة . . وأبقيته أمامى ممتلئا إلى النصف . . حتى يعفينى من غيره . .

وبعد نصف الليل ، يطلب عبد الغفار من حسن أن يحضر له عربة ويركبها وهو لايكاد يتماسك ويضع فى يد حسن كل ما بقى معه من فكة . .

وبعد ربع ساعة من خروجه أحمل كتبى . . ويأخذ حسن فى إغلاق الأبواب . . وكنت أتخذ الطريق إلى بيتى فى الحلمية الجديدة ماشياً على الأقدام . . وكانت تلك الجولة الليلية تطيب لى لأنها رياضة عضلية للجسم المحبوس بين أربعة جدران . ولأنى كنت أستطيع أن أتبين جمال القاهرة بعد أن تنقطع الرجل . تبدو العمارات والشوارع تحت الأضواء الساكنة أمتع ما تقع عليه العين .

وحدث وأنا أمضى متمهلا وكنت قد خطيت ميدان الأزهار . . وانحرفت فى شارع الفلكى . . أن رأيت رجلا يمشى أمامى فى تثاقل . . وكـان شكله مألـوفا لـدى . . ولما اقتربت منه وجدته عبد الغفار .

وكان قد استفاق من نصف سكره . . وقال لى إنه يسكن فى عمارة للأوقاف فى هذه المنطقة وإنه خلفها وراءه . . لأنه لم يشعر بالنوم . . بعد أن نزل من العربة . . طارت الخمر من رأسه . . فرأى أن يتجول لأنه يكـره البيوت . . وشعـرت بثقل الـوحدة عـلى نفسه المسكينة . .

وقال لى إنه مقطوع من شجرة وإنه بعد سنوات من الكفاح فى سبيل العيش وجد نفسه يعيش بغير أمل أو غاية مرجوة . . وقد جره اليأس إلى السكر . . وهو الآن يشرب ليموت . . لأنه لم يعد يستعذب الحياة .

ولم أشأ أن أسأله لماذا لم يتزوج ولماذا يعيش فى جفاف عيشة مظلمة .

لأن حياتى كانت جافة ومظلمة مثله ولأنى كنت لاأحب أن أسمع المواعظ ولا أحب أن ألقيها على الناس . . وتركت الرجل قبل أن أبلغ محطة حلوان .

* * *

وفى خلال هذا الركود والملال والفراغ الذى كنا نحس به ونعيش فيه . . اشتعلت نيران الحرب فجأة . . وتطورت الأحوال بسرعة عجيبة وأخذ روميل يزحف فى الصحراء متجها إلى الإسكندرية . وامتلأت مدينة القـاهرة بجيـوش الإنجليز وحلفـائهم وأخذوا يعربدون ويسكرون فى حاناتها . .

ولكن الخواجة أينـاس منعهم من دخول منيـرفا . . كـان يود أن يحتفظ بعمـلائه القلائل . وبهدوء ونظافة المحل .

وجعلنى هذا أكثر حبا للمكان فلم أنقطع عنه أبدا . .

وفى الوقت الذى كـان فيه جنـود الحلفاء السكـارى يحطمـون الحانـات والملاهى ويشتبكون فى عراك دموى مع السكان الآمنين فى قلب العاصمة . . كنا نحن الجالسين فى منيرفا نشعر بالهدوء المطلق وكانت كل القرائن تدل على أن هذه المجزرة البشرية ستنتهى بسحق الإنجليز واندحارهم . كانوا يولون الدبر . فى كل ميدان .

ولهذا تحمل الناس الظلام والغارات . . والجوع . . لأن الفرحة الكبرى بتحريـر الوطن والتخلص من شرهم . . آتية لا ريب فيها . .

ولم تكن حانة منيرفا بالمكان الذى يجلس فيه النساء . ولكن يحدث فى بعض الحالات أن تأتى سيدة مع رفقة لها . . أو تجلس وحيدة لتتعشى أو تشم النسيم .

وكنا نحس بوجودنا . ونشعر بالحيوية كلما دخلت فتاة . . وكان صحن الحانة متسعا وعلى الجانب الأيمن منصة . . كأنها خشبة مسرح قديم . . كانت ترتفع عن أرض الحانة بثلاث درجات . .

وفى هذا المكان المرتفع كنت أجلس . . وأشعر بالراحة .

* * *

وسمعت ضحكات عبد الغفار ذات ليلة وهو يتجه إلى الباب وكان خارجا قبل ميعاده . .

وقال لحسن :

- بلاش عربية الليلة عاوز أتمشى .

وكان بادى النشاط والحيوية وحيا وذهب .

وكانت الليلة شديدة الحرارة والساعة لا تعدو العاشرة فرأيت أن أذهب إلى سينما صيفية فى شارع عماد الدين .

وخرجت بعد الساعة الواحدة صباحا . . وسرت فى شارع محمد فريد . . وقبل أن أعبر شارع الساحة . . رأيت نفرا من الناس متجمعين على عتبة بيت فى الشارع . . ويتحدثون بصوت عال فنظرت فرأيتهم يحيطون برجل جالس على العتبة وهو فى حالة إعياء تام . .

وعرفت الرجل فقد كان عبد الغفار . .

وقبل أن أقترب منه . . سمعت من يقول :

- الأفندى مات . .

فارتعشت . .

- مات من السكر . . وفين العسكرى . . جاى . . طيب ياناس غطوه بحاجة . . حرام .

وقلت للناس إنى أعرف الرجل وأعرف بيته . . وبحثنا عن تاكسى ومر تاكسى نزل منه حسن وكان بعض الناس قد أخبره بما حدث فجاء على عجل

وحمل الرجل وذهب به سريعا . .

وعلمت فى مساء اليوم التالى أنه تكفل بمصاريف الدفن . . ولما أخرجت له مبلغا من جيبى لأعاونه فى هذه المصاريف . . قال لى وهو يبستم :

- مش ممكن . . انت فاكر . . أنا دفعت له حاجة من جيبى دى فلوسه . .

وهكذا بدا مثالا نادرا فى الوفاء . .

وحزنا على موت الرجل . . فقد كان يشيع البهجة فى المكان . .

***

وفى الساعة التاسعة من مساء اليوم التالى . . دخلت سيدة شابة الحانة وجلست إلى مائدة صغيرة ، وكانت جميلة وحسنها يهز المشاعر . . وشعرت بالأسى لأنها اختارت هذا المكان لتجلس فيه وهو ليس أكثر من بار .

وشعرت بالألم لأن شكلها لايدل على أنها تتردد على هذه الأمكنة العامة .

وطلبت طبقا من المكرونة وأخذت تأكل . .

وبعد أن أكلت وضعت الشوكة والسكينة فى الصحن . . ونظرت إلى قليلا فتأكدت من هذه النظرة أنها مصرية .

وكانت جميلة . . وجمالها يصرخ . . فتألمت لأنى رأيت هذا الجمال يخرج فى الليل وحده . . وسط الحرب والظلام . .

ولكنى استرحت لأن المكان كان لا يدخله عساكر من الإنجليز . .

ولما أعطتنى وجهها . . عدت إلى الكتـاب . . وفجأة بـرق أمام نـظرى شىء من الذهب . . وسمعت صوتا خشنا يقول بالانجليزية :

- تشترى هذه . . ؟

ورفعت وجهى عن اليد التى كانت ممسكة بالساعة إلى صاحبها . . فرأيت عملاقا ضخما من عساكر الإنجليز ولا أدرى كيف دخل من الباب . . ينحنى عـلى وهو مخمـور وحسبنى لم أسمعه فى المرة الأولى فعاد يقول :

- تشترى هذه . . ؟

- نو . .

قلتها سريعا ودون تفكير فى العواقب . . درت برأسى فى المكان فوجدت جسمه الضخم قد سد على جميع المنافذ . . ووجدت جميع من فى الحانة ينظرون إلينا وكأن على رؤوسهم الطير . .

وكان هو أقرب شىء إلى الممر . . فلم يستطع إنسان أن يتحرك من مكانه . . ونظرت فوجدت بجانبه طبنجة موضوعة فى جراب . . وخنجرا كبيرا مما تراه مع البوليس الحربى . .

ولمحت وهو يعيد الساعة إلى جيبه . . ثلاثة أشرطة على ساعده . . وشيئا فى حجم القرش كالشارة . وقال وهو ينحنى بكليته على المنضدة :

- إعطنى . . شلنا . .
- ليس معى نقود . .

قلتها بنفس اللهجة السابقة ونفس التوكيد . . وأحسست بعدها بهزة . ولم تكن منه فهو لم يتحرك من مكانه . وإنما كانت منى . . ارتجفت . . خرجت منى الكلمة كالقذيفة . . وندمت عليها . . وأسفت على حماقتى . . فقد كنت أستطيع أن أصرفه وأخلص حياتى بقروش قليلة وأخلص من كل المتاعب . .

ولكن الإنسان يرث بعض الطباع فى مثل هذه المواقف ويتصرف وهو واقع تحت تأثيرها . . فأنا لم أقبل التحدى . . ولا الاستكانة . . رفضتها وإن كنت أعرف أننى سأموت حتما . .

وفكرت وأنا أرفع رأسى فى الشىء الذى سيضربنى به هذا الوحش ثم رأيت أنه لن يستعمل شيئا أكثر من أن يرفعنى بين يديه ويلقينى على الأرض . . فأنا لا أتحمل أكثر من هذه الضربة . .

وقدرت قوته . . وكان يستطيع بسهولة أن يصرع ثورا . . وأن يطوق بذراعيه جميع الموجودين فى المشرب حتى يكتم أنفاسهم . . وتحرك إلى الخلف قليلا . . ثم تقدم وكانت عيناه فى لون الدم . .

وفى تلك اللحظة لا أدرى لم نظرت إلى الفتاة التى كانت تأكل فرأيتها تشعل سيجارة . . وتنظر إلينا فى ابتسام .

وفى غفلة من الرجل وهو منشغل بى . . تسلل معظم الذين كانوا فى داخل البار . . وبقيت وحدى أواجه العاصفة . . وعندما يدرك الإنسان اليأس ويعرف أنه ميت يتصلب جسمه ويفقد الإحساس بما حوله .

وهذا ما حدث لى . . وأنا أراه يضع يده على الخنجر . . وانتظرت الضربة . فأغلقت عينى . . ولما فتحتها وجدت وجها أعرفه يقف بين رأسينا . .

وقالت الفتاة . . وهى تربت على ذراعه . وتنظر إليه فى رقة :

- تعال . . ياجونى . . سأعطيك كل شىء . .

وكأنما صبت عليه ماء باردا . فتركنى وتحول اليها . .

ووقفت معه على المنصة تضاحكه . . ثم مشت به إلى حافة الدرج . . ودفعته وهو ينزل الدرجات بكل قوتها فانزلق وهوى بكل جسمه على البلاط .

وفى تلك اللحظة رأيت فى يد حسن قطعة من الحديد ، ضرب بها «كوبس» النور . . فغرقنا فى الظلام .

* * *

وفى اليوم التالى وجدت حانة منيرفا . . مغلقة . . والدكاكين التى بجوارها محطمة ولم أسمع لمن كان فيها خبرا . وحزنت على حسن . . وعلى الفتاة فقد كانت الشعلة التى أضاءت ظلمات حياتى . . وظلت الجذوة المشتعلة فى قلبى . . لم تنطفىء نارها أبدا . . وكنت أراها بوجهها الجميل وهى جالسة هناك فى وداعة . . ومن عينيها يطل الحنان والابتسام . .

ومرت سنوات . . والجذوة لم تتحول إلى رماد . .

وذات ليلة كنت أزور صديقا لى فى شبرا . . لأول مرة . . ولم أعرف موقع الشارع فوقفت حائرا قبل الدوران . . ثم رأيت نورا فى دكان سجاير صغير فتقدمت إليه . . ولما اقتربت من الدكان . . رأيت رجلا داخله . . وخيل إلى أنى أعرفه . . ولما دققت فيه النظر . . صدقت فراستى وتأكدت أنه حسن «ساقى» منيرفا وسألته عن شارع الشبراوى .

فنظر إلى ولم يعرفنى . . ثم خرج من الدكان إلى الرصيف فرأيته يمشى على عكاز .

ونقر على نافذة أرضية . . ثم سأل :

- أمينة . . فيه شارع هنا اسمه الشبراوى . . . ؟

وفتحت النافذة وأطل وجه . .

- أيوه . . تانى شارع بعد دكان عبد اللطيف . . على طول .

ومدت صاحبة الصوت رأسها . . فرأتنى .

وعرفت أمينة فى الحال . . فإن شيئا لم يتغير من وجهها . . احتفظ وجهها بجماله الآسر وكل ما فيه من فتنة . . وظل صوتها كما سمعته فى تلك الليلة .
ونظرت إلى طويلا ولما عرفتنى . . ابتسمت ثم غابت الابتسامة . . طـراها أسى أخرس .

فقد رأت الأهوال فى رأسى مشتعلة . . وارتجفت كما ترتجف كل أنثى . . وهى ترى الشباب يذهب من وجه الرجل . . الذى تعرضت للموت من أجله ومـا هو أشنـع من الموت . .

وبقيت أمامها لحظات صامتا أخرس . . ورأيت الدموع تتحرك فى عينيها . . ثم سمعت بكاء طفل فى الداخل . . فتركت النافذة ودخلت .

وكنت وأنا أخطو فى الشارع الطويل الخافت الضوء أود أن أسأل الرجل . . هل فقد ساقه فى تلك الليلة المشئومة . . أم بسبب الغارات . وأسأله عن أمينة وأعرفه بنفسى . ولكننى وجدت السؤال يشوه جمال المسألة . .

وكنت قبـل كل شىء أود أن تـظل الشعلة التى أشعلتها هـذه المرأة كـما هى . . مشتعلة . .

خرجت مديحة من منزل زوجها غاضبة تجر ولديها وراءها وركبت «تاكسى» إلى محطة سيدي جابر وكانت فى الطريق إلى المحطة لاتزال غاضبة .. ولكن ذلك لم يمنعها من النظر فى مرآتها الصغيرة .. لتصلح من شعرها المنفوش .. وتمسح عبراتها وبدت حركة من ابنها الصغير جودت فضربته على خده فى قسوة مرة ثم مرة حتى بكى الغلام وأعول .. ولما دخلت المحطة وركبت القطار .. لم تجد مكانا فى الحريم .. فجلست فى أول مقعد صادفته .. وكان فى العربة رجل يجلس وحده بجانب الشباك .. وسيدة بصحبة رجل آخر .. وكانت السيدة سمينة منتفخة .. وفمها ضاحكا .. أما الرجل الذى يبدو عليه أنه زوجها فكان يقرأ «الأخبار» ولا يعير باله إلى شىء مما حوله . وفى محطة دمنهور أطلت مديحة من النافذة لتشترى لطفليها «سميطا» فقد خرجوا جميعا دون إفطار .. فلم تجد أى بائع على الرصيف فحزنت وقالت لنفسها ..

«ما ذنب الأطفال .. حتى أعذبهم بالجوع ..»

ورأت الرجل الجالس وحده ينظر إلى الغلامين بحنان .. وكـان أنيقا مهـذبا .. بعكس الآخر فقد كان سوقيا كزوجها حمدى ..

وسمع الرجل حديثها مع طفليها عن «السميط» فأخرج بعض قطع من الساندوتش وقدمها .. ولكن الغـلامين استحييـا ورفضا .. فـألح عليهـما بشدة .. ولكنهـما رفضا أيضا .. فنظر إلى السيدة .. ورجاها أن تحملها على القبول .. فنظرت إليه شاكرة .. وتناولت القطع ووزعتها على ولديها .. ورفضت هى أن تأخذ .

«تفضلى ..»

«مرسى .. أنا فطرت ..»

فلم يلح . . وتناول الساندوتش صامتا . . ولاحظت خط المشيب الذى يزحف على رأسه . . والأسى المرتسم على الشفة . . وأدركت أنها أمام رجل خبر الحياة وغاص فى أعماقها ثم نفض يديه كلية من كل شىء . . وعاد يطفو على السطح . .

وظل يلاعب الطفلين ويضحك معهما . . ويحادثهما حتى اقترب القطار من بنها فصمت وتجهم وجهه . . وقد عجبت لما اعتراه فجأة .

وظلت واضعة يدها على خدها حتى دخل القطار محطة القاهرة .

* * *

ودخلت مديحة بيت والدها . . والأسرة جالسة إلى المائدة تتغدى وقرأت المفاجأة فى الوجوه . . ولكنهم لم يتوقفوا عن الطعام وبادلوها كلمات قليلة . . ولم يحسوا بوجود أطفالها . .

وكانت متعبة فدخلت غرفة المرحومة والدتها لتستريح . .

* * *

وسمعت وهى فى غرفتها أخاها الأكبر رأفت يتحدث كعادته بصوت مرتفع مزعج . . ثم انقطع صوته فأدركت أنه خرج إلى القهوة

وكان الوالد قد غدا كهلا . . ومنذ أحيل إلى المعاش . . وهو لايبرح الشازلونج فى غرفته . . ولا يرفع البطانية عن رجليه فى صيف أو شتاء . . ولاحظت من حاله أنه تغير ولم يعد له كيان فى البيت .

* * *

وعرفت أسرتها أنها غاضبة من زوجها . . دون أن تحدثهم عن ذلك بصريح العبارة . . ورأت أنهم يعاملونها كضيفة وليست كفرد من العائلة ولم تدرك ذلك إلا فى هذه المرة بعد أن ماتت والدتها وأبعدت من زياراتها . . ورغم هذا عاشت معهم . . فكانت تود أن تكون منهم كما كانت وهى فتاة قبل أن تتزوج . ولكن كل واحد من أخوتها كان منصرفا لشئون نفسه فى أنانية وجشع . . ولا يعنى بها ولايعطف عليها وأدركت أنها أصبحت دخيلة . . ولا مكان لها فى هذا البيت . . وأنها منذ أن خرجت منه قد غدت من غير أهله . . وأن مكانها الطبيعى . هناك فى الإسكندرية . . فى شارع تانيس . . ويجب أن تعيش مع زوجها مهما كان فظيعا وقاسيا . . وترضى بقسمتها ونصيبها فى الحياة . . وكانت

تنتظر أن يتحدث زوجها مع والدها فى التليفون لتجد مبررا للمصالحة ولكنه لم يفعل فمنعتها كبرياؤ ها أن تسأل عنه . . وكلما جاء البريد فى الصباح . . كانت تقلب فيه علها تعثر على رسالة بخطه . . ولكنها لاتجد شيئا . . فترتجف يدها حانقة . . ثم أخذت تلوم نفسها لأنها تركت بيتها نافرة لنزاع تافه يحدث بين كل الأزواج . وكانت تنتظر الصدر الحنون فى بيت والدها . . ولكنها وجدت خلاف ما كانت تقدر .

* * *

وكانت لها زميلة فى الدراسة تدعى سعاد وانقطعت مثلها عن المدرسة لتتزوج . . ولكن توفى زوجها بعد عام واحد . . وأصبحت سعاد أرملة . . فلما علمت بعودة مديحة من الإسكندرية جاءت إليها بسرعة . . وأخذت تسب الرجال وترميهم بالوحشية مع أن مديحة لم تخبرها بشيء عن خلافها مع زوجها .

وفتحت مديحة لها قلبها لأنها صديقة قديمة . . ولأنها قبيحة . . ومسلية . . ومديحة فى حاجة إلى من يسليها ويرفه عنها فى محنتها . . ولهذا كانت تأتى إليها وتزورها فى كل وقت . . وتخرج معها لشراء الحاجات والملابس . . وترافقها فى حفلات النهار إلى السينما . .

وكانت مديحة تعمل فى بيت والدها . . ولكنها كانت تحس بالفراغ الكبير والملال والضجر . . ففى الإسكندرية كانت تخرج مع زوجها وأطفالها مرتين فى الأسبوع الواحد . . للنزهة فيذهبون إلى السينما أو إلى العشاء فى المكس . . أو إلى رأس التين عند أسرته . . ويقضون الأسبوع كله فى بهجة محببة . . وحتى العراك . . كانت تعقبه نزهة جميلة . . أما الآن فلا شيء . . فإنها تعيش وحيدة تجتر أحزانها حتى تلفت أعصابها . . وكان سلواها الطفلان وكانت تعنى بصحتهما وتحب أن يبدوا فى أحسن مظهر وكانت قد سافرت ومعها عشرون جنيها فى حقيبتها . . ولكن بعد شهر واحد كاد المبلغ أن ينفد فقد اعتادت على الصرف . .

وقدم لها والدها ورقة بخمسة جنيهات . . فقالت :

ـ لا يا بابا . . أنا معايا فلوس كتيرة وانت عليك مصاريف . . ولسه محسن فى الجامعة . . وبتصرف عليه كتير .

وكان محسن هذا أصغر أولاده وكان مدللا ، يدخن ويلعب القمار ويسكر . . وكان يقول لأخيه عزمى كلما سمع حس مديحة .

«اطلقت ولا إيه . . دى مصيبة . . البيت أصبح فوضى من عيالها . . ابنها

جودت . . كل حاجة تقع فى إيده يرميها من البلكونة على الشارع الفرشة . . الشراب . . الساعة . . علبة السجائر . . المحفظة . . حنربى عيال الناس . . مصيبة وحلت علينا »

وكانت مديحة تشعر بكل هذه النظرات التى حولها . . وبما يسببه طفلاها من مضايقة . طفلا الرجل الآخر . . وبكل الكلام الذى يدور بين أفراد أسرتها تشعر به فى أعماقها دون أن تسمعه منهم . كانت تعرف أنها دخيلة وأنه لم يعد لها وجود معهم . . وأن بيتها هناك فى الإسكندرية . . رغم كل ما فيه من مساوىء . .

وشعرت بحاجتها إلى المال لتشترى ملابس لنفسها ولولديها . . كما اعتادت أن تفعل وتصرف ولكنها لم تجرؤ على أن تطلب من أحد . وكانت تنتظر من زوجها أن يرسل لها مبلغا ولكنه لم يفعل فزادها هذا غيظا .

* * *

وذات يوم قالت لها سعاد :

« النهارده أنا عزماك على السينما»

«ليه ياحبيبتى مرسى . أنا تعبانة شوية . . »

«التذاكر قطعتها وخلاص . . رواية جنان . . حتشو فى تسريحة أو درى هيبورن . والنبى فيها ملامح منك . . »

وضحكت مديحة . . وذهبت معها . . إلى السينما .

وفى الأنتراكت عندما أضيئت الأنوار . تلفتت سعاد إلى رجل يجلس معها فى نفس الصف . . وصاحت :

«عاصم بيه . . هو أنت هنا . . واحنا مش وخدين بالنا . . »

وسلمت عليه وقدمته لمديحة . . فاغتاظت مديحة من هذه الحركة وعندما ابتدأت الرواية . ظلت سعاد طول العرض تتحدث عن عاصم وثرائه الكبير وجماله وشبابه .

وبعد أن انتهت الرواية . . خرجت مديحة بسرعة قبل الزحام . لتأخذ الأتوبيس . . وسعاد وراءها . ولكنهما وجدا عاصم يخرج بعربة أنيقة من شارع جانبى . وأشار بأدب . .

وقالت سعاد :

«تفضلى حيوصلنا . . »

«لأ . . اتفضلى . . انت . . أنا مركبش . . »

«مش أحسن من البهدلة فى الأتوبيس»

«اتفضلى . . أنا اروح ماشية أحسن . . »

«انت لسه . . قاعدة صغيرة . . يامديحة . دا جنتلمان . . هو حياخذ منتا حتة . . »

«اتفضلى انت . . أنا مش ممكن أركب . . »

«وأنا كمان مش معقول أسيبك وحدك . . »

وغمزت لعاصم بعينها . . وسارت مع مديحة إلى الأتوبيس . .

* * *

وانقطعت سعاد عن زيارة مديحة بضعة أيام . . ثم تقابلتا عرضا فى شارع ٢٦ يوليو وقد أمسكت كل منهما بلفة . .

ولم تتحدث واحدة منهما عن عاصم . . والسينما . . والسيارة وكانت مديحة متأنقة فى ملبسها وتبدو فى أروع مظهر فنظرت إليها سعاد وقالت :

«انت كنت يامديحة أجمل تلميذة فى المدرسة فأصبحت الآن أجمل امرأة فى الدنيا . . »

وسرت مديحة .

وزادت بها صلة ومودة . . وأصبحتا تخرجان إلى السينما وإلى زيارة بعض صاحباتها . . وتذهبان معا إلى الخياطة . . وإلى الحلاق . . كما كانت سعاد تجىء إلى بيت مديحة . . وتمكث فى حجرتها ساعة وساعات تقص عليها أخبار النساء . . وفضائحهن . وحوادث الطلاق بسبب الغيرة . . وعدم الانسجام .

* * *

وكانت مديحة تظل ساهرة بعد أن تتركها سعاد وحدها فى حجرتها إلى قرب الفجر تتقلب فى الفراش وتتعذب . . فإن أسوأ ما كان يمر فى بيت الزوجية هو عراكها مع زوجها لأتفه سبب لأنها عصبية . . وكانت تنهشه كالنمرة . . فيثور وينقض عليها ويصفعها بقوة صفعة تدير رأسها . . فترتمى على الفراش تبكى . . وتسبه وتغمض عينيها وتنشج . . ثم تحس به بعد قليل يمسح على شعرها برفق . . فتدفعه عنها بجفوة فيظل يمسح على شعرها وكتفيها دقيقة ودقيقتين وعشرا حتى تلين وتهدأ وتصفو الزوبعة . . وتجد نفسها عندما يقترب منها وينظر إلى عينيها بحنان وقوة تشده إليها فيطوقها ويروحان معا فى مثل مد البحر .

أما الآن فلا شىء غير الفراغ والوحدة والحنين إلى الرجل . . أيا كان . وعضت على شفتيها . . وأغمضت عينيها ومرت فى مخيلتها صور الرجال الذين التقت بهم واشتهتهم . . ثم أبعدتهم الحياة عنها . . وعاشت لزوجها حمدى . . لرجل واحد . .

* * *

وعصر يوم مرت عليها سعاد وخرجتا لشراء بعض الأشياء . . . وبعد أن فرغتا من الشراء قالت سعاد :

«عمرك . ما زرتينى يامديحة فى بيتى الجديد »

«لازم أزورك يوم يا سعاد . . معايا العنوان . .»

«وإيه رأيك أورهولك دلوقت أحسن . .»

«بس اتأخرنا والأولاد . . لازم أعشيهم . .»

«بدرى إحنا لسه المغرب . .»

وركبتا الأتوبيس إلى حدائق القبة . . وأرتها البيت وسرت به . . وخرجتا إلى الشارع العمومى . . ووقفت سعاد معها حتى تركب الأتوبيس . . وطال الانتظار . . ومرت بجانبهما سيارة وتوقفت . . وكان يقودها عاصم . . وتحت الالحاح الشديد . . ولأن أعصابها تحطمت فى انتظار الاتوبيس ركبت مديحة سيارة عاصم ومعها سعاد . وتكلم معها برقة . وانطلق بالسيارة يتهادى . . حتى اقترب من الشارع الذى فيه بيتها فأنزلها معا . .

وأصبحت مديحة تشعر براحة نفسية كلما زارت سعاد فى بيتهاوجلست معها تتحدث وتريح أعصابها فى هذا الحى الهادىء الجميل .

* * *

وذات يوم تركتها سعاد فى الشقة وحدها . . وخرجت لتجىء بشىء من السوق . . وسمعت مديحة جرس الباب يدق . . فنهضت لتفتح . . وهى تتصور أن سعاد نسيت المفتاح . ولكنها وجدت عاصم . . وحيا ودخل فى هدوء دون استئذان .

«أمال فين سعاد . . ؟»

«فى المطبخ . .»

«دى برة . .»

«شفتها . . . ؟»

«لأ . . ولكن مش سامع لها حس . .»

واقترب ليجلس بجانبها على الكنبة فابتعدت عنه . .

«أنا مش جربان . .»

«من فضلك أقعد كويس . .»

وجلس بعيدا عنها يدخن . . ونظرت هى إلى الباب الخارجى . . تتوقع عودة سعاد فى كل لحظة وكان قلبها يدق بشدة . . وكانت تود أن تخرج بمجرد أن دخل هذا الرجل . . ولكنه كان قريباً من الباب ولا تود أن تظهر بمظهر الضعيفة . . وكانت تخشى الفضيحة . . أكثر من أى شىء . . فأخذت تفكر فى حيلة تخرجها من هذا الفخ . . ونهضت ودخلت المطبخ لتبحث عن سلم هناك للخدم . . فلم تجد فعادت ووجدته واقفا فى طريقها . . وأمسك بيدها فدفعته بقوة . . وجرت إلى الصالة . . فلحق بها وطوقها وألقاها . . على الكنبة . . وأخذ يقبلها بنهم فصرخت وكتم صراخها . . ولمحت عيناها زهرية فخارية على منضدة قريبة من الكنبة . . وتظاهرت بالاستسلام له . . وبأنها تود أن تخلع ملابسها . حتى تناولت الزهرية وضربته بها . . واندفعت إلى الباب وخرجت تجرى فى الظلام كالمجنونة . .

وعندما بلغت بيت والدها أغلقت عليها حجرتها بالمفتاح . . وانطلقت تبكى وتنشج حتى جفت عبراتها . .

* * *

وفى الصباح . . كانت تتحرك فى البيت كالشبح دون أن تحس أو تعى شيئا . . كانت على يقين أن الرجل مات بعد هذه الضربة . .

وكانت كل أمنيتها الآن لتستريح من هذا العذاب المدمر أن يأتى البوليس لتعترف بالفضيحة كاملة . .

وكانت ترتعش من الخوف والعذاب والتفكير المعذب . . وتجلس على الكرسى الساعات الطوال كالمشلولة دون حراك ودون حس ودون أن تدير حتى رأسها .

وكانت تتمنى من كل قلبها أن تأتى سعاد وتحدثها بما جرى وكيف جاء الإسعاف ولفظ الرجل أنفاسه فى الطريق عليه اللعنة . .

وفى اليوم التالى وجدت نفسها تجر الطفلين . . وتذهب إلى حدائق القبة . . ونظرت إلى بيت سعاد من بعيد فلم تجد أحدا . . ولا حتى نافذة مفتوحة . .

ودارت ببصرها تحملق فى المكان وفى الحى وفى كل مـا حولهـا ثم عادت إلى بيت والدها .

وفى الليل وبعد أن نام الطفلان أغلقت باب غرفتها وأخذت تبكى

وظلت ثلاثة أيام كاملة محبوسة فى البيت فلم تخرج وفى اليوم الرابع خرجت ومعها ولـداها . . كـأنها تطلب منهـما الحماية . . وفى شارع عـدلى . . بصرت بـالرجـل . . بعاصم . . بلحمه ودمه يوقف سيارته . . وقد وضع على صدغه لزقة بيضاء . . فطارت من الفرح . . وكادت أن تصرخ فى الشارع .

وفى اليوم التالى أخذت أول قطار ذاهب إلى الإسكندرية . . وعندما دخلت الصالون استغربت . . فقد وجدت الرجل نفسه الذى التقت به فى القطارمنذ شهرين . . وأعطى الساندوتش لولديها . .

ونظر إلى الطفلين نظرة حنان . . وقال :

«راجعين البيت . .»

«أيوه . .»

«وأنا كمان راجع . . فقد التأم الجرح . .»

«جرح . .»

«نعم . . . فقد عضتنى فى ذراعى . . وهاهى أسنانها .»

وضحكت مديحة من الحرية . . ومن الفرحة . . بعودتها إلى بيتها . . ومن التقائها بهذا الإنسان النبيل للمرة الثانية . . ولقد تمنت فى أعماقها أن يكون زوجها . . واشتهت ذلك ولم تر فى هذا التمنى خطيئة وسأل الرجل المهذب أحد الطفلين :

«وبابا إزيه دلوقت أحسن يكون مرض بعد ما سبتوه . .»

فردت مديحة بسرعة :

«دا زى الحصان . . عمره ما يمرض . .»

«هذا هو المهم . . والباقى توافه . . هذه هى السلسلة التى . . معذرة . . فأنا لا أحب أن تكون الزوجة مجرد ممرضة لزوجها . . هذا بشاعة . .»

وابتسمت مديحة فى رقة . . وفكرت فيما كان يود أن يقوله الرجل المهذب . .

هذه هى السلسلة التى تربط الرجل بالمرأة . .

السلسلة التى جذبتها وعادت بها إلى بيتها . .

مكتبـــة فى الممر

بعد أن أتم مختار دراسته . . لم يتجه إلى الوظيفة كغيره من الشبان . . وإنما فكر فى الاشتغال بالأعمال الحرة . . لأنه يعشق الحرية . . ولا يحب القيود . . ووجد أن أنسب الأعمال وأحبها إلى نفسه أن يفتح محلا لبيع الساندوتش يضع فيه أحسن أنواع الجبن والزبد واللحوم المحفوظة وغير المحفوظة . . واختار المحل فعلا فى حى شعبى . . ولكن لم يجعله على غرار المحلات الشعبية وإنما نظفه ورتبه . . ودهنه بالزيت ووضع فيه الرخام والبلاط القيشانى والمرايا من البللور الخالص . . والموائد الصغيرة والزهور والأكواب الكريستال والمناشف المعقمة ولهذا كان يبيع الساندوتش الواحد بقرشين بدلاً من قرش .

ولكن الجمهور كان يجرى وراء الأرخص ولا يعنى بالنظافة والجودة ولا يقدر لها قيمة . . فخسر مختار فى هذا المحل الصغير مئات الجنيهات ثم اضطر بعد ثمانية شهور إلى إغلاقه كلية وباع ما فيه من أدوات . .

ولكنه كان مناضلا فلم يعتوره اليأس واتجه إلى شىء آخر . . فكر فى مكتبة . . ووجد دكانا صغيرا بقلب القاهرة فى ممر بداخله سينما وعمل التصميم . . وصنع له النجار الرفوف . . وابتدأ يضع الكتب الإنجليزية والفرنسية والإيطالية فى صفوف منسقة . . وترتيب رائع حسب الطبعات . . فوضع الطبعات الشعبية وحدها . . ثم الطبعات المجلدة . . ثم الطبعات ذات الأغلفة الملونة .

وكانت المكتبة تعلو عن الممر بمقدار درجتين فرأى أن يستغل هذا العلو بعرض المجلات فى المدخل وفعلا علق لوك . . وليف . . وسينى موند . . وأبوجا . . وايفا . . وفرو فرو . . وتمبو . . وفستو . . واجى . . ثم أضاء المكتبة بالأنوار القوية . . التى تلفت الأنظار . ورغم كثرة الداخلين والخارجين فى الممر . . فإنه لم يأت فى الشهر الأول والثانى حتى بنصف الإيجار .

ورأى أخيرا أنه أساء اختيار الموقع . . فالداخل إلى السينما . . يشبع من الحوادث . . ومن مارلين مونرو . . وريتاهيوارث . . وأفا جاردنر ويكتفى بهذا عن القراءة . . وتذكر دوهامل وقال انه على حق عندما نبه على خطر السينما على الكتاب . وفكر مختار قد يكون لشكله القبيح وصوته الغليظ دخل فى نفور الناس . . ورأى أن يأتى ببائعة للمكتبة تدبر شئونها ويبتعد هو .

ويحث عن فتاة جميلة وساعده الحظ فعثر على فتاة أجنبية حلوة وشابة تدعى ماريا . . تتكلم اللغات الثلاث . .

وترك لها المكتبة . . ولكن مر شهران آخران ولم يتغير الحال فالبيع قليل جدا . . بالقياس إلى الحركة فى السوق . وكان يغيظه أنه كلما جاء إلى المكتبة وجد ماريا جالسة على كرسى فى الداخل ضامة رجليها ومنكسة تقرأ فى كتاب أو مجلة . . وظهرها إلى الطريق وكان يغضب ويثور . . ويحاول أن يجعلها تتحرك . . وتقلع عن هذه العادة . . ولكن الداء كان متمكنا منها فذهبت كل محاولاته لمنعها من المطالعة على هذه الصورة عبثا . .

***

ولاحظ أن معظم المارين فى الممر . . يقفون على الواجهة . . وينظرون إلى أغلفة المجلات . . التى تعرض السيقان الجميلة .

فنظر إلى ساقى ماريا البائعة عنده وهى تصلح وضع الجورب وراعه ما فيهما من فتنة . . بل أدرك أنه لا يوجد لهما مثيل فى الحسن . ولكن لا أحد من المارين على المكتبة يراهما لأنها تجلس منكمشة فى الداخل ولمع فى رأسه خاطر وقال للفتاة :

«أرجوك بدلا من الجلوس فى الداخل أن تجلسى . . هنا فى المدخل . . فربما سرق بعض الغلمان . . . المجلات وأنت غافلة . .»

وقبلت ماريا وجلست فى المدخل ووجهها على الطريق . . وساقاها العاريتان تحت الأنظار . .

ورأى المارة ساقيها الفاتنتين . . فوقفوا أمامها مسحورين . . ثم أخذوا يدخلون المكتبة . . وينتقون المجلات والكتب . . ويشترون . .

وبعد شهر واحد . . جاء مختار بفتاتين أخريين تساعدان ماريا فقد كثر الزبائن . . واشتدت الحركة فى المحل . . .

وكان عمل ماريا الوحيد هو أن تجلس فى المدخل .

زاد نشاطى وعملى فى الطاحونة بعد وفاة المرحوم ماهر فقد كنت أحب الرجل الذى وضع فى فمى لقمة العيش بعد الجوع والبطالة وأخلص لذكراه . . وأود أن تسير الحياة فى الطاحونة وخارجها كما كانت . . لأن أرملته نجية لا تستطيع أن تفعل شيئا وحدها فى قرية «عامر» . . ولو جاءت برجل يعينها فسيأكل قوتها وقوت عيالها . . هذا ماقدرته .

وكان المرحوم ماهر قد اشترى هذه الطاحونة بعد عودته من بحرى . . عاد ومعه ألف جنيه . . ونجية . . وأشار عليه الناس الطيبون فى البلد بأن يشترى طاحونة عبد السميع . . وكانت متعطلة فاشتراها . . وأصلح الوابور وأدارها . . وجعلنى المحصل فيها وكاتب الحسابات بها لأنه لا يعرف القراءة .

وكانت الطاحونة بحجرين ولكنا كنا نكتفى باستعمال حجر واحد نطحن به الأذرة والقمح . . وأصبح الحجر الآخر شبه معطل ثم أصبح «يعاكس» عندما كنا نستعين به فى أيام الأعياد والمواسم . . وكانت هذه الطاحونة هى الوحيدة فى القرية وعملاؤها جميعا من النساء . . فمن هو الرجل فى القرية الذى يحمل مقطفا . . على رأسه ويذهب إلى وابور الطحين . . وكانت الطاحونة تدور على الأذرة . . فى معظم الأيام . . ولا يظهر القمح فى «القادوس» إلا فى الأعياد .

وكان فى القرية ثلاثة بيوت غنية تأكل القمح طوال السنة ولكنها لم تكن تطحن عندنا . . كانت تطحن فى البندر . . لأن طحيننا «أسمر» وليس فى الوابور «منخل» .

ولكن عندما وضعت القيود على المطاحن فى أيام الحرب الحالكة جاءوا إلينا . . وكنا نوقف طحن الأذرة . . لنطحن لهم القمح خالصا من كل خلط . . وكنت أسمع الفلاحات الواقفات فى الحوش . . يعلقن على هذا :

– استنى ياأختى . . للمغرب . . الوابور داير للذوات . . قمح . . ودقيق . .

غريبة . . مين يفكر فى الفقراء . . ياحبيبق مين . .

- هو دا وابور . . يسد بيت صحابه . .

وكانت تقول هذا شريفة كلما دخلت حوش الطاحونة . . وكانت طويلة مياسة وبيدها عصا من الجريد أطول منها . .

وكنت أسمع هذه الشتيمة مائة مرة حتى بعد أن مات ماهر وانسد البيت فعلا . . ولا أستطيع أن أتكلم . . لأننى اعتدت على هذه الشتائم ومثلها وأكثر منها . . ولم أكن أعرف لماذا يشتمن . . إذ إن شكواهن كانت عامة ولا تتناول شيئا بعينه .

وكان عبد الموجود يرد على الشتائم ويعلو صوته على حجر الطاحونة . .

وفى هذه الدوامة وتحت ضجيج الآلات وزعيق النساء كنت أعمل وراء حاجز خشبى وأجلس إلى مكتب قديم . . وأقيد الإيراد فى دفتر صغير يعلوه التراب والدقيق . . وكان الدقيق يعلو جلبابى ووجهى .

وكان ماهر يعطينى . . خمسة جنيهات فى الشهر . . وكنت قانعا بهذا المرتب . . سعيدا به . . لأننى أحسن من أخوتى الذين يعملون فى الحقول .

وكان الوابور بجانب الجسر قريبا من «الموردة» . . كانت بنايته أول شىء يصادفك وأنت طالع من النيل . . ولهذا كان بعض الفلاحات من الجزر القريبة يحملن مقاطفهن ويجئن إلينا فى أيام السوق لأنهن يجدن اللنش فى هذا اليوم شغالا على خط واسع من منفلوط إلى أسيوط .

وكنت أنا الذى سقط فى امتحان الابتدائية ثلاث مرات . . والذى ضرب معلم الحساب وفصل من جميع المدارس وضاع مستقبله . . أدير الطاحونة بعد أن مات صاحبها أحسن إدارة . . وأقوم بعمل ثلاثة رجال وعندما كنا نسهر كنت أريح أسطى الماكينة وعامل «القادوس» . . وكنت أعطى نجية فى آخر اليوم الايراد . . أذهب إلى بيتها بنفسى . . كنت أضع القروش . . مع الفضة مع أوراق النقد الصغيرة . . أصر هذا كله فى منديل . . وأذهب إلى الدار . . أدفع الباب وأدخل إلى المجاز وأنا أقول :

- ياساتر . . .

إذ لم تكن نجية تظهر على قط . . رغم أنها بحراوية من المنصورة ومن منطقة شجرة الدر . . وعندما جاء بها ماهر حجبها كلية عن الأنظار وكان الناس يتغنون بجمالها . . ولكننى لم أكن بعد عشرة دامت ستة أعوام قد رأيتها رأى العين . . . أو وقع نظرى عليها وهى سافرة . . كان هذا والرجل حى . . وبعد موته حافظت على ذكراه . . فلم أرها قط . .

وكنت أجلس فى المجاز ونظرى إلى الأرض . .

وتقف هى على درج السلم منزوية . . وأناولها المنديل بالنقود . . وفى الأسبوع الأول لوفاة المرحوم كانت بعد أن تتناول المنديل تنخرط فى البكاء . . وكنت أقدر ظروفها . .

ـ شدى حيلك . . ياست . . لازم تشدى حيلك . . قدام الأولاد دا أمر ربنا . .

ولم أكن أسمع كلاما . . وإنما بكاء يستمر مدة . . وشهقة وشهقات ثم أرى منديلا صغيرا يجفف هذه الدموع . .

وكنت أرى وأنا جالس ذيل الثوب الأسود الطويل . والقدم الصغيرة فى الشبشب . . ولكثرة ما تعودت أن أنكس رأسى وأنا فى بيتها لم أكن أغير هذا الوضع . . حتى وأنا أداعب ابنها عبد الفتاح .

ثم تطور الحال بعد أن رغبت فى أن تعرف كل أحوال الطاحونة وأصبحت تجلس أمامى . . وهى ملثمة ومغطية رأسها بالطرحة .

وكانت بعد وفاة المرحوم مباشرة ترغب فى أن تبيع الطاحونة وتذهب بأولادها إلى أهلها فى المنصورة . .

ولكن كنت أعارضها . . وأقول لها : إن أولادها سيكونون غرباء هناك . ويجب أن تبقى لتربى عبد الفتاح . . حتى يفتح بيت أبيه . .

وعندما رأت الطاحونة دائرة والإيراد لم ينقص وافقتنى . . وكان معظم القرويات المترددات على الطاحونة من الصبايا . . لأن العجوز لا تستطيع أن تحمل كيلتين وثلاث كيلات من الغلة على رأسها . وكن يجلسن فى حوش الوابور بجانب مقاطفهن يتحدثن . . أو يصمتن . . والفلاحة بطبعها قليلة الكلام . . كثيرة العمل . . وقد تعلمت منهن فى جلستهن الطويلة الصبر . .

فمنهن من كانت تجلس فى انتظار دورها من السابعة صباحا . . إلى الثانية بعد الظهر . . دون أن تتذمر أو تأكل أو تشرب شيئا . .

وكانت عملية الطحن نفسها رغم ما فيها من مشقة وتعب ممتعة للغاية . . وكنت أنسى التراب . . وعفار الدقيق . . وصوت الحجر الدائر وهزات الخشب وزعيق النساء . . أنسى هذا كله لأننى أعمل وأدير وحدى الطاحونة بعد موت صاحبها . .

وكنت قد بلغت الخامسة والعشرين وأفكر فى الزواج ككل شاب فى القرية . . وكانت نعيمة بنت الريس جلال . . هى التى وقع عليها اختيارى لأن والدها مراكبى . . ويعمل

مثل بعيدا عن الغيط والفلاحة وأنا أفكر إذا ساعدتنى ظروف الحياة . . أن أقيم مطحنا فى المدينة . . ونعيمة ما دامت غير لاصقة بالأرض ستذهب معى حيث أذهب . .

هذا ما فكرت فيه وعملت له وأخذت أوفر ثلاثين جنيها لأعطيها لوالدها كمهر . . والرجل قادر على تجهيز بنته . .

وكان كل شىء فى الحياة والطاحونة يبلغنى هذا الهدف . . فالطاحونة زاد إيرادها اليومى بعد وفاة المرحوم ماهر ولم ينقص . . ورسخ قدم نجية فى البلد . . لتربى عبد الفتاح . . ليأخذ مكان والده . . وأصبحت تستشيرنى فى كل الأمور . . وكان عبد الحكيم الأخ الأكبر لماهر قد تقدم إليها ليتزوجها . . وقال لها إن غرضه تربية أولاد أخيه ولكنها رفضت ولم يكن رفضها لأنه متزوج وسيجعلها زوجة ثانية وإنما لأنها كانت تعرف أن غرضه الأول هو الاستيلاء على الطاحونة التى جاهد ماهر وشقى فى الحياة حتى حصل عليها . . فكانت تعرف أن ماهر خرج من البلد منذ سنين فقيرا معدما ليجرى على معاشه . . وسافر فى مركب . . ولم يقبل على نفسه أن يقترض من أحد من أهله أجرة السكة الحديد . . كانت تعرف هذا . .

- ودلوقت جاى عبد الحكيم . . علشان يجوزنى . . لأ . . ومتخلهش يدخل الطاحونة . .

والواقع أنه لم يكن يدخل الطاحونة . . وزادت مسئوليتى وأعمالى وأصبحت نجية تثق فى ثقة مطلقة . .

***

وكنت أجلس منكس الرأس فى «المجاز» كعادتى . . ولكننى لم أكن أرى قدميها . . والشبشب . . كما كنت أفعل فى أول عهدى بها . . وإنما كنت أرى جسمها كله فى ردائه الأسود . . وطرحتها الخفيفة على رأسها . . لأنها غيرت مكانها وهبطت من بسطة السلم ثلاث درجات وأصبحت فى مواجهتى . . فلا يفصلنا جدار السلم الدائرى . . الآن . وإنما يفصلنا شىء آخر . . شىء آخر غير مرئى لكلينا . . شىء مغيب فى التراب . .

ولكن . . لم أكن حتى هذه اللحظة قد رأيت وجهها . .

وإنما رأيت العينين فقط . . العينين الخضراوين . . من «البحر الصغير» . . أو من شجرة الدر . . فإن المراكبية فى بلدى كانوا يتحدثون كثيرا عن «البحر الصغير» ولا يعرفون شجرة الدر . . ثم حركة الشفتين من وراء الطرحة المطوية ولا أدرى لماذا تعلمت أن تتلثم كالصعيديات . . لا شك أنها كانت تحافظ على تقاليد المرحوم . .

وكان فى القرية قهوتان . . قهوة على الجسر قريبة من المسجد وقهوة فى الدرب . . ولكنى لم أجلس فى الليل فى واحدة منهما . . لأنى لا أحب رائحة «الحسن كيف» ولا التمباك . . ولا أشرب الشاى الأسود . . وإنما كنت أخرج من الوابور وأذهب إلى المورده . . وأجد فيها أربعة أو خمسة مراكب كبيرة من مراكب بلدنا . . رست فى الموردة ليزور ملاحوها أهلهم ثم يستأنفوا سيرهم إلى مصر . أو إلى أسوان . . وكانت هذه المراكب محملة بالقطن أو الغلة . . أو البلاليص إلى أقصاها . . وبينها وبين الماء مقدار خمسة قراريط . .

وكنت أنزل فى أقرب مركب . .

وعند الدفة . . أغتسل من الدقيق والتراب . . أو أخلع ملابسى وأغطس . . فى الماء وأخرج لأنشف جسمى بيدى . . وأرتدى ملابسى . . وأصلى المغرب والعشاء . . وأجلس بعد ذلك أسمر مع الريس حمدان ومن معه من المراكبية وكنت أحبهم جميعاً وأحب حياتهم فى النيل..حتى أحس بالنوم . . وفى بعض الليالى كنت أنام بجوار الدفة إلى الصباح . .

ولا أدرى لماذا كنت أتصور وأنا جالس فى مؤخرة المركب . . أنه مبحر . . ونجية وأطفالها الثلاثة بجوارى ووضعنا فى المركب عفش البيت كله . . ولم ننس حتى الزير وأننا ذاهبون إلى مصر .

لا أدرى لماذا تصورت هذا فى تلك اللحظة . . ولم أتصور أن بجوارى نعيمة . . مع أننى كنت أعمل بكل إمكانياتى على الزواج من هذه الفتاة الطيبة . . وكانت أمها تعرف ذلك وإن لم نقرأ الفاتحة . .

وفى ليلة من ليالى الصيف وكنت أجلس مع بعض المراكبية على ظهر المركب . . لمحنا مع شعاع القمر الأول شيئاً أسود يقترب منا . . ثم يصطدم بالمركب . . وجذبه أحد الملاحين ووجدناها فتاة من القرية مخنوقة حديثاً وبدأ بطنها ينتفخ .

وأشاع أهل القرية أن زهرة خنقها أهلها فى وابور الطحين . . ثم ألقوا بجثتها فى الماء . . وأن روحها تسكن فى الوابوروتصرخ فيه كل ليلة من ظلم أهلها ووحشيتهم . . فقد أثبت الطبيب الشرعى أن الفتاة ماتت عذراء . . ومع أننى أغلق الوابور بالمفتاح . . والخفير يسهر عليه إلى الصباح . . فقد صدق أهل القرية هذه الإشاعة . .

وزادها توكيدا أن «بستم الوابور» انكسر بعد حادث الفتاة مباشرة وحملناه إلى الورشة وتعطل الوابور . . عشرة أيام كاملة . . ثم أصيب أسطى الوابور فى يده . . وسقط عبد الموجود من فوق الحاجز الخشبى بجوار «القادوس» وكادت أن تدق عنقه . .

وأخذ الناس ينسجون حول روح زهرة الأساطير . . حتى خاف أهل القرية جميعا . . أن يمروا بجوار الوابور فى الليل . . وحتى خاف الخفير . . نفسه . . وأبعد عن الوابور . .

وكنت أقاوم هذه الإشاعات بكل ما أملك من قوة وصبر . . ولحمنا «البستم» وعاد الوابور يتك . . ولكن الفلاحين لم يصدقوا أعينهم وتحول عنا نصف العملاء . . ذهبوا إلى القرية البعيدة . . وعندما تعطل الوابور مرة أخرى . . بقى القليل منهم . .

وكنت أكافح وحدى . . فقد تحطمت أعصاب من كان يعمل معى فى الوابور . . وصدقوا الإشاعة . . وسرت إلى أعماقهم . . وقل الإيرادوأصبحنا لا نحصل إلا على قروش قليلة فى اليوم . وضاع كل ما كان موفرا لدى نجية فى الإصلاحات . . فقد كنا نحل بعض آلات الوابور كل أسبوع ونذهب بها إلى الورشة ولم يبق معها أى شىء . . وعجزت عن دفع أجرة الأسطى فذهب يوم الخميس يعود أهله . . ولم يعد . . فقررت أن أدير الماكينة بنفسى لأنى تعلمت من كثرة ملازمتى للأسطوات كيف تدور وكان أهم شىء عندى أن يرى الفلاحون «العادم» يخرج من الماسورة وأن يسمعوا صوت «الكرنك» وليس المهم أن يطحنوا . . وإنما المهم أن يعرفوا أن الوابور دائر ولم يتعطل إلى الأبد . .

***

وكنت أذهب فى هذه الأيام الحالكة إلى بيت نجية . . كل مساء وقالت لى ذات ليلة . .

- عاوزة أبيع الوابور . .

- ستخسرى كثير دلوقت . . تبيعيه بتراب الفلوس . .

- تعبت وما علش فيه فايدة . . وابور منحوس عاوزة أوكل العيال المساكين . .

وكانت حالتها محزنة فتأثرت . . ووضعت يدى فى جيبى وأخرجت لها الثلاثين جنيها مهر نعيمة . .

- ايه دول . .

- علشان تصرفى على الوابور . . . نشترى غاز وزيت . . وتدفعى منهم أجرة عبد الموجود . . وحسنين . . والباقى خليه معاكى . .

- أنت بقالك ثلاثة أشهر ما ختش ولا مليم . .

- معلهش بكرة آخذ . . وتزيد أجرتى . . .

- مش ممكن آخذ منك مليم . . كمان أحرمك . . من عرق جبينك

ـ إن مكونتيش حتخديهم دلوقت . . حاسيب البلد وأمشى من بكره . .

ـ تمشى تروح فين . . أنا مقدرش أعيش من غيرك ساعة . .

وأسفرت عن وجهها فى تلك اللحظة . . جعلتها المحنة التى نزلت بنا والتى جمعتنا نسفر . . ورأيت وجهها أبيض مستطيلا نقى البشرة وشفتين رقيقتين ناعمتين يكتنز فيهما الدم . . وقالت وكأنها ترانى لأول مرة :

ـ يعنى انت كبرت وطولت يا عبد الله . . وبقيت راجل أمال مجوزتش ليه .

ـ حجوز .

ـ مين . .

ولا أدرى لماذا لم أقل لها نعيمة بنت الريس جلال . . والواقع أن نعيمة لم تكن فى ذهنى فى تلك اللحظة وإنما قلت :

ـ أى واحدة بنت حلال . . كل بنات البلد بنشوفهم فى الوابور

ـ أوعى تكون اتلميت على أم توحيدة . . بيقولواحوشة قرشين وبتعرض نفسها على الرجالة . .

ـ ومين غيرها ينفعنا فى الأزمة دى . .

ـ أوعى أزعل منك . .

وجلست على السلم تعد النقود . . وكانت تعلونى بمقدار أربع درجات . . وأنا جالس القرفصاء . . ووجهى إلى الأرض . . وعندما رفعت رأسى . . رأيت ما يعلو القدم من الساق . . بمقدار شبر . . ولم تكن هناك دمالج ولا خلاخيل . . ورأيت طرف القميص الأزرق تحت ثوب الحداد ورأيت استدارة الجسم كله فى خط مائل . . فلم تكن نجية معتدلة فى جلستها . .

وشعرت بضربات قلبى كالمطرقة وأنا أسمع صوتها ولم يكن الصوت الذى ألفته . . كان يقطر عذوبة ورقة .

ـ يعنى دول ثلاثين . . .

ـ أيوه . .

ـ مهر الجواز . . وليه أحرمك منه . .

ـ دى فلوسك يا سى . .

ـ أخدهم علشان ما تزعلش .. بس أوعى تتلم على أم توحيدة .. !

وكانت تبتسم وتنظر إلى بكل أنوثتها وكل فتنتها .. وشعرت فى تلك اللحظة .. بالفاصل الذى كان بينى وبينها قد انزاح ولم يعدله وجود ..

ومن تلك اللحظة استولت نجية على جسمى وعقلى ..

***

وكانت المحنة مستمرة .. ولم تتحسن أحوال الوابور .. كانت روح زهرة لا تزال مسيطرة على أهل القرية .. وحدث أن تعاركت مع أحد الفلاحين وقد غاظنى أنه أخذ يروى أمامى أنه شاهد روح زهرة فى الليل على شكل كلب مسعور .. يعوى .. انقلب إلى ذئب .. ثم إلى ضبع .. فضربت الرجل لأقطع لسانه عن هذا الكلام ..

وذهبنا إلى النقطة وحبسنا معا ثلاثة أيام ..

وفى اليوم الرابع أخرجونى .. وعلمت من حسنين أن نجية ذهبت فى الليل إلى النقطة ليخرجنى الضابط وجننت وأنا أسمع منه هذا الكلام ولم أدر ما الذى ركبنى فى تلك الساعة فقد كنت فى حالة جنون تام .. ودفعت الباب برجلى ودخلت .. ولما أحست بى نزلت .

وارتاعت لما رأته على وجهى من الغضب .. إذ تصورت أن الوابور انكسر ومصيبة جديدة حاقت بنا ..

وسألتها :

ـ رحت النقطة ..

ـ أيوه .. وكان معايا الشيخ رفعت وكيل العمدة .. وعبد الفتاح ..

ـ وعلشان إيه تروحى .. ما عندناش نسوان تخرج وتروح النقطة

ـ كان معايا الشيخ رفعت قلت لك ..

ـ دا عيب منك فضحت الراجل فى قبره .

ـ أنت ملكش إمارة .. على ..

وتطور الحديث .. فصفعتها .. ونسيت أنى أجير عندها ..

وجلست منزوية تبكى صامتة ولم تسبقى أو تـوجه إلى أى كـلام .. وإنما أخـذت تشهق ..

وكنت أنتظر بعد هذا أن تطردنى من عملى فى الطاحونة ولكن لم يحدث شىء مما توقعته . . وظللت أعمل وأكافح حتى تحسنت الأحوال ودار الوابور وتك . . وأخذ نساء القرية يعدن إلينا بالتدريج ثم كثرن حتى ضاق بهن حوش الوابور . .

وحدث أن تعطلت بعض وابورات الطحن فى القرية المجاورة فجاء أهلها إلينا . . وزاد العمل . . وتضخم . .

وأحدثنا تغيرا مطلقا فى العدد . . وتصميم الوابور . .

***

وكانت النار تشتعل فى قلبى وقلب نجية . . فتزوجتها لا لأطفىء هذه النار بل لأزيدها اشتعالا . .

وفى صباح ليلة الزفاف . . سمعت الحجر الثانى يدور فى الطاحونة فابتسمت . . وأدركت أننا دخلنا . . فى حياة جديدة .

كان سليم صاحب دكان للأحذية فى شارع ابن خلدون بحى السكاكينى وكان الدكان صغيرا وقديما مساحته لا تتجاوز مترين فى ثلاثة . . ومع هذا كان ممتلئا إلى السقف بكل أنواع الأحذية الرجالى والحريمى وأحذية الأطفال .

وكان سليم يصنع أحذية جديدة أنيقة ويصلح الأحذية القديمة المتآكلة . . يحاول أن يعيدها إلى رونقها الأول .

وكان أعور وقصيرا . . وضئيل الجسم . . وقد جعلته هذه الصفات كلها . . أقرب الأشياء إلى صنعته . . فلم يكن ينحنى . . وهويدق المسمار كما أن عينه الواحدة جعلت بصره أكثر تسديدا وتركيزا ولهذا برع فى مهنته . . واشتهر .

وكان أسوأ ما فيه . . سوء النظام . . فأحذية السيدات تختلط بأحذية الرجال والأطفال فى فوضى عجيبة . . كما أن ذاكرته كانت ضعيفة جدا .

فإذا سأله الزبون :

- الجزمة خلاص يا أسطى سليم ؟.

رفع عينه الواحدة . . وسأل ويده تضرب على النعل . .

- جزمة مين . . ؟

- الجزمة البنى . . اللى جبتها يوم الخميس . .

ويصمت ويدور بعينه فى الصفوف وهوجالس . . ثم يضع الحذاء الذى بيده جانبا وينهض ويظل يبحث على الرفوف وتسقط الأحذية على الأرض ويزيد اختلاطها . وبعد بحث طويل لا يعرف الحذاء ويدله عليه الزبون وهو غارق فى أكوام الأحذية . . ورغم هذه الذاكرة الضعيفة . . فالرجل كان يتمتع فى الحى بشهرة واسعة . . لثقة الناس فيه

ومهارته . . فالحذاء القديم يخرج من يده جديدا . .

وفى عصر كثر فيه الغش فى الصناعة . . واختلط الورق المقوى والكرتون . . بالجلد . . انفرد سليم بأمانة لا حد لها . . فالجلد عنده جلد وأسعاره شعبية .

والأحذية الجديدة التى كان يعملها لم يكن يهتم بها كثيرا . . كان يصنعها كلما وجد الفراغ ويلقيها خلفه على الرف . . لأن عمله كله كان فى إصلاح القديم . . وكان يربح منه كثيرا ويدخر المال فقد كان وحيدا ولم يتزوج .

* * *

وكان سليم مشغولا بعمله عندما دخل عليه . . كمال وهو شاب من أهل الحى . . وطلب إصلاح الحذاء الذى يلبسه فى الحال :

- مستعجل يا ابنى . . انت شايف أنا مشغول . . روح البيت وابعتولى أخلصولك بكره . .

- أنا ما عنديش غيره . . ياعمى سليم . .
- ما أقدرش . .
- اعمل معروف علشان الجيرة . . دنا ساكن معاك فى بيت أم رشيدة .
- انت . . عمرى ما شفتك . . !
- انت ساكن تحت . . وبتخرج بدرى . . وأنا على السطوح . . وبنام للظهر . .
- للضهر ليه . . دانت شاب . .
- مفيش شغل . . بدور على وظيفة .
- لازم عاوز وظيفة كويسة .
- طبعا . . أمال كنت بتعلم علشان إيه . .
- تعرف اليهودى . . اللى ساكن معانا فى البيت . . شفته . . ؟
- شفته . .
- من الساعة خمسة لازم يكون فى الشارع . . بالشنطة . . بيركب أول قطر ويروح بنها . . طنطا . . المنصورة . . وكل اللى معاه . . شوية كرافتات وعايش مبسوط . . ولما تقول له اتوظف بألف جنيه واقعد .
- عاوزنى أعمل زيه .
- ليه لأ . .
- سمعنا الكلام دا كتير . . كفاية . .
- الجزمة يا ابنى اللى قدامك . . لو بعتها تكسبنى ثلاثين قرش . . وانت تكسب ثلاثين زيها وأربعين . .

- عاوزنى أبيع جزم . .

وضحك كمال .

وضحك سليم ونظر إلى جورب الشاب فلاحظ أنه مثقوب فى أكثر من موضع . . وأحس بالشفقة على حاله . . وصمت وانهمك فى رتق الحذاء حتى نسى أن الشاب يجلس بجواره ورفع بصره عن النعل فجأة إلى ساق جميلة . . تمتد أمامه . .

- الكعب طلع . . من فضلك صلحولى دلوقت . .
- نشوفه . . انتو كلكم مستعجلين . .
- كان حيوقعنى على وشى . .
- اقلعيه . .

وجلست ناهد . . بجوار كمال . . وأصبح الدكان لا يتسع لمزيد . . .

- يا ستى . . دا عاوز شغل كتير . . روحى . . وابعتيه . .
- مقدرشى أروح بيه وهو كده . .
- طيب ألزقه . . لغاية ما تروحى . . وبعدين ابعتيه . . علشان يصلح كويس .
- مرسى . .

ولاحظت ناهد بعد أن خلعت الحذاء الشاب الجالس بجوارها وكان وسيما قوى الجسم رغم مظاهر فقره . .

ودخل زبون جديد وأخذ حذاءه . . وعندما تناول منه سليم الأجر فتح درجا صغيرا . . ولاحظت ناهد أنه مكدس بالأوراق المالية ثم أغلق سليم الدرج سريعا واستأنف عمله . .

ولبست ناهد حذاءها . . وهى تقول . .

- تقدرش تبعتلى ابنك دا علشان ياخد الجزمة معنديش حد ونظرت إلى كمال . .

وضحك سليم . .

- دا مش ابنى . . دا زبون زيك . .

واحمر وجهها . . وانصرفت . .

ولاحظها الشاب وهى منصرفة . . بقامتها الطويلة الرشيقة وجسمها اللدن . . وظل يتبعها ببصره وهى فى الشارع . . وكانت تمشى بحذر مخافة أن يسقطها الكعب الملزوق . . وقد جعلتها هذه المشية أكثر إغراء وفتنة . . وكان سليم رغم جمالها الصارخ ورغم أنه

اضطرب عندما مدت ساقها أمام عينه وشعر بشيء يهزه بعنف . . ظل كما كان محتفظا بطابعه الصامت وبعده عن النساء جميعا . . لأنه مر بتجربة رهيبة فى أول شبابه مع امرأة سخرت منه ومن دمامته وضآلة جسمه فكره من بعدها النساء كرهه للشياطين وانصرف منهن كلية . . إلى عمله وبرع فيه وجمع منه الأموال . . وكان لا يصرف كثيرا . . ويعيش عيشة الفقراء فزاد إيراده وتضخم . .

***

وكان يشعر بالسكينة لهذه الحياة وقد ألفها . . واعتاد عليها . . ولكنه كان فى باطنه يصرخ ويتوق إلى هذا الجنس المحروم منه . . ولما كثر تردد النساء على محله ألفهن ونسى سخريتهن به . . ونسى أنهن من جنس آخر وأصبحت علاقته بهن علاقة عمل . .

وكانت الخادمات فى معظم الحالات هن اللواتى يحملن إليه أحذية سيداتهن . . وكان وهو ينظر إلى الحذاء . . يعرف صاحبته . . يعرف قوامها . . من قدميها . . يرى حركة القدم مطبوعة فى الحذاء وكعبه . . فمنهن التى تمشى بجانب . . والتى تخطف خطفا . . والتى تمشى . . كأنها تعرج . . ومشية المرأة المتزوجة غير مشية الفتاة العذراء .

وكان يقلب الحذاء فى يده ثم يرفعه إلى بصره . . ثم يدخل يده فى باطنه ويدور بها من أمام ومن خلف ثم يدنى باطن الحذاء من أنفه ويشمه . . ويرى عرق المرأة لا يزال فيه . . وكان يجد لذة فى عمله هذا . . وكأنه لامس بشرة الأنثى واشتم عبيرها . . كان عمله فى هذه الأحذية الصغيرة الدقيقة وتصوره الأقدام التى تلبسها والسيقان التى تحركها يشعره بلذة عارمة . .

وكان قانعا بهذه اللذة الخفية راضيا بها تنتشى لها حواسه وتتفتح براعم نفسه . .

وكان على مر السنين قد نسى التجربة الأليمة التى مرت به مع أول امرأة . . لأنه لم يفكر فى أن يعيدها . .

***

وكان يغلق دكانه فى يوم الأحد ويستريح . . يستريح راحة تامة وفى هذا اليوم يرتدى حلة نظيفة مكوية . . ويجلس مع أهل الحى فى قهوة قريبة ويتعشى العشاء بالكباب . . ويشرب زجاجة من البيرة . . ومن الغريب أنه كان يقابل فى هذا اليوم كمال الشاب الساكن فى البيت ويحييه ويود أن يسأله :

— هل اشتغلت . . ؟

ثم يقابل ناهد أيضا . . فى نفس الشارع . . تمضى مسرعة رشيقة كأن الثلاثة قد ربطتهم سلسلة . . بعد أن تراءوا . . وتعرفوا . .

وكانّ سليم قد أقنع الشاب بأن يجرب أى عمل بدلا من القعود عاطلا فى انتظار الوظيفة .

فقال له كمال :

– وإذا أعطيتنى جزمك علشان أبيعها . . تاخد منى رهن . .

– أبدا يا ابنى . . عارفك أمين . . وبيعها واربح لغاية ما تكون لنفسك رأس مال صغير . .

وابتدأ كمال ياخد من سليم أحسن ما صنعه من أحذية ليبيعها ويشتغل ويسعى فى الحياة . .

وكانت ناهد قد ذهبت إلى دكان سليم ومعها حذاء آخر . . ورجته أن يصلحه ويرسله إلى بيتها . .

وذهب إلى بيتها . . . بنفسه وفتحت له الباب . . ولم يسمع غير صوتها فأدرك أنها تعيش وحيدة . . وكان يعرف أنها تعمل فى الصباح وبعد الظهر فى محل تجارى . . .

وكانت فى أول الأمر تساومه على الأجر . . وإذا طلب عشرة قروش أعطته خمسة – كفاية بأه . . . يا عم سليم . . .

وكان يضع النقود فى جيبه فى صمت . . ثم أصبحت تعطيه كل ما يطلب دون نقصان . . وأصبح يشعر بلذة خفية وهو يصلح لها أشياءها . . . حقائبها وأحذيتها وخفها وكل ما يتصل بها ويلامس جسمها ويعيدها إليها بنفسه . ويشعر بوحشة إذا لم يسمع حسها أو يلمس بأصابعه أشياءها .

وذهب إليها ذات مرة فوجدها تتغدى . . وألحت عليه فى أن يأكل معها وجلس على طرف المائدة ذليلا كالكلب ثم شجعته بالبسمة والنظرة . . والضحكة الناعمة . . حتى اقترب منها وشاركها فى صحافها .

***

وأصبح كلما حمل إليها شيئا يبقى عندها قليلا ويتحدث ويشعر بالراحة . . وكانت تبتسم فى وجهه وتستقبله أحسن استقبال وتلبس من الملابس ما يكشف عن محاسنها . . ومنذ تلك اللحظة رفض أن يأخذ منها أى شئ نظير ما يصلحه لها . . وكانت تقابل هذا

وذات يوم زارها فوجدها حزينة ثم علم أن نقودها نشلت منها وهى راكبة الترام . . فأظهر إخلاصه فى الحال . . وأعطاها عشرة جنيهات . . وكانت تتظاهر بالرفض . .

وقويت العلاقة . . حتى أصبح متيما بها مجنونا بحبها . . يقدم لها الهدايا النفيسة . . وكانت . . تأخذ منه النقود دون حساب . . وذات يوم سألته :

- ليه عايش لوحدك يا سليم . . ؟

فحملق فيها . . وفتح فمه دون أن يتكلم . .

- ليه متجوزتش . . ؟

- مين يتجوزنى ؟

- كتير . . كل واحدة . . تتجوزك . . انت طلبت من حد ورفض . . ونظر مبهوتا واشتدت ضربات قلبه . . وتحركت أمامه ترفع صينية الشاى وحملتها إلى المطبخ . . .

ثم عادت وهى تدفع خصل الشعر . . عن جبينها . . وتقول مغمغمة :

- بكره الحد . . عندى أجازة . . وانت قافل . . تحب نروح السينما .

ولم يصدق أذنيه . . ولكنه ذهب إلى بيته وارتدى أحسن ملابسه . . ووضع منظارا أسود على عينيه . . وعاد إليها . . وخرجا إلى السينما ليحضرا حفلة السواريه . . وكان وهو يمشى معها فى الطريق إلى الترام لا يصدق أن بجواره أنثى . . كانت طويلة ورشيقة وجمالها محط الأنظار وكان قميئا ومشوها . . وتصور نظرات الناس تلاحقه بالسخرية . . وأن كل من يراه يهزأ به . . فتجمع على نفسه . . وكان يمشى بعيدا عنها ثم راح فى دوامة من العواطف واقترب منها حتى كاد أن يتأبط ذراعها . . كان يود أن تجره وتسير به . . كان يود أن يعتمد عليها لأنه شعر بخذلان شديد . . وفى السينما التصقت به حتى شعر بالدفء . . وبضربات قلبه تدق . . كالمطرقة . . وبعد السينما أبقته فى بيتها إلى الصباح . .

***

وخرج فى بكرة الصباح وهو يمرغ يديها ورجليها بالقبلات ويعض بأسنانه فراشها . .

وعاش بعد هذا نصف عام كأنه فى حلم . . وهو لايدرى من أمر نفسه شيئا . . كالمأخوذ . . وكانت قد سيطرت عليه تماما . . وأسلم نفسه لها ولم يكن يرفض لها أى طلب . . وفى مدى شهور قليلة أحس بأنه صرف عليها وعلى نزواتها وشهواتها كل أمواله

المدخرة . . وكانت تطلب منه مبالغ كبيرة . . فى كل حين . .

وكان يعطيها ولا يسألها . . ويقدم لها المحفظة خشية غضبها لتأخذ منها ما تشاء وكان من عادته أن يفتح المحل فى السابعة صباحا من كل يوم . . فأصبح يتأخر إلى العاشرة . . وما بعدها . . وكان لا يشرب إلا زجاجة من البيرة كل أسبوع فأصبح يشرب كل أنواع الخمور وينهض من الفراش لينام من جديد . . وهو يشعر بالصداع يمزق رأسه . . وأصبح لا يستطيع أن يقوم بأى عمل إلا بعد أن يشرب الشاى الأسود . . بكميات كبيرة . . وقلت عنايته بصنعته وشعر بأن الزبائن انصرفت عنه . . وأنه تحطم .

وكان كمال يأخذ منه الأحذية الجديدة ليبيعها . . كان الرجل يشفق عليه ويشجعه على العمل . . ولكنه لم يعطه من ثمنها قرشا . . . واختفى عن وجهه . . وكان سليم يود أن يبلغ البوليس ثم أشفق على مصير الشاب بعد أن يدخل السجن . . ونسى أمر هذه الأحذية . . ثم حدث نفسه بأن كمال لا يحسن بيعها لأنه لم يعرك الحياة . . ولم يتمرن على التجارة ولا شك أنه أضاع النقود . . وأفلس وعاد إلى الجوع والبطالة . . وأشفق على مصيره المظلم وتألم . .

ولكنه رأى كمال منذ شهر واحد يرتدى أحسن الملابس وبيده ساعة ذهبية ويبدو فى أحسن حال . . فليس من المعقول . . أن يذهب كل هذا سريعا ويعود إلى الجوع . .

وأخذ سليم يحدث نفسه . . ثم استقر رأيه على أن يصعد إليه فى غرفته على السطح . . وصعد فلم يجده . . ووجد الباب كأنه مفتوح . . ولما نظر ألفى الفراش مهملا . . ويعلوه التراب والغرفة كأنها مهجورة منذ عام . . وذهل وهو يرى الأحذية . . إنه عاجز عن عمل أى شىء . إنه تنبل وكان يضحك عليه ويوهمه بأنه يبيع زوجين فى الأسبوع . . إنه عاجز عن القيام بأى عمل . ولكنه يرتدى أحسن الملابس ويبدو متأنقا ووجيها ويشرب أفخر أنواع السجاير . . فمن أين تجيئه النقود . . ؟

ونزل السلم وقد عزم أن يذهب إلى ناهد ويحدثها بما فعل كمال . . وقبل أن يقترب من بيتها خيل إليه أنه يرى كمال نازلا من البيت وأنه عندما شاهده أسرع وغاب فى الظلام .

ولكنه نفى هذا الخاطر عنه عندما اجتاز العتبة . .

ومرت الأيام . . ومرض سليم وذهب إلى ناهد وهو يتحامل على نفسه ورجاها أن تعطيه بعض النقود ليعالج نفسه ويأكل .

فهزت كتفيها . .

ـ منين . . معنديش .

ـ يبعى حتة دهب . . من اللى جبتهولك . .
وضحكت . .
ـ انت جبتلى دهب . . ؟
فجن الرجل من الغيظ . .
ـ أيوه . . وصرفت عليكى الألوف . .
ـ صرفت على نفسك . . يا عرة . . يا متعوس . . من فضلك أنا رايحة الشغل . . متعطلنيش . . اتفضل . .

وأخذت تسمعه كل كلام موجع وتنمرت له كاللبؤة . . وغدت تتهرب منه وأصبح يذهب إليها فلا يجدها . ويجدها ولا تفتح له الباب . وكان يغلى غيظا . . ولكنه يكتم الانفجار . .

وذهب إليها مرة وطرق الباب . . وكان النور مضاء . . قبل أن يصعد السلالم . . فلما وقف على الباب . . انطفأ النور . . وعاود الطرق وسمع حسها . . وهى تتحدث بصوت خافت وسمع حس رجل . .

وأصغى ووضع أذنه على الباب :
ـ دا يمكن الأعور . . إن كان هو يبقى ليلة سودة . .
ـ بيحبك . .

وسمع ضحكة ساخرة . . ووصفا له اجنه . . ووجد نفسه يدفع الباب بجسمه فانفتح بسهولة . . ودخل وأشعل النور . . ووجد ناهد عارية فى أحضان رجل ولما استدار له الرجل عرفه . . إنه كمال . .
وخرجت ناهد . .
ـ اطلع بره يا كلب . . إزاى تدخل . .
ودار بعين مجنون . . ووجد سكينا ملقاة بجانب بقايا بطيخة . . على مائدة صغيرة فى الصالة . .

وكان على المائدة بقايا لحم وخمر . . إنها تطعم كمال وتصرف عليه من نقوده . .

وتناول السكين سريعا . . وتقدم بها نحوهما . . فدفعه كمال سريعا برجله . . وهرب . .

ولم يجد سليم أمامه سوى ناهد . . فانقض عليها يمزق جسدها . . تمزيقا . . ولما خارت قواه سقط بجوارها . . ولكنه ظل قابضا على السكين .

فرغنا من حصاد القمح وكومناه فى الأجران ودارت على القش النوارج . وتركت كل شىء فى حراسة الشيخ عبد الحفيظ وركبت الفرس إلى حانة المحطة لأقرأ وأعرف أحوال الدنيا والسوق . . وهى حانة صغيرة على مسيرة ثمانية أميال من العزبة يملكها رجل يونانى وهى المكان الوحيد فى تلك المنطقة الفقيرة الكئيبة الذى تحس فيه بالحياة . . وتجد فيه فنجانا من القهوة وكوبا من الماء النقى . . وقد جعلها الرجل تحت أنظار الذين يخرجون من قطارات الركاب التى تقف على محطة بنى نافع .

فهى قهوة صغيرة وبار وبقالة فى الدور الأرضى . . ثم سرير واحد . . فى الطابق الثانى للموظفين والتجار الذين يتخلفون من قطار الليل ولا يجدون سيارة أو ركوبة تنقلهم إلى بيوتهم . . ولكن نزلاء هذه الغرفة كانوا قليلين جدا على مدار السنة . ولم يكن مخالى يحسب لهم حسابا . . ولهذا أقام فى هذا الطابق هو وزوجته وكانت عنايته كلها متجهة إلى الحانة .

وفى هذه الحانة كنت أستريح كلما نزلت من القطار حتى تجىء الركوبة التى تنقلنى إلى العزبة وأعود اليها كلما أحسست بالفراغ والوحشة .

وكان من زبائن الحانة المستديمين توفيق أفندى ناظر المحطة ثم عبد الجواد أفندى أمين شونة بنك التسليف . . ثم السيد حسن عبد المجيد وهوشاب مثلى من المزارعين وكان مقطوع الرجل اليسرى ولكنه خير من يركب على سرج وأبرع رجل فى الرماية . .

وكانت مدينة ديروط تبعد عنا ساعة فى القطار . . ولكننى لم أكن أحس فى محطة بنى نافع الصغيرة بالوحشة .

وكان توفيق أفندى يحمل إلى كل الجرائد والمجلات التى جاءت فى قطار الظهر . . وعطية الفراش يخدمنى ويذهب إلى كل مكان .

ويجىء بالطعام من عند مخالى إذا ما رأيت أن آكل فى المحطة .

وكنت أقرأ الصحف وأنا أستظل بشجرة فى داخل المحطة وأسمع حركة القطارات وصفيرها وجلجلتها على القضبان . . وحركة السيمافورات التى تفتح وتغلق كلما مر قطار . . وارى أسلاك التليفون والبرق وهى تهتز وأعمدتها تئز كلما مر الإكسبريس وهو يثير زوبعة من الغبار . .

وكنا نسهر فى الحانة ونسكر . . وكان يمر علينا تجار الغلال والماشية فنعرف منهم كل أحوال السوق . . فإذا ما مر قطار الساعة الحادية عشرة ليلا وهو آخر قطار يقف فى المحطة . . فرغت القهوة والبار من روادهما . وجلس توفيق أفندى وعبد الجواد أمين الشونة وحسن عبد المجيد حول المائدة يلعبون القمار وكنت أجلس لأتفرج ولا أشترك معهم فى اللعب إلا قليلا .

وكانوا يلعبون فى أكثر الحالات إلى الصباح . . ثم يذهبون إلى عملهم محطمين من التعب وأعود أنا إلى العزبة لأنام إلى الضحى . . وكان مخالى يتقاضى جنيها كاملا أجرا للمائدة . . وكنا نصرف أضعاف هذا المبلغ على الطعام والشراب والواقع أنه كان يعتمد علينا اعتمادا كليا . .

وكنت قد شغلت كلية بالحصاد فلم أذهب إلى الحانة طيلة أسبوعين فلما عدت إليها بعد هذه الغيبة وصعدت إلى الدور الثانى كعادتى لأغسل وجهى من تراب الطريق لمحت فتاة جالسة فى الغرفة الداخلية وكان وجهها إلى النافذة . . وظهرها إلى فلم أتبين ملامحها وإنما رأيت ثوبها وجسمها وهى جالسة على الأريكة . ولما أخذت طريقى إلى السلم لمحتنى فأعطتنى نصف وجهها . .

***

وأصبحت أرى الفتاة كلما جئت إلى الحانة . . وكانت تساعد مدام مخالى فى عملها وعلمت أنها أخت المدام . وأنها كانت تعيش فى الإسكندرية وجاءت بعد أن مات زوجها . . ولم أكن أبيت فى حانة المحطة قط . . وإنما كنت أستريح فقط فى النهار على كنبة أوحشية فى ساعات القيلولة . . ولكننى بعد أن وقع نظرى على «أتينا» واستملحتها كنت أصعد إلى الدور العلوى . . لأستريح فى النهار والليل . . وبدلا من تناولى الطعام فى البار كنت آكل فى الطابق الثانى وكانت أتينا تعد لى المائدة وتقدم الطعام والشراب . . وكنت أشرب الكونياك فى أغلب الأحيان وأظل أتحدث مع مدام مخالى وأتينا . . حتى أسمع صياح حسن عبد المجيد فى الدور الأرضى فأعرف أنهم بدأوا يلعبون القمار . . وكانوا يلعبون يومين أو ثلاثة فى الأسبوع . . دون انقطاع عندما يتكامل عددهم ويعود الموظفون منهم الذين ذهبوا للتفتيش والواقع أنهم كانوا جميعا يحسون فى أعماقهم بالتعاسة ويشكون من

الخمول والفراغ وكانوا يحسون بالفراغ أكثر فى المساء إذا لم يكن هناك ما يشغلهم على الإطلاق وكنا نشكو جميعا من الملال والضجر .

ونجد فى حانة المحطة البلسم لجراحنا . وكنا فى أيام الصيف المتقلة تتعذب من الغبار والذباب والظلام الذى حولنا وفى نفوسنا . . فإذا فرغنا من أيام الحصاد وجمعنا المحصول . . . طرنا إلى المدينة لننعم بما فيها من أنوار .

وكانت حانة المحطة التى تضاء «بالكلوب» هى مقصدنا والنور الوحيد فى الظلام المحيط بنا .

وكنت عندما أسمع صياح حسن ورفاقه فى الدور الأرضى أهبط إليهم وأحاول أن أعيدهم إلى الهدوء . . وكانوا يلعبون القمار كمحترفين وتستغرق اللعبة حواسهم كلها . . وكنت أراقبهم عن كثب أدرس وجوههم وانفعالاتهم . . وكان الواحد منهم يتشاءم لمجرد تغيير الكرسى الذى يجلس عليه والكوب الذى يشرب منه . . أو إذا وقف مخالى على رأسه . . أو إذا وضعت له أتينا الكأس على حافة المائدة من الناحية اليسرى ! كانوا يتشاءمون من أشياء تبعث على الضحك . . وكان القمار يستغرق حواسهم فلم ينظر أى واحد منهم إلى أتينا نظرة اشتهاء رغم أنوثتها الصارخة ولقد أدركت من هذا سلطان القمار على النفس . . فهو يقتل الرغبة فى النساء . . وهذا أعظم سلطان .

وكان مخالى يغلق باب الحانة المؤدى إلى الشارع . . ويبقى الباب الداخلى الصغير المفضى إلى الدور العلوى .

وكانوا ينتهون من اللعب فى الساعة الثانية أو الثالثة صباحا . . ويخرجون صفر الوجوه محطمين جميعا جائعين إلى النوم .

وكان الذى يكسب فى أغلب الحالات هو عبد الجواد أمين الشونة . . وقد عجبت أول الأمر للحظ الذى يواتيه على طول الخط ثم علمت أنه يغش فى اللعب وكان سكيرا ومقامرا ومرتشيا ويسرق من محصول الفلاحين المساكين الذى يقدمونه للشونة فى عملية الحيازة . فيأخذ من كل أردب كيلة كاملة لنفسه يسرقها فى الميزان .

وكان جميع الفلاحين يعرفون ذلك . . ولكن ما من واحد منهم كان يستطيع أن يفتح فمه .

ولم يكن يفعل هذا إلا مع صغار الفلاحين أما كبار المزارعين فكان يخشى بأسهم ويتقرب إليهم ويجعل منهم ستارا وحماية . .

وكان قد أخذ يشترى الأطيان من الفلاحين بعد أن يقرضهم بالربا الفاحش ويجدوا أنفسهم عاجزين عن السداد . ثم أخذ يستأجر العزب الكبيرة ويؤجرها للفلاحين . .

وكان حسن عبد المجيد يكرهه لهذا ويجد فيه دخيلا على المنطقة ومنافسا خطيرا وكانت هذه الأحقاد المكتومة تنفجر فى ساعة القمار .

ولم أكن أشفق على أحد منهم إذا ما خسر فى الليلة الواحدة خمسة أو عشرة جنيهات لأنهم أثرياء ويأتيهم المال من عرق الفلاح المسكين . . وإنما كنت أشفق على توفيق أفندى ذلك الموظف المسكين الذى جره الفراغ والتعاسة إلى هذه اللعبة القاتلة .

***

وذات ليلة نمت فى الدور العلوى من الخانة لأننى كنت قادما من ديروط ولم أجد الركوبة فى انتظارى لتقلنى إلى العزبة .

وأعدت لى مدام مخالى سريرا نظيفا . . وعشاء ساخنا . . فجلست بعد العشاء أدخن . . وأنظر من نافذة الغرفة إلى ما حولى من ظلام وسكون . . وكانت المحطة هناك على مرمى البصر وليس فيها أى شىء سوى مصباح ضئيل أحمر . . تتراقص ذبالته كلما تحرك الهواء .

وكان الشىء الوحيد الذى يسمع صوته هو أسلاك البرق وحركة السيمافورات الأتوماتيكية . وكان خفير المحطة يتحرك فى الظلام على الرصيف مقبلا مدبرا . . ثم يضع البندقية بين رجليه ويجلس على زكائب من الغلال فى انتظار الشحن . . وكان منظر مكتب التذاكر ومكتب الناظر وخلفهما بستان من النخيل قد زاد المكان جهامة ووحشة وكانت أنوار القرى الصغيرة تبدو من بعيد . . وبعض الفلاحين يشعلون النيران فى الحقول . أما قرية نافع والعزب المجاورة لها فقد كانت غارقة فى ظلام دامس وليس فيها أى دليل على الحياة . .

ومر قطار بضاعة طويل وكان قادما من أسيوط وأخذ يصفر فبعث الحياة فى المكان

وكان الجو حارا فتركت الباب والنافذة مفتوحين ليمر الهواء وأطفأت المصباح البترولى وتمددت على السرير وقد شعرت بطراوة الهواء وبالسكون . . وسمعت صوت مخالى وهو داخل فى الردهة لينام . . ثم أحسست بنور غرفته يطفأ ويبقى فقط المصباح البترولى الصغير فى الردهة . . وكان يلقى ضوءا لينا على مدخل البيت

ومرت أكثر من ثلاثين دقيقة أخرى وأنا متيقظ ثم رأيت نورا جديدا يدخل الردهة وبابا . . يفتح . . ودرت نصف دورة على السرير ورأيت أتينا فى غرفتها من بابها المفتوح . . تجلس نصف منحنية على الكنبة الوحيدة . . وفى يدها سيجارة . . ولم أرها تدخن قبل هذه اللحظة . . وخيل إلى أنها تأكل السيجارة ولا تكتفى بسحب دخانها . وكان شعرها يغطى نصف وجهها وقميص نومها ينحسر عن الساق اليمنى حتى الفخذ ويغطى

الساق الأخرى كلية . . وبدت خطوط جسمها واستدارة كتفيها وضغطة الرأس الصغير على العنق . . وانتصبت وغابت عن بصرى لحظة وعندما عادت إلى مكانها . . انحنت قليلا على المصباح لتخفف من نوره .

ثم تلفتت كأنها تبحث عنى أو كأنها تخشانى . . ثم استقر رأيها . . وأخذت تخلع القميص وفى نفس اللحظة أغلقت عينى . . كأننى لا أستطيع الصمود أمام هذه الفتنة الطاغية . . وسمعت بعد دقيقة واحدة المفتاح يدور فى قفل الباب .

وفى الصباح دخلت على الغرفة بصينية الشاى وسألت :

ـ نمت كويس . . . ؟

ـ خالص . . هواء جميل . .

ـ الغرفة الثانية بحرية وفيها هواء أكثر . . تعال شوفها .

ومشيت وراءها إلى الغرفة التى نامت فيها . ورأيت آثار جسمها على السرير .

ـ أعجبتك . . . ؟

ـ طبعا هذه أحسن . . ولكنك تنامين فيها . . فهى لك .

ـ لأ سنجعلها لك حتى تنتهى من المحصول . .

ـ لقد أصبحت ريفية وتعرفين المحصول . . ومواعيده . .

ـ عشت طويلا فى الريف . . فى نجع حمادى . . فى البلينا . . فى المنيا . .

ـ قبل الجواز . . ؟

ـ وبعده . . .

ـ ستمكثين طويلا هنا . . ؟

ـ لا أدرى . أسافر فجأة . . كما جئت فجأة . . . !

وكنا نتحرك تجاه الباب معا .

وعند المصراع المفتوح اقتربنا وكلنا نلتصق . . ورأيت صدرها العارى يتحرك مع أنفاسها . . وأخذت أقاوم رغبة عنيفة فى ضمها إلى صدرى . . فوقفنا دون حركة على العتبة نصف دقيقة كاملة ونحن نتبادل النظرات الملتهبة . وسمعت صوتها أشبه بالهمس :

ـ اتفضل . .

فتحركت إلى الخارج وكأنى خارج من دوامة .

وأخذت أبيت عند خالى . . وأباشر عملى فى العزبة . . وازددت قربا من أتينا . . وكانت تحادثنى بحرية المرأة التى خرجت إلى الحياة . وذهبت إلى أكثر من مدينة وعرفت ألوانا وأشكالا من الناس .

وكانت امرأة ككل النساء اللواتى عرفتهن فى الحياة ولكن كانت غليظة ا لشفة سوداء الشعر جدا . . واسعة الفم والعينين . . وكان صوتها أشبه بصوت ا لكروان . . وكنت أسمعها تغنى غناء خافتا وهى تعمل فى المطبخ وبدا لى أن أسألها هل اشتغلت بالغناء فقد كانت تغنى وكأنها تصاحب الأوركسترا . .

وكان مخالى يقدم الطعام لمعظم الموظفين وتجار المواشى والغلال الذين يمرون بالمنطقة فى فترة المحصول . . لأن القرية كانت بعيدة عن المحطة . . وكانت زوجته وأتينا تصنعان الطعام كله . . وكانت الفلاحات يحملن له حتى الباب كل ما يحتاج إليه . . . الطيور والبيض والخضار ويختار منها أجود الأصناف . . وكان الفلاحون يقولون عنه إنه جمع ثروة طائلة لأنه يعمل فى الريف المصرى منذ أربعين سنة

وبعد العمل فى البيت كانت أتينا تجعل كل وقتها لى . . وشعرت نحوها بالحب الممزوج بالشفقة . لأن مخالى كان يتقاضى أجر إقامتها عنده أضعافا مضاعفة ويجعلها تعمل خادمة وطاهية وغسالة وحائكة للملابس .

كل الأعمال التى تجيدها النساء ويحرمها من لذة الحب والراحة .

وكانت إذا رأتنى فى الظهر وأنا أستريح ساعة القيلولة يبدو الفرح على وجهها . . لأننى الوحيد بين كل الذين رأوها الذى أعارها انتباهه .

وكنت معها ذات غروب عندما لمحت وأنا أحرك يدى على صدرى خطا أسود بجانب الكتف . .

فسألتنى :

ـ جرح . . . ؟

ـ رصاصة قديمة . .

وفتحت فمها من الذعر فقلت لها بأسى :

ـ رصاصة أطلقها أخ لحسن . . الشاب المقطوع الرجل الذى ترينه فى الحانة . . وكنا فى سامر ورأى الراقصة . . فاهتاج وأطلق الرصاص ليفض السامر ومن وقتها وأنا أكره السامر والسمر . . والنساء ! .

وسألتنى وهى باسمة :

ـ ولماذا تعيش فى الريف . . .

ـ ما من ذلك بد . . جئت مضطرا بعد وفاة والدى . . وكنت أود أن أدير شئونى وأنا فى المدينة ولكننى وجدت أن ذلك مستحيل . . فأنا أسرق وأنا موجود من حراس الزراعة ومن الفلاحين ويضيع ربع المحصول . . فكيف إذا غبت عنهم !.

إن الفلاح يعتقد أننا نأخذ منه قوت عياله . . وهو على حق فى اعتقاده لأنه يشقى . . ويفلح الأرض ويعمل طول السنة . . ونحن لانعمل أى شىء ونستولى على المحصول . فهو مظلوم من مئات السنين ويحس بالظلم أكثر عندما يرى غرسه يذهب لغيره . . وبشعور الظلم هذا يسرق ويقتل ويفعل كل ما ينفس عن هذا الكظم . . وعندما جئت إلى هنا منذ عشر سنوات حاولت أن أكون عادلا فأعطيت الكثير منهم فدانين وثلاثة . . ليزرعوها لأنفسهم نظير إيجار معقول . . وبذلك يحسون بكرامة الإنسان .

ـ ولماذا لم تتزوج . . . ؟ أما زلت تكره النساء . . . ؟

ـ فى الواقع لا يوجد سبب معقول . . وقد أكون استطبت هذه الحياة . . . والآن فات الأوان . . .

ـ ولماذا . . . ؟

ـ هذا هو إحساس الرجل بعد سن الثلاثين . .

ـ ولكن الزواج قبل هذا حماقة . .

ـ الرجل يتزوج فى سن العشرين فى الريف . . فإذا ضاعت منه الفرصة فى هذه السن . . فاته القطار . .

ـ ولكنك فى أنسب سن للزواج ويجب أن تتزوج . .

ـ ولماذا تصرين على زواجى . .

ـ لأنى أخشى عليك من الخمر . . والقمار . . أخشى عليك من الدمار . .

ـ ولماذا لا أسكر وأشرب وأنا متزوج . .

ـ لأنك لن تشعر بالفراغ . . . ولا بالتعاسة التى يخلقها الفراغ المطلق للإنسان عندما يكون فارغا يدور حول نفسه . . ولكن عندما تتزوج ستشعر بعظم الحياة ولذة الكفاح لإسعاد أسرة ولا تجد لحظة لتفكر فى نفسك . . . تعيش لغرض أسمى . .

ـ ألم يلعب زوجك القمار . . . ؟

ـ لو كان مقامرا أو سكيرا لقتلته . . . إن المرأة تكره هذين كرهها للشيطان . .

ـ ولهذا تكرهيننى . . !

ـ إننى لا أكرهك . .

ـ ولا تحبيننى كما أ . . .

ـ باستا . . . باستا . . .

ولا أدرى لماذا اختارت هذه الكلمة الايطاليه وخرجت مسرعة . .

وذهبت إلى العزبة لأدخل الغلة فى الشونة . . وأقمت فى عريشة .

وكان النهار يمضى مملا محرقا وليس فيه حركة . . وفى الأصيل كانت تبدو الحركة . . تخرج الطيور لالتقاط الحب والأغنام ترعى . . والجاموس والأبقار والجمال تتحرك فى الحقول . . والنساء يذهبن إلى النيل لملء جرارهن . . وكانت طريقهن بجوار العريشة . . ولكنهن لاحظن وجودى فغيرن الطريق إلى أبعد . . فإن وجودى فى العزبة كان يقيد من حريتهن . .

وفى الصباح كن يذهبن . . لملء الجرار قبل أن تطلع الشمس وكنت أراهن راجعات من النيل وأرى واحدة فى كل سرب وقد ابتل ثوبها والتصق بجسمها فأعرف أنها نزلت فى النيل لتستحم وهى لابسة جلبابها الوحيد . .

وكنت أرى تقاطيع هذه الأجسام جميلة طبيعية تبدو نضارتها وفتنتها وأشعر بلسعة كأننى اكتويت بالنار . .

وكنت أتمشى ذات يوم بعد الفجر على الطريق الزراعى الضيق المؤدى إلى الشاطىء ولمحت من بعيد ثلاثا من النساء يملأن «البلاليص» وقد شمرت إحداهن عن ساقيها وفخذيها . . وحلت شعرها وخلعت جلابيتها السوداء وبقيت فى قميص . . وأخذت تدعك ساقيها وفخذيها بالصابون وبصرت بى إحداهن . . فحدثت زميلتيها فظهر الذعر عليهن جميعا وغصن بملابسهن فى الماء . .

وتراجعت آسفا ضاحكا ولم أذهب إلى هذا المكان مرة أخرى . .

وعندما انتهيت من نقل الغلة إلى شونة بنك مصر رجعت فى الليل إلى حانة المحطة . . وطلبت من أتينا أن توقظنى قبل قطار الركاب فى الساعة الرابعة صباحا . .

فقالت :

ـ ولماذا تنام . . ابق صاحى أحسن . .

ـ سأنام ولو ساعتين . . وأرجو أن ألحق القطار . .

وبعد ساعة جاءت ضاحكة ونادتنى . .

ـ يا سيد إبراهيم . . اصح الساعة قربت على الرابعة . .

ـ كم الساعة حقا ؟ .

ـ نصف الليل . .

كانت واقفة على العتبة وممسكة بيدها اليمنى مصراع الباب من أعلى وواضعة خدها على يدها . . . وثانية رجلها اليمنى . . نصف مسترخية ونصف حالمة . .

فقلت لها وأنا مسرور بجمالها . .

ـ ما أحلاك الليلة . .

– ألانى أيقظتك . . تقول لى هذا الكلام . .

ـ لم أنم . . .

واستويت على أرض الغرفه . . ورأيت النيل تبدو صفحته تحت ضوء القمر . . ومركبا واحدا يسبح ضد التيار . .

وقلت لها :

ـ إننى كلما رأيت مركبا على النيل . . تخيلتك معى هناك . . ولا أحد سوانا . .

ـ هل أعمل لك شاى . . . ؟

ـ هل فى كلامى ما يسوء . . ؟

ـ لا . . . ولكن ما هى النتيجة . . .

ـ وهل من الضرورى أن يكون لكل شىء نتيجة . . .

ـ هذا ضرورى . . بالنسبة لإحساسى كأنثى . .

ـ على أى حال أنا أعتبر نفسى سعيدا . . سعادة لا تقدر . .

ـ لماذا . . من الغريب طبعا . . . أن تصادف امرأة شابة مثلى فى حانة وتجد شبه فندق فى هذا المكان . . فى قلب الصعيد . . وأنا نفسى تساءلت لماذا اختار مخالى هذا المكان المقفر ليجعله مورد رزق له . . ثم علمت أن سوق القرية كان قريبا منه عندما اختار هذا

المكان . . ثم انتقل السوق إلى ضفة الابراهيمية القريبة وبقى خالى هنا ، وعلى أى حال لقد أصبح كهلا . . ويريد أن يستريح لقد أدى دوره فى الحياة . .

ـ وأنت . . . ؟

ـ لقد انتهى دورى قبله . . وأسدل الستار . . .

ـ إنك شابة جميلة . . وأمامك الحياة الضاحكة بكل ما فيها من سعادة . .

ـ إنك لا تفهم شعور المرأة عندما يموت زوجها وهى صغيرة . . ويكون هو شابا مثلها . . يصيبها خدش طويل كهذا الذى تراه على لوح من البلور . .

ـ هل كنت تحبينه ؟ .

ـ إلى درجة العبادة . . كان شابا مثلك . . طويلا قويا . . وكان يكسب . . وكله أمل فى المستقبل . . ولكنه ذهب . . كالحلم . . ما من شىء يبقى فى الحياة . .

ـ إننى أفكر فى الذهاب إلى القاهرة لأقضى عشرة أيام بعد أن انتهيت من القمح . . فهل تذهبين معى .

ـ لا . . .

ـ لماذا . . ؟ لأننى مصرى أولا وريفى ثانيا . . وستشعرين معى وأنت أجنبية بأنك غريبة عنى . . .

ـ هل من الضرورى أن أقول لك إننى بقيت عند خالى . . لأنك جئت وليس لأننى أستطيب الحياة هنا . .

ـ أعرف أنك مستريحة لوجودى . .

ـ لماذا إذن تكثر من الكلام . .

ـ لأننى أحببتك من أول لقاء . .

ـ باستا . . . باستا . .

وخرجت ضاحكة . .

* * *

وذات ليلة عدت من العزبة متأخراً وقبل أن نقترب من المحطة . . دوى الرصاص قربنا . . وعرفت أنا والخفير الذى معى أن اللصوص سرقوا ماشية من الحقول . . وأحس بهم خفراء النقطة . . فاشتبكوا معهم فى معركة حامية . . ولا أدرى من الذى أشاع أننى قتلت . . فقد خرج الفلاحون بسلاحهم للاقاق . . وعندما وجدونى حياً . . التفوا حولى يهنئونى . . وانصرف الناس . . وبقيت فى الحانة مدة ساعة . . وجاء خالى والمدام . .

مسروورين . . بحياتى . . ولكن لم أر أتينا . . فتألمت وتصورتها سافرت . . . ولكن عندما صعدت لأنام . . وجدتها واقفة وحدها فى الظلام على بسطة السلم وعندما اقتربت منها ارتمت على صدرى وشدتنى إليها وهى تبكى دون صوت . .

وقلت لها هامساً :

- اتركى باب غرفتك مفتوحاً الليلة . .

فقالت وهى تمرغ خدها على لحمى . .

- فوق . . فى السطوح . . أحسن . .

ولم أنم وبعد نصف الليل جاءت حافية ترتدى قميصاً واحداً . . وطلعنا إلى السطح . . ولم نجد أى شىء نفرشه على التراب . . فخلعت قميصها .

وسألتنى وأنا أمسح بيدى على شعرها :

«ألم تحب . . . قط . . . ؟»
«قبلك . . . لأ . . .»
«وهل بيننا حب . . ؟»
«جنون . . .»

«تقول هذا الآن لأنه مضى عليك شهر وأنت بعيد عن المدينة . . . وعن النساء . . ولكن عندما ترجع إلى هناك ستنسى . . تنسى كل ما حدث إنك تحب الأرض التى تزرعها . . ولا شىء غير ذلك . . وأنا لست عندك أكثر من بقرة . . فلا تخدعنى . . . ؟

«وهل أنا ملتصق بالأرض إلى هذا الحد . . . ؟»

«ولكنك التصقت بها . . وكل الناس يتحدثون عنك . . كفلاح . . يعيش للأرض . . لأنها تعطيك أكثر من أى شىء آخر فى الحياة . .»

«وهل يمنعنى هذا من الحب . . . ؟»

«حب ريفية مثلك . . . ؟»

«يعنى أقطع الأمل إلى الأبد . . . .»

«أنا حبيبتك ما دمت هنا . . .»

- إذن سأظل هنا حتى الموت . . .

وشعرت بها تمسح بشفتيها على جرحى . . وسألت :

- هل تتألم من هذا الجرح . . . ؟
- إنه مات . . .
- آسفة . . كنت أحب أن أولك . . .
- بأسنانك . .
وبأظافرى . . . أريد أن أجعلك تدمى . . هذا شعور غريب . . ربما لأنك أقوى . . ولأنك رجل . . لا أعرف . .
. . وظللنا نتناجى حتى طلع القمر .

* * *

وفى الليلة التالية . . قمت فزعاً من نومى على صياح فى الحانة . . ثم تبينت صوت توفيق أفندى . . ثم صوت حسن عبد المجيد . . وعلا الصياح فنزلت مسرعاً . . ووجدت توفيق أفندى يستعطف ويبكى وهو فى حالة يرثى لها . . فقد خسر عشرين جنيهاً . . . ولم تكن نقوده وإنما كانت إيراد المحطة . . وقال لهم وهو يبكى إنه سيسجن . . وتوسل إليهم أن يعطيه كمبيالة بأى مبلغ نظير أن يرد إليه نقود الحكومة . وكان يخاطب عبد الجواد أمين الشونة لأنه هو الذى كسب منه المبلغ . ولكن عبد الجواد لم يستمع إلى أى رجاء . . وتدخلنا جميعاً ولكنه أصر على عدم رد مليم واحد . . وهنا ثار حسن عبد المجيد . . ووقف يزأر :

- أعطه الفلوس . . طلعها من جيبك حالاً . .
- بأى حق . . ؟
- لأنك لص وغشاش . . وحقير . . ومرتشى . . وكل الناس تعرف عنك هذا .
- أنا ياكلب . .
- أنا كلب ياحرامى . . . ؟ خد . . .

وأخرج حسن مسدسه سريعاً وأطلق النار . . وسقط عبد الجواد صريعاً . . وبين دوى الرصاص والصياح والذعر . . ظهرت أتينا على الباب وكنت منحنياً على عبد الجواد فحسبتنى أنا الذى أصبت . . فجرت وارتمت على صدرى . .

وفوجىء الحاضرون وأخذوا بهذا المنظر . . . حتى نسوا من فرط الدهشة القتيل الذى سقط منذ لحظة . .

كان صبرى سعيداً فى حياته الزوجية . . . فقد كانت زوجته هدى متعلمة فى المدارس المصرية والأجنبية . . وتدير شئون البيت بنظام ودقة . . وتعرف أشغال الإبرة والحياكة والطهى وتجيد العزف على البيان .

وكانت تهيىء لزوجها بعد عودته من عمله عشاء هنياً . . فلا تشغله بما جرى من الأولاد . . ولا تقول له إنها لم تجد لحماً اليوم فى السوق . . أو خبزاً نظيفاً أو طيوراً أو أن بائع اللبن يغش والمكوجى أضاع القميص . . كانت لا تحدثه بهذه التوافه لأنها تعرف أنه يعمل فى الخارج عملاً مرهقاً . . وجاء البيت ليستريح . . وكان يشعر بالسعادة لهذا . . ويحمد الله الذى اختار له هذه الزوجة ولكنه كان يعانى العذاب من شىء واحد . . من ترددها فى شراء حاجاتها . . كانت تتردد فى شراء الحذاء . . والجورب . . والفستان . . والبلوزة . . والجونلة . . «والإشارب» .

وتدخل المحلات كلها . . الكبيرة والصغيرة لتختار علبة بودرة . . وكان يتضايق من هذا ويحاول أن يجعلها تقلع عن هذه العادة الذميمة . . ولكن الداء كان متمكناً من نفسها .

وكان يستريح من عمله فى يوم الجمعة . . وأصبح يكره هذا اليوم لأنه بدلاً من أن يتنزه مع زوجته ويريحا أعصابهما . . كانا يمران على المحلات .

وكان يظل من الساعة التاسعة صباحاً . . إلى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر . يلف ويدور كالنحلة ويخرج من محل إلى محل . . دون أن تشترى أى شىء على الإطلاق .

وكان يخجل من العاملات فى المحلات وهن يعرضن على زوجته كل صنف ولون . . ولكن ما من صنف يعجبها . .

وخرج معها ذات صباح لشراء بلوفر . . ودخلا محلاً صغيراً فى ميدان مصطفى كامل . . وأخذت العاملة تريها كل الأنواع . . وكل الألوان المفتوح والمغلق من العنق . . وذا الأكمام . . والنصف كم . . وكانت العاملة جميلة وفمها يضحك أبدا . . وخبيرة بطباع النساء . . فلم تتضايق وهى تغير هذا وتبدل تلك وتصعد إلى الصف الثانى من الرفوف وتنزل . . وأخذت هدى البلوفر الذى وقع عليه الاختيار . . ودخلت إلى حاجز البروفة . . وسمع صبرى وهو واقف فى الخارج العاملة تقول لزوجته :

«جنان ياهانم . . مافيش أجمل من كده . . .»

ولكن هدى خلعت البلوفر ووضعته على الطاولة فى تردد . .

«مبروك . . .»

وأخذت العاملة تعد الفاتورة . .

«لا . . . استنى . . .»

«على كيفك . . .»

«عاوزه أشوفه كويس فى النور . . .»

«تحبى تشوفيه على . . .»

«أيوه . . .»

وأخذت العاملة تفك أزرار قميصها أمام الزوج . . وبدا البياض من كتفيها وجيدها وصدرها . .

وتناولت البلوفر ولبسته فى تمهل . وبدا منسجماً رائعاً وبدت العاملة أكثر جمالاً . .

وقال صبرى :

«بديع خالص لفيه . . .»

«إستنى . . .»

فسألها زوجها .

«تستنى علشان إيه . . .؟»

«لما نشوف عند إيزين . . .»

وطار عقل صبرى وخرج من المحل وهو يلعن نفسه والمتزوجين جميعاً .

وقالت له زوجته فى الطريق :

«يعنى لازم تبصبص حتى وأنا معاك . . .؟»

«أبصبص . . . ؟»

واستغرب وذهل . .

«إزاى تطلب من العاملة تقلع وتلبس قدامك . . ناقص كنت تقلعها خالص . . »

«وأنا اللى طلبت منها كده . . . ؟»

«طبعاً . . أمال أنا . . . »

وازداد غيظه وكاد أن ينفجر ولكنه كتم هذه الانفعالات كلها ولاذ بالصمت .

ووجدت هدى أخيراً فى دكان صغير «بلوفر» جيلاً . . من أجود أنواع الصوف . . ويباع بربح بسيط . . وسر زوجها لأنها اختارته . . ولكنها لم تأخذه . . وقالت لصاحب المحل أنها ستمر فى الصباح .

وفى اليوم التالى دق جرس التليفون فى مكتب صبرى . . وكانت المتحدثة زوجته وطلبت منه أن يقابلها بعد ساعة فى شيكوريل .

«هل المسألة مهمة . . للدرجة دى . . يعنى أسيب شغلى وأنزل علشان تلفى زى ما كنا إمبارح . . »

«ولو كانت اللى كلمتك . رفاصة . . أو أرتست . . كنت حتقولها لأ . . . ولا تنزل تجرى . . »

«أرجوك بلاش كلام فارغ . . أنا دلوقت فى عز الشغل . . »

«طبعاً أمال حتقول إيه . . علشانى . . وعلشان الأولاد . . دائماً مشغول . . ولغيرنا فاضى . . »

وتطور الحديث بين الزوجين . . إلى زعيق . . حتى سمعها تبكى . . فوضع صبرى السماعة منفعلاً . .

وبعد نصف ساعة . . طلبها . . وقال لها إنه سيلقاها عند شيكوريل . . ولم تشتر شيئاً من هذا المحل . . واختارت البلوفر من الدكان الصغير ودفع الثمن وخرجا وهو يحمد الله . . ولكنه وجدها قد أرجعت البلوفر بعد الظهر وغيرت اللون من أسود إلى أزرق . . فلم يهتم . .

ولبست البلوفر الأزرق فى البيت وأرته لزوجها وأقبلت به وأدبرت فى غرفة النوم . . وقال لها أنه رائع .

ومع هذا لاحظ . . أنها مشغولة البال وساهمة . . فتركها فى سهومها إذ كان يعرف أن المرأة تتغير طباعها تبعاً لدورة القمر . . .

وفى ضحى يوم الاثنين تكلم من مكتبه يسأل عن شىء فى بيته تركه سهواً . . فلم يجد زوجته فى البيت . . ولم تكن معتادة أن تخرج دون أن تعلمه فاستغرب منها ذلك . . وسأل الخادمة أين ذهبت . . فقالت له :

«معرفش ياسيدى . . دى نزلت من بدرى . . وقالت راجعة حالاً . . .»

فوضع السماعة وهو مستاء . . . وبعد ساعة سأل عنها . . فلم يجدها فساوره الشك وقال لنفسه لماذا لم تخبره . . إنها تفعل هذا كلما وجدت الفرصة وهو لا يدرى . . ولقد كان مغفلاً عندما منحها ثقته المطلقة وأنه يجب الحذر من النساء والتوجس منهن فى كل ساعة لأنهن متغيرات متقلبات . . وشعر بالهواجس تنهشه من كل جانب .

وكان يود أن يخرج فى الحال . ويذهب إلى البيت . . ولكنه قاوم نفسه حتى خرج فى ميعاده . . فلم يجدها . . وجلس فى الردهة ينتظرها وهو يغلى من الغيظ . . وأخذ يسب الخادمة . . وكل ما يقع عليه بصره . . وبعد ربع ساعة سمع حركة يدها فى قفل الباب ودخلت ولما رأته جالساً ظهر عليها الاضطراب والخوف فتأكدت شكوكه وقال لها بصوت يرعد .

«كنت فين . . . ؟»

فلم ترد وازداد اضطرابها . . وأخذ يصيح وينطلق الكلام من فمه بسرعة القذيفة .

وكانت الزوجة واقفة مسمرة فى مكانها مضطربة لا تجيب . . وفى أثناء ذلك سقط منها شىء على الأرض . . شىء صغير ملفوف فى ورقة . . وتمزقت الورقة وبدا . . البلوفر . . المسكين الحائر . . مطوياً طيتين . . وفهم لماذا خرجت دون أن تعلمه . . لأنها تود أن تغير البلوفر خلسة .

وهرولت الزوجة إلى غرفتها وأخذت تبكى وتصيح :

«إنت متوحش . . مين يطيقك . . مين يعيش معاك . . متوحش . .»

وجلس الزوج صامتاً يتلقى الشتائم بدوره . . وينظر مبتسماً إلى البلوفر المسكين . .



حدث ذات ليلة

وقصص أخرى

أوفدتنى شركة الأراضى الساحلية فى صيف عام . . للإشراف على إصلاح عزبة عبد الرحمن بك المغربى . ولم تكن معى سيارة خاصة ، وكانت العزبة هناك فى البرارى على مسيرة ثلاثين ميلا من إدكو . فى تلك الأرض العذراء التى لم تعمل فيها فأس ولم يشقها محراث .

وركبت السيارة العامة إلى إدكو . . ولما اقتربت منها رأيت منظراً يأخذ بلب المشاهد وبصره ، فقد بدت المنازل السود من بعيد ، وقد أحاطت بها المياه كأنها غارقة فى اليم . . وكان السكون والجمال يغمران القرية ، والطيور الحالمة تحلق فوق رءوس المنازل ، وقوارب الصيادين واقفة فى صف طويل ، وقد طوت أشرعتها وألقت مرساها . . فى انتظار عشاق الصيد فى المياه الساكنة . . وجلست على مقهى صغير خارج القرية منتظراً إحدى السيارات الذاهبة إلى دمنهور ، وبعد ساعة كنت فى العزبة . ولم أجد المعاون فقد كان فى التفتيش . وتناولت كرسيا وجلست على باب المكتب أتطلع إلى الحقول وإلى منازل الفلاحين . . وإلى السواقى والطنابير الدائرة فى المزرعة .

وجاء المعاون بعد قليل ، ووراءه اثنان من الفلاحين . واستقبلنى بترحاب زائد .

وكان عبد الكريم أفندى على غرار أمثاله من نظار العزب ومعاونيها الذين شاهدتهم من قبل فى رقعة الدلتا . . يرتدى بذلة رمادية فضفاضة ، وقد حشا جيوبه بالأوراق والدفاتر ، وأمسك بيده شمسية ، وإن كان لا يستعملها أبداً ، ووضع على رأسه طربوشا قد أكل نصفه الأعلى التراب . . وذيل أسفله بالعرق . . وقد علق بحذائه الوحل ، واتسخت سترته وقميصه بآثار زيت أو مخلفات طعام . . وكان الرجل فى عقده الخامس ، وليس على وجهه أثر العافية ، وفورة الدم التى تراها فى هؤلاء الذين يعيشون فى الهواء الطلق بين أحضان الطبيعة متمتعين بحرارة الشمس ودفئها . وما من شك فى أنه قضى شبابه فى المدينة فى عمل آخر لا صلة له بالشمس والهواء .

وأرانى المعاون سكنى . . وهو دور مكون من ثلاث حجرات ويقع فوق سكنه . وكان المنزل نظيفا ، والمناظر حوله خلابة فسررت به جداً .

وتناولت الغداء فى بيته وجلسنا بعد الغذاء أمام البيت على كراسى من القش . . وجلس حولنا الفلاحون يشكون من انخفاض منسوب المياه فى القنوات . . ومن كثرة الأملاح فى الأرض . . ومن قلة المحصول . . ثم نهضنا وأخذنا نتفقد الأرض ، وندور فى الحقول . وكانت زراعات البرسيم هى الغالبة فى تلك المنطقة . . والبرارى الشاسعة الأطراف التى لا يأخذها البصر تحيط بهذا كله . . وكانت العزبة مكونة من اثنى عشر منزلا صغيراً مبنية بالطوب الأحمر . . وحولها زرائب الماشية ومخازن الغلال . . ثم لا شىء بعد ذلك . . لا قرية حولها . . ولا دسكرة . . وإنما برارى وأرض قفر لم يرن عليها حافر ، ولم تطأها قدم إنسان . . وكان الفلاحون يشربون من القنوات ويتسلون . وشاهدت أكثر من امرأة فى الحقل تعمل مع زوجها ، ورأيت وجوها نضرة ، وبشرات ناصعة البياض لم تلوحها الشمس .

وجلست على حافة قنطرة أنظر إلى الطيور وهى تعبر فى أسراب جو المزرعة . . وإلى السواقى الدائرة . . وإلى المحاريث النارية وهى تشق الأرض البكر . . حتى أذنت الشمس بالمغيب فمشيت نحو البيت .

وتعشيت مع المعاون ، وأخذ على مائدة العشاء يحدثنى عن مهندس الزراعة الذى كان قبلى ، وعن قلة الأيدى العاملة فى هذه المنطقة .

ثم سألنى عن بعض شئونى . . ولما علم أننى غير متزوج ، قال لى إنه سيرسل إحدى الفلاحات فى الصباح لتتولى أمور بيتى . . كما كانت تفعل مع سلفى . . وهى امرأة نظيفة تجيد الطهو .

وشكرته . . واستأذنته إلى شقتى لأنام .

ونمت نوما عميقا . . واستيقظت قبل شروق الشمس على صوت (الطلمبة) فى فناء البيت . . وعلى صياح الديكة . . وسمعت صوتا نسائيا ناعما يتحدث مع الدجاج ويناغيه وهو يلقى له بالطعام .

وطلعت الشمس وجاءت نبوية . . فأعدت لى إفطاراً خفيفا . وأعطيتها المفتاح ونزلت إلى الحقول .

ومرت الأيام وكنت هادئا قرير العين ناعم البال . مستريحا إلى الحياة فى البيت والمزرعة ، فقد كان العمل يتقدم فى العزبة باطراد ، وكنا نصلح الأرض البور . . ونجمع المحصول . . ونبيعه ونستقبل الموسم الجديد بقلوب مستبشرة ، وكانت نبوية تعد لى

الغذاء . . وتترك لى العشاء على المائدة . . لأنها متزوجة وتنتظر عودة زوجها من الحقل . . فكنت أنام فى البيت وحدى ، وكان عبد الكريم أفندى رجلا مريضا محطما . . ولكنه خبير فى المزرعة وشئونها ، وقد تعلم من التجارب التى مرت به كثيراً . فكنت أستريح إليه وأترك العلم جانبا ، وأخضع فى كثير من الأحيان لآرائه وإرشاداته . وكان لى نعم الصديق والرفيق فى تلك المنطقة النائية البعيدة عن العمران وعن وسائل التسلية .

وكان متزوجا من سيدة لا تتجاوز الثلاثين ربيعا . . وقد رأيتها أكثر من مرة وأنا نازل على السلم أو عائد من الخارج . . وكانت على ما يبدو لى وادعة تحب زوجها ، فلم أسمع بينهما عراكا ولا خلافا ، طوال الشهور التى قضيتها فوق مسكنهما .

وكان عبد الكريم أفندى يدمن الشراب . وكانت تنتابه أزمات قلبية حادة وقد سقط مرة فى الحقل وحملناه إلى بيته ، وكان يرتعش وقد تفصد جبينه وأطرافه بالعرق .

وسألته .

ألا نطلب طبيبا من تليفون التفتيش ؟

فقال وهو يبتسم :

طبيب يجىء إلى هذه المنطقة محال ياأخى . . لا تزعج نفسك فأنا معتاد على هذه النوبات . . وسيمر الحادث بسلام

وقد مر الحادث بسلام فعلا ، ورأيته فى صباح اليوم التالى واقفا وسط الحقل .

وعدت ذات ليلة من الخارج متأخراً . . وصعدت السلم على مهل ، فقد كان الظلام شديداً . . وسمعت وأنا طالع حركة الباب فى الطابق الأول . . ثم صوت زوجة عبد الكريم أفندى وهى تقول فى رقة :

إستنى لما انور لك . .

وانتظرت وطلعت أمامى وبيدها المصباح . . ولا حظت وأنا طالع وراءها أنها تدير رأسها ، وتنظر إلى الوراء بين هنيهة وأخرى . . وكانت كلما أدارت رأسها رأت نظرى متحولا عنها . . فأخذت تصعد على مهل .

ولمحت عرضا شعرها . . وقد تدلى فى ضفائر على ظهرها . . وثوبها وقد انقسم نصفين عند سلسلتها الفقرية كأنما انشق بمقطع . . ورأتنى وأنا أنظر إليها فأطرقت برأسى ، وصعدت الدرج متمهلا ، وقد انتابتنى انفعالات جمة . .

ورأيت المصباح يهتز فى يدها وقد توقفت عن السير وقالت وهى تنظر إلى عينى فى خبث وإغراء :

إتفضل . . إطلع قدامى . .

وشربت هذه الإهانة . . وتقدمت وصارت ورائى . . وعند الباب رفعت المصباح ، واهتز اللهب الأحمر وأراق الضوء على وجهها ، فرأيته يشتعل ويتوهج . ولم أنم هذه الليلة .

وذات ليلة سمعت طرقا على بابى . . وفتحت الباب فوجدتها واقفة على العتبة فنظرت إليها فى استغراب . فقالت بهدوء وبصوت كالهمس :

عبد الكريم عاوزك . . لأنه تعبان خالص .

ونزلت مسرعا . . وكان الرجل يرتعش ، وقد انتابته حمى شديدة وظللت بجانبه إلى الصباح . . وكانت بهية زوجته جالسة معنا على كنبة فى الغرفة وكانت تنظر إلى من حين إلى حين نظرات صامتة ملتهبة . . وقامت تصنع الشاى فى غرفة مجاورة ، ورأيت اللهب الأحمر يتوهج هناك ويريق الضوء على وجهها وكانت تنظر إلى النار . . ثم تستدير وتستقبلنى بوجهها المتقد وخيل لى أن هناك جذوة تشتعل فى قلبها . وأنها لن تخمد أبداً .

وفى الصباح الباكر ذهبت إلى التفتيش ، وسألت الناظر عن طبيب ووصفت له حالة المعاون . فقال لى إنه سيرسل الدكتور مدحت فى صباح اليوم التالى . . وجاء الطبيب وفحص المريض . . وانتحى بى جانبا وقال لى :

لا فائدة ترجى . . ودعه يأكل ويشرب كما يحب . .

ونزل على الخبر كالصاعقة ، ولكننى مع هذا لم أيأس من رحمة الله وأخذت ألازم الرجل ليلا ونهاراً . . وأجىء له بكل دواء ينفعه .

وذات مساء سألتنى بهية :

ما الذى قاله الدكتور ؟

ـ حمى خفيفة وسيشفى . .

ألم يقل لك شيئا آخر . . ؟

ـ أبداً . .

ولا حظت أن وجهها امتقع . . ودخلت على المريض وجلست بجواره أحادثه وجاءت بهية وجلست على كنبة قرب النافذة تنظر إلى الحقول والظلام المخيم على القرية . وتستمع إلى خوار الثيران وحفيف الأشجار المحيطة بالمزرعة . . وكانت تنظر إلى بين لحظة وأخرى وتنكس رأسها . . ولم أكن أعرف فى أى شىء تفكر ، وكانت إلى هذه اللحظة من

حياتها محتفظة بكل رونقها وكامل فتنتها . . وقد لا حظت من الأيام التى قضيتها معها فى هذا البيت أنها مرحة طروب لا تحزن لأمر ، ولا تشغل نفسها بالتفكير فيـما سيكون . . وحسبها الساعة التى هى فيها.

وكانت تقرأ قراءة خفيفة . . وتسر عندما ترى فى يدى بعض المجلات المصورة ، وكانت تفتح المجلة وتقلبها بين يديها ، فإذا وقعت على صورة امرأة سألتنى :

حلوة . . دى . . ؟

فأهز رأسى بالنفى . .

فتقول وهى تنظر إلى بجانب عينها :

أمال إيه الى عاجبك بس ؟

وكنت أنسحب بسلام . . ولا شك أن طول عشرتى لها قد جعلتنى أفكر فيها وقتا ما . . ولكننى لم أنزل بهذا التفكير إلى مرتبة الدنس قط . .

واستيقظ عبد الكريم أفندى ذات يوم وهو شاعر بالتحسن ، وطلب فى ساعة الغذاء دجاجة كاملة . . وسألتنى بهية :

هل سمح له الدكتور بأكل الدجاج ؟

ـ وكل شىء . .

وأكل الدجاجة . . وفى الليـل ارتفعت حرارتـه إلى حد الخـطر . فبقيت ساهـرا بجانبه . . وبعد نصف الليل بقليل نام . . فانسحبت من الغرفة حابسا صوت أقدامى خشية أن يتنبه المريض . .

وعند الباب الخارجى رأيت بهية تمشى من خلفى وبيدها المصباح .

فقلت لها هامسا :

بلاش تعب . . خليكى معاه . .

ـ لازم أنور لك . . الدينا كحل . .

وصعدت أمامى . . وعند بسطة السلم وقفت ، وأخذت ذبالة المصباح تتمايل مع الريح ، وأخرجت المفتاح بيد ترتعش ودفعته فى الباب . . وانفتح . . وقالت وأنا داخل :

مش عاوز حاجة . . ؟

وهززت رأسي بالنفي . . فقد جف حلقي وأصبح لساني لا يقوى على الكلام ورأيتها ترفع المصباح مرة أخرى وتنظر إلى عيني . . ثم تقدمت واقتربت مني وما زالت تقترب حتى التصقت بي . .

وأدارت ذراعها اليمنى حولي وكانت يدها اليسرى لا تزال ممسكة بالمصباح

ـ حاسبي النار . .

ـ خلينا نحترق . .

وتحرك الهواء فأطفأ المصباح .

وفي صباح ذات يوم انتهى عبد الكريم . . ودفناه في مقبرة العزبة وسار وراءه أربعة أو خمسة من الفلاحين . . ومع هذا فلم أشهد جنازة حزينة صامتة مثلها في حياتي ، وعندما رجعت من المقبرة وسرت وحدي مطرق الرأس واجما وسط الحقول . . شاهدت في الطريق وعلى جوانب الترع والقنوات حميرا . وأبقارا وكلابا ميتة . . ومتروكة في العراء . . ولقد انتهت هذه المخلوقات كلها فلم يحس بها إنسان . . كما انتهى المخلوق البشري الذي واريته التراب اليوم .

وعندما تهطل الأمطار في الشتاء وتغمر المياه والسيول المقبرة . . سيذوب الطين والتراب وتنكشف الجثث . . وستحوم العقبان والنسور والصقور الجارحة ، وتأكل من هذه المخلوقات الآدمية كما تأكل الآفات من هذه الحيوانات . فما أحقر الإنسان !! . .

وانتظرت على جسر الترعة سيارة ذاهبة إلى الإسكندرية أو دمنهور لأمضي الليل هناك . . فما عدت أطيق البيت الرهيب .

وزحف الليل ، ولم تمر سيارة واحدة فأخذت أجر رجلي إلى البيت جرا وكان الظلام مخيما . . فصعدت في السلم متثاقلا ، ودخلت الشقة وجلست قرب النافذة دون أن أخلع ملابسي . . ولا أدري كم مضى علي من الزمان وأنا على هذه الحال . . فقد كنت شارد اللب مضيعا حزينا على الرجل المسكين . . وتنبهت على نقر خفيف على الباب . . وقمت وفتحته دون أن أشعل المصباح ورأيتها واقفة على العتبة في الظلام . . وعيناها تبرقان ذلك البريق الذي أشعل النار . .

وقلت لها في جفاء :

- ما الذي جاء بك في هذه الساعة . . ؟
- خايفة وحدي . .
- ولماذا بقيت في البيت . . لقد مات الرجل . . ولم يعد لك مكان هنا . .

- سأعيش معك . .
- أنا . . لقد مت هذا الصباح مع الرجل . فأرجوك أن تتركينى . .

وبقيت واقفة . . ثم اقتربت منى وقالت بصوت ناعم . .

- زعلان على المرحوم . .
- طبعا لقد كان صديقى . .
- وأنا زوجة صديقك ويجب عليك أن تحمينى . . ولا أعرف إنسانا فى هذا المكان سواك . .

ووضعت يدها على كتفى مرة أخرى . . ونظرت إلى . . ونفذت نظراتها إلى أعماق قلبى . . وأعماق نفسى . . ولا أدرى ما الذى حل بى عندما لامس جسمها جسمى مرة أخرى . . فقد نسيت الموت والمقبرة وكل مادار بخلدى فى هذا الصباح .

ولم أعد أفكر إلا فيها وفى الظلام الذى يحتوينا معا . . وهكـذا جرفنـا مد الحيـاة الأكبر . . فطوقتها بذراعى . . وكانت تبكى .

ورأيتها ذات يوم تتحدث مع رجـل عجوز فى ردهـة البيت . . ولمحتنى وأنا أرقى السلم ، ولاحظت أن صوتها ارتفع لتسمعنى الحديثُ . . وبعد قليل صعدت إلى وكانت تمسح دموعها . . وقالت :

خالى . . وكان عاوز يخدنى النهارده .

- ومشى . . ؟
- أيوه . .
- وليه مارحتيش معاه . . ؟
- لازم استنى أربعين المرحوم .

ورفعت أهدابها . . وأضافت وهى تقترب منى .

ولازم أستقر أنا وأنت على حال . .

- إزاى . . ؟
- نتجوز . .

وكأنما لـدغتنى عقرب . . فـانتفضت . . ورأيت أن العاصفـة تقترب . فقـابلتها بالصمت . . فقالت :

- يعنى سكت . . ؟

- أنت عارفة يابهية أن هذا محال . . وكيف يمكن أن أواجه هؤلاء الفلاحين . وأعيش معهم ، إننا نصبح مضغة فى الأفواه . . ونفضح أنفسنا . . حرام أن نلوث سمعة الرجل المسكين . .

ورأيت سحنتها تنقلب فجأة ، وضحكت ضحكة مدوية . .

وقالت فى سخرية وعلى وجهها آيات الغضب :

وهل أبقيت للرجل سمعة . . وهل تتصور أن الناس لا يعرفون شيئا مما بيننا . . أنت جبان . . وأجبن من كلب . . عندما كنت زوجة رجل آخر كنت تحوم حولى وتلهبنى بنظراتك . . هل تتصور أننى كنت لا أعرف معنى هذه النظرات . . والآن بعد أن مات الرجل ، وأصبحت حرة . . ماتت الرغبة فى نفسك . . لأنك كالكلب تحب فقط أن تلغ فى الأناء الذى يشرب منه غيرك ، أسامع . . أنت جبان وقذر . .

ولم أدعها تتم كلامها . . وتحت تأثير الغضب صفعتها . . فصرخت وأطبقت أسنانها فى لحمى . . وانهلت عليها ضربا فى عنف . . ثم تراجعت وتركتها . . وارتمت على الكرسى .

وتحركت فى هدوء ونزلت إلى شقتها .

وبقيت ساهرا لا أبرح مكانى وقد دارت فى رأسى دوامة من الخواطر المروعة . . وتنبهت على صوت حاد مزق سكون الليل . . فهرولت نحو النافذة المطلة على الفناء . . فرأيت اللهب الأحمر يشتعل هناك . . ولم أرها هى فجن جنونى وهبطت الدرج مسرعا . . ودفعت الباب ، وأبصرت بها فى المطبخ وقد علقت بثوبها النار .

ومزقت الثوب وألقيت عليها بطانية وحملتها بين ذراعى إلى الفراش ولم أسألها عما حدث . . وأحسست بيدها وهى تمسك بيدى وتضغط عليها .

لقد شوهت النار جسمها . . ولكنها طهرته من الدنس . .

بنســـيون منيرفا

اشتغلت فى أول عهدى بالحياة فى شركة الحاج عبد الصمد للتجارة والملاحة الدولية بالسويس . وكان الحاج عبد الصمد هذا أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولكنه يحمل فى رأسه عقلا كبيرا . وكان متعهدا لجميع البواخر التى تمر بمدينة السويس يفرغ منها البضائع ويمونها بالأغذية والأطعمة المجففة . . وكنا نعمل فى الميناء من الصباح ، إلى المساء ، ونظل نتعهد الباخرة ، حتى ترفع السلم وتدور محركاتها وتنطلق فى عرض البحر . .

وكنت شغوفا بهذا العمل مرتاحا إليه . . لأننى اختبرت خلاله الحياة والناس عن قرب ، فقد كنت أصعد على ظهر المركب وأختلط بالركاب وأشاهد ألوانا مختلفة من الناس من كل جنس ولون . ولقد أصبحت لطول اختبارى أستطيع أن أميز الإنجليزى من الأمريكى من الفرنسى من الهولاندى من الصينى . . دون أن ينطق بحرف . . فلكل من هؤلاء خصائصه التى تتميز بها الشعوب .

وكنت أفرغ من العمل فى الساعة التاسعة مساء . . وأجلس فى مشرب من مشارب الجعة لأتعشى . . ثم أذهب إلى البنسيون الذى أقيم فيه وكان يسمى «بنسيون منيرفا» وهو بنسيون صغير فى قلب المدينة . وكنت أسكن مع أسرة أجنبية واخترت غرفة منعزلة لها باب داخل البنسيون وآخر مستقل . . وكانت الأسرة تؤجر ثلاث غرف أخرى لبعض النزلاء . كانت مؤجرة غرفة لشخص يدعى محروس أفندى وكان قصير القامة ، ناحل الجسم لا يزن أكثر من ثمانين رطلا ، ولكنه استعاض عن هذا النقص بما يكمله فقد كانت له زوجة فى حجم الفيل . . وقد جاءت هذه الزوجة من بور سعيد لتزوره فقط لأن إقامة زوجها فى السويس كانت مؤقتة . . ولكنها استطابت الحياة فى البنسيون فبقيت شهرا وشهرين وثلاثة . . وقد أخذت هذه الزوجة منذ الأسبوع الأول من سكناى تغازلنى بشكل مفضوح ! ولم يكن وقتى وعملى يتسعان للحياة العابثة إطلاقا فكنت أقابل مغازلاتها بإعراض

وصدود ، ولكنها مع هذا لم تيأس واستمرت فى هجومها . وكانت صاحبة البنسيون أرملة فى الخمسين من عمرها . . ولها بنتان واحدة متزوجة وتقيم فى بور توفيق . . وأخرى دون العشرين بقليل وتقيم معها . . واسمها لندا . . وكانت لندا جميلة تجيد العزف على البيانو .

وكان هناك عجوز لا عمل له يشغل غرفة من الغرف . وكان يتكلم كل لغات الأرض ، فقد كان قبطانا فى الميناء . وكان دائم القعود فى البيت يدخن ويسكر ، وينطلق لسانه بكلام لا معنى له عن حرية الشعوب ، وحرية الملاحة فى البحار . وعن الرجال الأفذاذ الذين نسيهم التاريخ . وكانت هناك سيدة إنجليزية تشغل غرفة صغيرة فى الطرقة . وكانت تعمل فى شركة من شركات البترول . ولم تكن جميلة ولا قبيحة ، وكانت مغرمة بالشراب تشرب الويسكى على الريق !.

وكنا نجتمع فى يوم الأحد وهو يوم الراحة لنا جميعا على المائدة ونتغذى ونشرب ونتحدث . ونستمع بعد الغداء إلى لندا وهى تعزف على البيانو ، وإلى غناء القبطان وإلى حديث السيدة الإنجليزية عن الحياة فيما وراء البحار ، وكان القبطان يغنى أغنية واحدة بالإيطالية ويكررها ، وكان صوته قبيحا وكانت معانى الأغنية السامية تبتذل من طريقته فى الإلقاء ، ومن صوته الكريه . . وكان يخيل إلينا أنه يخص لندا وحدها بالغزل والغناء . وكان إذا فرغ من الغناء ابتعد عن المجلس وجلس فى ركن مظلم من الردهة يدخن ويحدق فى الفتاة ويضع رأسه على راحته ويفكر .

وكانت لندا تحادث الجالسين جميعا فى مرح وغبطة إلا هو . فإذا وجه إليها كلاما امتقع وجهها وردت عليه فى جفاء ظاهر . وكانت زوجة محروس افندى أكثر نزلاء البنسيون مرحا وسرورا بهذا اليوم ، وكانت تطبخ لنا الأرز بالسمك . وتضع أمامى الطبق وتسألنى رأيى . . وكنت أتعمد إغاظتها وأقول لها إنه ردىء . . وأننى أكلت أحسن منه فى الكازنيو فكانت تزم شفتيها وتصمت حتى نفرغ من الطعام . . وكان زوجها يشتغل فى الجمرك ، ويعمل أسبوعا فى الليل وأسبوعا فى النهار . وكانت حجرتها ملاصقة لحجرتى ، وبيننا باب مغلق ، ووراءه دولاب صغير للملابس من السهل أن تحركه من مكانه . فكنت خلال الأسبوع الذى يتغيب فيه زوجها أخشى أن تدفعها الرغبة إلى فتح الباب ، والتسلل إلى غرفتى فى ظلام الليل . . ولم أكن أشعر نحوها بأية عاطفة مما يحسه الرجل نحو المرأة . كنت صغيرا لم أتجاوز الثامنة عشرة من عمرى ، وكان العمل المرهق يستغرق كل وقتى وكل طاقتى . . وكنت أعود إلى البيت تعبا وأستغرق فى نوم عميق ولا أحس بشىء مما حولى إلى الصباح .

وكانت هذه المرأة تلاحقنى وتتقصى أخبارى . وعجبت إذ رأيتها بعد أسبوع واحد من نزولى فى البنسيون قد عرفت كل شىء عنى . عرفت من أين جئت وأين أشتغل وما

أجرى . والمطعم الذى أتغذى فيه . والمشرب الذى أشرب فيه الجعة . والحلاق الذى يقص لى شعرى . وقد أبغضتها لهذا الفضول . وكانت الانجليزية تعود إلى البنسيون متأخرة فى الليل مثلى . كانت تسهر فى نادى الشركة وكانت غرفتى كما وصفت مستقلة ولها باب على السلم ، وكنت أدخل البنسيون بمفتاح معى من الباب الكبير لأننى لا أستطيع أن أمر على غرفة محروس أفندى وزوجته .

واستيقظت ذات ليلة على نقر خفيف على الباب . فتصورت أن زوجة محروس أفندى تنقر على الباب الذى بينى وبينها . فتناومت وعاد النقر من جديد . وتسمعت وتبينت أنه على باب الغرفة الخارجى . فنهضت وفتحت . فألفيت السيدة الإنجليزية على العتبة وقالت :

- أرجو المعذرة لإزعاجك . فقد طرقت باب البنسيون فلم يرد على أحد ولا أحب أن أزعجهم أكثر من ذلك . فتكرم على بالمفتاح الذى معك .

فتركتها واقفة فى مدخل الباب وأخذت أبحث عن المفتاح فى المكان الذى اعتدت أن أضعه فيه . وطال بحثى .

فقالت لى بصوت رقيق :

- ألا تجده ؟

- آسف ياسيدتى . تفضلى قليلا بالجلوس إلى أن أعثر عليه .

ودخلت وجلست على كرسى قريب من الباب . وبحثت فى كل جيوبى وفى الأدراج فلم أعثر على المفتاح .

وقلت لها بعد اليأس :

- سأقرع أنا الباب .

فقالت بلهجة مؤكدة :

- لا داعى لذلك يا إسماعيل أفندى . وإن فعلت هذا سأذهب إلى أى أفندى .

ووقفت حائرا . وسمعتها تقول :

- سأنام على هذا الكرسى . . إلى الصباح .

فقلت لها :

- بل أنا الذى سينام عليه .

وطال حوارنا . . وأخيرا رضيت بأن تحتل مكانى وأطفأت النور . . وأغلقت عينى . . وأحسست بها وهى تخلع ملابسها فى الظلام . ثم ذهبت إلى السرير ثم شعرت بها تتقلب على السرير ونزلت من فوقه فى هدوء واقتربت منى . . وشممت من فمها رائحة الخمر .

وفى يوم الأحد جلسنا جميعا حول مائدة الغذاء . . فنظرت إلى زوجة محروس أفندى وقالت :

- كان فيه حرامى بيخبط عليك أول امبارح بالليل يا اسماعيل أفندى .

- حرامى . . ؟

- أيوه . . حرامى . .

محستش بحاجة .

- لازم أنا كنت بحلم . . .

ونظرت إلى وإلى الانجليزية فى خبث . واتجهت إلينا جميع الأنظار . .

وكان القبطان لا يزال متيما بابنة صاحبة البنسيون ويكاد يجن بها . وفى غروب يوم من أيام الصيف دخلت الحمام لتستحم . . وكانت تتصور أن الجميع فى الخارج . . فتركت باب الحمام مفتوحا ، ووقفت تحت الدش وأخذت تغنى . .

وسمعها القبطان وكان فى غرفته وقد أغلق عليه بابه . . وخرج إليها فى هدوء يتلصص حتى دخل عليها الحمام وهى عارية . . وصرخت الفتاة . . وجاء على صوتها جميع سكان العمارة وأخذوا يضربون الرجل . وكان أكثرهم ضربا له زوجة محروس أفندى . !

المعجـــزة

كانت «هند» طريحة الفراش منذ تسعة شهور ، استيقـظت ذات صباح فـوجدت نفسها لاتستطيع أن تنهض من سريرها ، لقد أصيبت بالشلل النصفى على إثر صراع نفسى جبار استمر سنوات ، وأحزان قاتلة هدت كيانها . . كانت تعتقد أنها دميمة قبيحة الصورة لاتصلح للرجال ولا يحبها إنسان . . وقد رسخ هذا الاعتقاد فى نفسها منذ الطفولة وكبر مع الأيام . . كانت أمها تقول لها وهى صغيرة تلك الكلمة القاتلة «ياوحشة» كانت تسمع منها هذه الكلمة فى اليوم عشرين مرة . فرسخت الكلمة فى أعماقها واستقرت فى طوايا نفسها ، فنشأت مريضة حزينة منطوية . ولما كبرت رأت أختيها الصغيرتين تتزوجان قبلها وبقيت هى فى المنزل لا يتقدم لها أحد حتى تعدت سن الزواج . وكانت تتصور أن جميع من فى البيت يكرهونها لهذا السبب ، وزادت أحزانها وآلامها . . وانفجر شريان غضبهـا أخيرا فأصيبت بالشلل .

وأحضـر لها أبـوها أبـرع الأطباء فى المـدينـة ، ودخلت كـل المصحـات وطـافت بالأضرحة ، ونذرت لها النذور ، ولكن دون جدوى .

ولجأت أمها – بعد أن تطرق إلى قلبها اليأس – إلى الدجالين ، فكانوا يكتبون لها الأحجبة والطلاسم والألغاز . . وأخذت تطلق البخور فى حجرة ابنتها لتطرد الشياطين . وتنتظر الفرج من ملائكة الرحمة .

وكانت الفتاة ، بعد الحادث الذى نزل ، قد زهدت فى كل شىء . . فى الحياة . . وقد علمتها الشهور الطويلة التى قضتها فى الفراش التأمل . . والقراءة . فكانت تطلب الكتب وتقرأ ، وتقرأ . . وتفكر . . وقد خرج بها الألم عن الدائرة الضيقة التى كانت تعيش فيها من قبل ، فأصبحت إنسانية النزعة تتألم لآلام الناس وتشاركهم عواطفهم .

وكان أبوها يسير أصيل يوم فى أحد شوارع القاهرة ، فلمح لافتة صغيرة تشير إلى طبيب نفسانى . . ومع أنه لم يسمع به من قبل ولم يحدثه أحد عنه ولكنه صعد إليـه . .

واستقبله الطبيب مرحبا . . فقد كانت العيادة خالية تقريبا من المرضى ، وتحدث الأب عن فتاته المريضة .

فقال الدكتور وهو يبتسم :

– قبل كل شيء سنشرب القهوة لأن جلستنا ستطول .

وشرب القهوة . . وقال الدكتور وهو يفتح دفتر مذكراته :

– أنا على استعداد لأن أذهب معك إلى البيت الآن وأرى المريضة ، ولكنى أود قبل هذا أن أعرف كل شيء عنها . . فاسرد على سيرتها من الطفولة إلى الآن ، وحاول أن تتذكر كل شيء فان ذلك من الأهمية بمكان .

وتحدث الأب واستمع إليه الطبيب ساعة كاملة ، ثم ركب عربة إلى البيت ، ودخل الطبيب على المريضة واستقبلها بوجهه الضاحك ، وأخذ يوجه إليها بعض الأسئلة ويشيع الطمأنينة فى نفسها .

واستراحت إليه الفتاة كثيرا على خلاف من سبقه من الأطباء .

ثم استأذن وأخذ طريقه إلى الخارج . وسأله الأب فى لهفة :

– أين الروشتة يادكتور ؟

– ليس بابنتك أى شيء .

– ألا تصف لها دواء ؟

– أنا لا أعالج بالسموم . . وسأعالجها على طريقتى . . وسترى نتيجة ذلك قريبا .

– وستشفى ؟ .

– بإذن الله . . ما فى شك .

ونظر إليه الرجل بين مصدق ومكذب . . ودفع يده فى جيبه ليخرج المحفظة ويدفع الأتعاب . . فقال له الطبيب وهو يربت على كتفه :

– دع هذا الآن . . وسأحضر غدا فى مثل هذه الساعة .

وفى اليوم التالى جاء الطبيب ، ومكث مع الفتاة أكثر من ساعة يحادثها فى مختلف الشئون ، ولم يجر ذكر المرض على لسانه قط ، فعجب الأب لهذا الطبيب المعتوه .

وفى صباح يوم جميل حمل البريد إلى الفتاة رسالة ففضتها وهى تعتقد أنها من احدى صاحباتها ، ولكنها عجبت بعد قراءة سطرين منها إذ وجدتها بخط رجل يبثهاغرامه . . ويقول إنه جارها ، ويسكن فى الشارع الذى تقيم فيه . . وإنه راها أكثر من مرة فى شرفتها ولكنها كانت فى شغل عنه فلم تلتفت إليه مرة واحدة . . وأنه لم يرها منذ شهور فى الشرفة أو فى النافذة فهل هى مسافرة أو مريضة ؟ إنه يود أن يعرف لأنه قلق . . ولأنه معذب ولأنه متيم بها .

وقرأت الرسالة مرة ومرات وتورد وجهها . . وكانت عندها خادمة تحبها وتثق فيها فطلبت منها أن تضع الرسالة فى خزانة ملابسها ففعلت .

وبعد يومين جاءتها رسالة ثانية . . فقرأتها فى لهفة . . وكانت أشد عنفا إذ كتبها بدم قلبه . . ثم تدفقت عليها الرسائل بعد ذلك . . وكان الطبيب فى خلال تلك المدة يزورها ، ويلاحظ التغير الذى طرأ على نفسها وجسمها . . فيسر لذلك .

وحملت إليها الخادمة رسالة معطرة من حبيبها المجهول .

وقال لها فيها إنه عرف رقم تليفون منزلها بعد أن عرف اسم والدها من البواب . . وإنه سيطلبها الليلة فى التليفون الساعة العاشرة مساء ويرجو أن تكون وحدها .

ومن غروب الشمس كانت آلة التليفون بجوار سريرها ، وفى الساعة العاشرة دق الجرس . . فرفعت السماعة وظلت ممسكة بها برهة وقلبها يخفق خفقان الطائر المذبوح . . ثم قربت السماعة من أذنها وجاءها صوته من وراء الأبعاد . وأخذ يتحدث . . وكانت هى تستمع فى نشوة وقد عقد الخجل لسانها . . ثم تشجعت وأسمعته صوتها . . ورأته يسر لذلك ، ويتدفق فى الحديث كالسيل .

ووضعت السماعة وأحست بشىء جديد يسرى فى كيانها ، وبالدم يتدفق فى عروقها . . ويسرى فى جسمها كله حتى فى نصفها المشلول ، وكان خداها فى حمرة الورد . . وكانت عيناها تلمعان ببريق غريب . . بريق الحياة التى أخذت تدب فى جسمها .

وظلت تحلم أحلام اليقظة إلى ساعة متأخرة من الليل .

وأخذ بعد ذلك يحادثها فى التليفون كل يوم . . وكانت تطلب من خادمتها أن تغلق عليها الباب وتظل تتحدث معه ساعة وأكثر . . وكان إذا تصادف وخرج أهلها للتنزه ، وبقيت وحدها مع خادمتها ودق جرس التليفون كانت تشعر بسعادة غامرة لأنها تستطيع أن تحادثه بحرية ولمدة أطول وأطول . وكانت قد ألفت صوته واستراحت إليه وازداد تعلقها به وذات مرة قال لها :

- عاوز أشوفك . .
- صحيح ؟.
- والنبى . .
- فين ؟.
- فى أى مكان تحبينه .
- لكن أنا مبخرجش .
- أبدا ؟.

- طيب .
ووضعت السماعة وبكت .
وفى اليوم التالى حادثها وقال لها :
- أنا زعلان منك .
- ليه ؟ . .
- مررت تحت البيت فلم أرك .
- والله فيه عذر قوى . . وأنا معذورة .
- بكره سأمر . . ولازم أشوفك .
- سأحاول . .

ووضعت السماعة . . ولكنها لم تبك بل أحست بشىء يعمل فى داخل نفسها . . وبقوة دافقة تسرى فى كيانها .

وقبل الموعد بساعات طلبت خادمتها وأخذت تتزين ، وألبستها الخادمة أحسن أثوابها . . وقربت منها المرآة . . فأخذت تنظر فى وجهها طويلا . . وتصفف شعرها ، ولاحظت التغيير الذى طرأ عليها ، ورضيت وابتسمت . . وصرفت الخادمة ولما اقترب الموعد خيل إليها أنها تسمع صوته يناديها فتحركت من فوق السرير ووجدت نفسها لأول مرة فى حياتها تحرك رجليها . . وأنزلتهما برفق وقد غمرتها فرحة عارمة ونزلت على الأرض وتماسكت واستمرت واقفة وحلت المعجزة ومشت فى أرض الغرفة نحو الشرفة .

واستندت على الحاجز ، ورأته هناك فى الجهة المقابلة من الشارع ولوح لها بمنديله الأبيض كاشارة للتعارف كما اتفقا . . وظلت متماسكة تنظر إليه فى سرور .

ورأت الخادمة سيدتها واقفة فصاحت :

- شوفو ستى . . شوفو . . ستى . . .

ورأت الأم ابنتها واقفة فى الشرفة . . فجرت نحوها ، وارتمت هند على صدرها وأخذت تبكى . . بكاء الفرح .

وبعد ذلك بساعة كان الطبيب جالسا فى مكتبه يسجل فى دفتر مذكراته .

انتهى العلاج وحدثت المعجزة .

ليلة رهيبة

حدث هذامنذ سنوات وكنت قد سافرت فى مهمة إلى قرية من قرى مركز أسيوط وعدت من القرية متأخرا فى الليل إلى المدينة ، وبحثت فى الفنادق المحيطة بالمحطة عن غرفة فلم أجد . فاضطررت إلى أن أسير على قدمى إلى قلب المدينة عسى أن أعثر على غرفة فى أى فندق هناك .

وكنت تعبا منهوك القوى . . وقد أمضيت النهار كله فى منازعات مع الفلاحين ، وكل واحد يريد أن أترك له ربع الإيجار لأن زراعته أكلها الدود . ومع أن العزبة كانت ملك أخى والأمر كله ليس بيدى فقد كنت أشفق على هؤلاء المساكين ، وأتنازل لهم عن جزء كبير من الإيجار فعلا .

ومع أنهم احتفوا بى وأجلسونى فى ظل عريشة ، وفرشوا لى «حراما» ووضعوا وراء ظهرى وسادة من القطن . . ولكن الشمس الحامية أفسدت كل شىء . . فقد كان البخار الملتهب يتصاعد من شقوق الأرض والغبار المتطاير من أرجل الدواب فى الطريق يسد الأنوف ، وعندما ودعتهم وركبت السيارة العامة التى أخذت ترج جسمى وتحطم أعصابى ساعة كاملة من الزمان كنت فى حالة يرثى لها ، وبلغت المدينة وانا فى أشد حالات التعب .

ولهذا أخذت أبحث عن أية غرفة لأريح جسمى بعد هذه المشقة . . وقد وجدت غرفة فى فندق حقير قذر فى شارع «القيسارية» ولكنها كانت غرفة «مشتركة» . . غرفة بسريرين وشغل أحد النزلاء الغرفة قبلى ، ونام على سرير فيها ، فكيف أنام مع شخص غريب وفى جيبى مبلغ كبير من المال وقفت فى مدخل الفندق مترددا .

وقال لى الخادم وهو يفرك عينيه :

- لن تجد غير هذا السرير فى المدينة كلها . . فنحن فى موسم القطن والفنادق مزدحمة بالفلاحين .

وكان الفندق رهيبا .

ومنظر الخادم لايبعث على الاطمئنان . . ومع أن الساعة لم تتجاوز العاشرة مساء ، والوقت صيف فقد كان السكون الموحش يخيم على المكان . وكانت ممرات الفندق قذرة وآثار أقدام النزلاء بادية على البلاط . . وكانت الإضاءة ضعيفة للغاية . . كان هناك مصباح كهربى صغير يلقى ضوءا خافتا على الطرقة الطويلة وقد تركت الممرات الجانبية من غير اضاءة إطلاقا .

وكانت الطرقة ملتوية مقبضة والسائر فيها يتملكه الخوف من شىء مجهول وكان منظر الخادم نفسه يبعث على الرهبة فقد كان مجدور الوجه مفرطح الجبهة ضيق العينين منقلب السحنة .

وقلت لنفسى لابد مما ليس منه بد ، وسأقضى الليل ساهرا ، ومشيت وراء الخادم إلى الغرفة وفتح الباب وأضاء المصباح . . ودخلت وراءه ، وكان أول شىء وجهت إليه اهتمامى هو الرجل الآخر الذى شغل الغرفة قبلى وكان نائما على السرير ووجهه إلى الحائط فلم أتبين ملامحه ، وتركنى الخادم وأخذت أخلع ملابسى فى حذر شديد مخافة أن يستيقظ الرجل النائم ، وخلعت بذلتى ولبست جلبابى ونظرى لايتحول عن الرجل . . وكان ضخم الجسم عريض المنكبين وقد شغل جسمه السرير كله . . وبينما كنت أخرج محفظتى الجلدية من جيب سترتى وأضعها تحت «المخدة» رأيت الرجل يتحرك ثم استدار واستقبلنى بوجهه . . وأخذ ينظر إلى أكثر من عشرين ثانية نظرات ينخلع لها قلب الشجاع ورأيت سحنة وجل رهيب يطل الشر من عينيه ومن كل جارحة فى وجهه الأغبر فوقفت فى مكانى جامدا كالمشلول . . ثم تحركت دون وعى نحو سريرى وتمددت عليه ، وضغطت برأسى على المخدة . ورأيت أن أترك النور بعض الوقت لتعود أوصالى المرتعدة إلى سكينتها .

ثم لمحت وأنا ممدود على السرير «صرة» كنت قد وضعتها على الطاولة وأنا داخل . . وأنسانى الخوف والتعب ما بها . . وكان بها طعام قدمه لى بعض الفلاحين وأنا راكب السيارة لأتعشى فى الطريق . . ولكننى لم أذقه وحملته معى إلى الفندق .

ونهضت وفتحت «الصرة» ووضعت الطعام على الطاولة .

وجلست لآكل ورأيت الرجل ينظر إلى الطعام . . فدعوته . فرفض أولا وقال انه تعشى . . ولكنى لما ألححت بشدة نهض وشاركنى طعامى وسألنى وهو يأكل :

- اسم الكريم ؟ .
- مصطفى . .
- منين . . ؟

- من مصر .
- بالجودة .

ثم سأل وهو يحدق فى وجهى :

- جاى للمأمورية ؟ .

كنت بازور نسايبى فى العوامر .

وذكرت له اسم أسرة أعرفها بقوة جبروتها ورجالها الأشداء .

فنظر إلى طويلا ولم ينبس . . ثم لما أخذ كفايته من الطعام مشى إلى قلة موضوعة على نضد من الرخام فى الغرفة . . ورفعها إلى فمه ورجع إلى سريره لينام .

وأطفأت المصباح . . وتمددت على سريرى . . وضرب الظلام برواقه ولم تعد عيناى تبصران شيئا فى داخل الغرفة .

ثم بدت خيوط ضئيلة من النور تدخل من النافذة المفتوحة على المنور ، ومن شراعة الباب العليا التى تطل على الطرقة وظللت ساهراً وعيناى على سقف الحجرة . وسمعت سرير الرجل يطقطق ، فاشتدت ضربات قلبى وتوجست الشر . . ورأيت ذراعه ترتفع فى الظلام وتضرب شيئاً . . ثم تبينت أنه يذب البعوض عن وجهه . . فتظاهرت بالنوم وكتمت أنفاسى ، وتحرك مرة أخرى وطقطق السرير . . ثم رأيته يستوى جالساً . . ونزل من فوق السرير ومشى فى أرض الغرفة قليلاً كأنه يبحث عن شىء .

ثم اقترب من سريرى . . وفى هذه اللحظة . . شعرت بأنفاسى تقف فى حلقى ، وبقلبى يكف عن الخفق . وبالعرق يتفصد على جبينى . . وأغمضت عينى .

وسمعته يقول :

- معاك كبريت . . ؟

وحاولت أن أتكلم فخاننى صوتى .

وأشرت بذراعى إلى الطاولة ، فاقترب منها وأشعل سيجارة وعاد إلى سريره واضطجع . . وأخذ يدخن ، وهو صامت . . ولما فرغ من التدخين وضع رأسه على المخدة .

وقضيت ليلة رهيبة . . ولم يغمض لى فيها جفن . . ولم يستقر لى مضجع وكان النوم يأخذنى أحياناً بضع ثوان ثم أهب مذعوراً وأنظر إلى الرجل فإذا وجدته مكانه على السرير . . أضع رأسى على الوسادة . . وأحاول أن أغفو لحظات ولكن هيهات . . وكنت

المحسس المحفظة من وقت لآخر . . وأقرأ القرآن فى سرى وأتشهد ، وأنذر النذور لأولياء الله الصالحين .

وفى الصباح وقبل طلوع الشمس تركت الفندق . . وذهبت إلى سوهاج فى عمل لى ومضيت فيها أسبوعاً . . ثم ركبت منها قطار الصباح السريع عائداً إلى القاهرة .

وعندما وقف القطار على محطة ملوى . . رأيت جمعاً غفيراً فى المحطة وهرجاً وبوليساً مدججا بالسلاح . . ورأيت رجلا يتقدم على الرصيف وحوله كتيبة من الجند وكان مقيداً بالحديد ولكنه كان يمشى منتصب القامة شامخ الأنف . . وعندما اقترب منى نظرت إليه مأخوذاً وصعقت ، لقد كان صاحبى الذى قضيت معه الليلة الرهيبة فى الفندق .

ولما مر بجوار عربتى لمحنى وأنا أطل من النافذة فتوقف لحظة ، ولمعت على فمه ابتسامة خفيفة . . ثم تابع سيره . . وأركبوه القطار .

وسألت أحد الواقفين على الرصيف :

من هذا . . ؟

- انه إسماعيل الأشرم القاتل المشهور .

وغاص قلبى بين ضلوعى . . وأخذت أسأل نفسى . . لماذا لم يقتلنى الرجل وقد قضيت معه ليلة بطولها وحدى ومعى مبلغ كبير من المال . . وأنا أعزل من كل سلاح . لماذا ؟ . . ألأنى أطعمته من طعامى . . «وأكل معى العيش والملح» ؟

ما أعجب خلق هؤلاء الأشرار !! .

حلاق للسيدات

كان ميخاليدس حلاقاً يونانياً مشهوراً فى شارع سليمـان ، وكان حـانوتـه ملتقى السيدات المصريات والأجنبيات الأنيقات فى المجتمع . ومن الساعة السادسة مساء لاتجد فى محله كرسياً خالياً .

وغالباً ما تجد سيدة أو أكثر جالسة فى مدخل الحانوت فى انتظار دورها وتصافح أنفك وأنت مار فى هذا الشارع وعلى بعد ثلاث خطوات من الحانوت رائحة العطور العبقة ، وتسمع حوار السيدات الممتع ، وحركة المراوح الكهربية وصوت آلات التجميل . وهى تصلح ما أفسد الدهر . وترى السيدات يخرجن من «الصالـون» إلى المراقص والملاهى الليلية وهن يبهرن الأبصار .

وكانت زينات هانم من زبائن هذا الحلاق «الدائمات» فقد كانت تأتى إليه مرتين فى الأسبوع على الأقل لتتزين ، وكانت ثرية وزوجها عضو مجلس إدارة فى أكبر بنك فى المدينة ، وفى أربع شركات كبرى ، ومع أنه لايتمتع بذهن اقتصادى ولا بعقل جبار ، ولا بشىء يؤهله لهذه المناصب فقد غدا من كبار رجال الأعمال ، وهكذا تجرى الحظوظ والأقدار .

وكانت زينات هانم تعيش معه فى شبه عزلة ولا تراه إلا قليـلاً ، فقد كـان عمله يستغرق كل وقته وكل جهده . . وكانت قد تجاوزت سن الأربعين بكثير واقتربت من سن اليأس عند المرأة ، وفى هذه السن تبدو المرأة عصبية قلقة مضطربة ، ولهذا كانت تذهب إلى الحلاق وتجلس على الكرسى الضخم ، وهى فى أشد حالات القلق والتوتر العصبى .

وكان صاحب المحل يستقبلها مرحباً محنياً ظهره مقدماً إليها أحسن عماله ، ولكنها كانت تستقبل العامل المسكين بوجه عابس . وإذا فرغ من «التسريحـة» ، ولاحظت أنها لاتوافق مزاجها واستدارة وجهها نظرت إليه شزرا وأخذت تسبه وكان صاحب الحانوت يستقبل ـذا السباب دائماً بابتسامة من فمه وانحناءة من رأسه . ويجلسها على كرسى آخر

ويتولى بنفسه اصلاح الأمور ! فقد كانت زينات هانم من كـرائم السيدات ومن أحسن عميلاته .

وذات يوم جاءت كعادتها وكـان فى المحل عـامل جـديد وهـو شاب فى السـادسة والعشرين من عمره قوى الجسم موفور الصحة ، وجلست على الكرسى ونظرت إليه ، وأزاح شعرها إلى الوراء وابتدأ يعمل .

وكان من عادتها أن تحرك رأسها يميناً وشمالاً فى أثناء الحلاقة ولا يجـرؤ واحد من العمال على أن يسترعى نظرها إلى هذه العادة الذميمة . . ولكن هذا العامل استرعى نظرها بصوت قوى . فأمسكت برأسها كأنها تمثال .

وشعرت بأنامله وهى تمسح على شعرها . ورأت وجهه فى المرآة أمامها فنظرت إليه وصمتت ، وظلت وادعة ساكنة حتى فرغ من الحلاقة فرنت إليه مبتسمة ممتنة .

ولما أخذت طريقها إلى الخارج وضعت فى يده ورقة مالية من ذات عشرة القروش فتناولها شاكراً .

وفى اليوم التالى جاءت على غير عادة . . وكان العامل مشغولاً فانتظرته إلى أن فرغ من عمله ، واستقبلته باسمة .

وكانت أكثر هدوءاً ووداعة .

وأغلقت عينيها وسبحت فى عالم الأحلام أكثر من مرة عندما كانت أنامل حسن تجرى فى شعرها ، ولما أكملت زينتها ناولته ورقة مالية أخرى فانحنى ممتنا .

وذات يوم دق جرس التليفون عند الحلاق . وسمع ميخاليدس صوت زينات هانم وهى تقول بصوت ناعم :

– تسمح تبعث لى حسن بكره ، الساعة خمسة . . فى البيت . . خمسة تمام علشان فيه حفلة خيرية ومش حاقدر أمر عليك .

– حاضر يا هانم .

ووضع ميخاليدس السماعة ، وكتب فى دفتر مذكراته شيئا .

وفى الساعة الخامسة من مساء اليوم التالى . وقف حسن على باب السيدة زينات هانم وقرع الجرس ، وفتحت له خادم أنيقة الباب ، وقادته إلى الداخل وجلس صامتاً مأخوذاً بما حوله من رياش وتحف .

وبعد قليل جاءت السيدة . وأدخلته فى غرفة زينتها .

وحلت شعرها وجلست أمام المرآة الكبيرة ، وأخذ حسن يمشط هذا الشعر فى عناية ودقة ، وأنامله تجرى وراء المشط واستراحت زينات لعمله ، وشعرت بحواسها كلها تتخدر . . ثم أغلقت عينيها وراحت فى حلم ممتع . وبعد فترة طويلة سألته فى رقة :

- مبسوط عند ميخاليدس ؟
- أيوه .
- إن كنت عاوز حاجة قوللى .
- مرسى ياهانم .
- متجوز ؟
- لا . . ياهانم .
- ليه . لأ ؟

. . . . .

- خايف من النسوان ؟

وصمت حسن وانهمك فى عمله فصمتت . . ثم رآها فى المرآة وهى تديم النظر إليه فى سكون فأخذ يرجل شعرها وقد غض من طرفه . . وتركته فى شأنه ، وأغلقت عينيها وسبحت بها الأحلام ، وأقبلت بها المناظر الممتعة وأدبرت ، وتصورته مرة يلثم شعرها . . وأخرى يقبل عنقها من الخلف مرة أخرى ينحنى بكليته عليها فترفع وجهها إليه وتعطيه شفتيها واستفاقت من حلمها على صوته وهو يغلق حقيبته .

فقالت فى أسف :

- خلاص ؟ . .
- خلاص ياهانم .
- مرسى خالص .

ونهضت من كرسيها ومشت معه نحو باب الحجرة . . وعز عليها أن يتركها هكذا سريعاً فتوقفت لحظة عند الباب ومدت إليه يدها فأمسك بها فى راحته وانحنى ليصافحها . . فرفعتها فى حركة سريعة دون وعى منها إلى شفتيه وألصقتها بهما .

ورفع رأسه ونظر إلى عينيها ورآها تبتسم فى إغراء وفتنة فانحنى ليقبل يدها مرة أخرى .

فمالت عليه وأعطته ثغرها .

طبيب المركـــز

ذهبت إلى الريف فى زيارة قصيرة لأسرتى فى ذلك الفصل من فصول السنة الذى يكثر فيه البعوض ، ويتكاثر الذباب فى الريف ولم يكن الخيار لى فقد كان هذا وقت فراغى الوحيد من عملى المتواصل فى القاهرة ومع هذا مكثت هناك أكثر مما كنت أتوقع وأقدر .

ولما أزمعت العودة إلى القاهرة ، حـدث ما لم يكن فى الحسبـان . فقد ظهـر وباء الكوليرا ، وامتد من الوجه البحرى إلى الوجه القبلى بسرعة النار فى الهشيم ، فاضطرت السلطات إلى وقف السفر بالقطارات حتى لا تتسع دائرة الوباء .

ولهذا وجدت نفسى بعد أسبوع من ظهور ذلك الوباء الأصفر فى الصعيد ، محبوسا فى قرية صغيرة نائية بعيدة عن العمران ، وعن العالم المتحضر كله . ووجدت نفسى وسط أناس بسطاء يعيشون على الفطرة ، وفى ظل تقاليد موروثة ، يتقابلون ويتنازعون على شبر من الأرض ، وعلى حزمة من القش وعلى لا شىء ، ويعيشون على السلب والنهب وقطع الطريق على الناس ، إذا ضاقت بهم سبل الحياة وضلوا السبيل .

ولم أكن برغم هذا كله متبرما ولا ضجرا ، لأننى أحب الريف بكل ما فيه من خير وشر . أحب أن أخرج فى الصباح الباكر وأمشى فى وسط الحقول مترقبا طلوع الشمس ، وهى ترسل أشعتها على هذه المروج الخضراء ، فتذيب ما علق بها من ندى الفجر . وأشاهد الفلاحين وهم يفلحون الأرض ، أو يسقون الزرع أو يشقون القنوات . أو يضعون حزم البرسيم للدواب . فإذا غربت الشمس ساقوا ما شيتهم أمامهم ، وساروا فى خط طويل إلى القرية وهم يغنون . وعيونهم تتطلع إلى النيران التى توقد فى الحقول ، وإلى الطلقات التى تدوى فى الجو .

ومضى أسبوع آخر وكنا نسمع أخبار الكوليرا وهى تنتقل من بلد إلى بلد ، وحالات الاشتباه الكثيرة فى القـرى المجاورة . وبـرغم هذا كله فـإننى لم أكن ألاحظ على هؤلاء الفلاحين فزعا أو رعبا . كانوا لا يهابون الموت ، ولا يبالون بكل ماتأتى به الأيام . ولم يكن

ذلك راجعا إلى بلادة فى الحس ، أو غفلة عما يجرى حولهم من أحداث وإنما هو تسليم مطلق لما تأتى به المقادير وخضوع لحكم الله .

وحدث أن مرضت امرأة فى القرية وماتت ، ولم يكن يصرح بالدفن الا بعد أن يكشف عليها الطبيب خشية أن تكون قد أصابها ذلك الوباء .

وأعطيت إشارة تليفونية ، وبعد ساعة جاء طبيب المركز .

وكنت أتنزه ساعة الأصيل فى بستان قريب عندما جاءنى أحد الفلاحين ورجانى أن أذهب لمقابلة الطبيب ، عسى أن يرحمهم ويتقبل وساطتى ، لأننى أفندى مثله .

ولم أفهم شيئا أول الأمر فهو طبيب المركز ويؤدى واجبه ، ولم يكن الأمر يحتاج إلى وساطة أو شفاعة ، ثم علمت وأنا فى الطريق اليه كل شىء عنه ، علمت أنهم جمعوا له جنيها لأن المرأة فقيرة ولا عائل لها فرماه فى وجوههم . وأخذوا يقصون على كثيرا من أحواله ، وهو أنه يحقن الفقراء بحقن الماء ، ويبيع المصل للأثرياء ويرتشى ولا هم له الا جمع المال .

سمعت الكثير . . وقد يكون هذا كله كذبا واختلاقا على الرجل ، ولكن الفلاحين يصدقون دائما هذه الأقاويل ، ولا يمكن أن يصدقوا أنه يوجد فى أمثال هؤلاء الموظفين رجل شريف ! .

ذهبت إليه فوجدته واقفا فى مدخل بيت المرأة الفقيرة وحوله الفلاحون وكان متوسط الطول والعمر ، وعيناه ترنو إلى أفقر بيت فى أفقر حى . ولقد ذهلت من الفقر المدقع الذى لاحظته فى هذا البيت . لم نر سوى حصيرة قديمة وحرام خلق ، وصومعة فارغة وبعض الملابس الرثة فى ظل الجدار ، وزير قذر فى فناء البيت ، ولم تكن هناك جاموسة أو نعجة أو حتى دجاجة ، أو أى شىء مما نشاهده فى منازل الفلاحين عادة ، كان كل شىء يدل على فقر وبؤس شديد .

ولقد أصبت وأنا الريفى القح بضربة شديدة وأنا أشاهد هذه الدار لأول مرة . فلم أكن أتصور أن فى هذا البيت يمكن أن يعيش آدمى .

وأحس الطبيب بى وأنا داخل ، ورأى الفلاحين وهم يفسحون لى الطريق فتحول وجهه إلى . ورأيت أن أكتفى بتحيته بإشارة من يدى مخافة أن يكون من هؤلاء الأطباء الذين يمتنعون عن مصافحة الناس فى أيام الأوبئة .

ولكنى رأيته يمد إلى يده وهو يبتسم ، وقد أدرك ما يدور فى رأسى . فصافحته ورحبت به وأخرج من جيبه فى الحال دفترا صغيرا وصرح للمرأة بالدفن ، وشكرته ودعوته إلى شرب

القهوة فى منزلى فقبل . كنت أود أن أستبقيه إلى العشاء ولكنه اعتذر بكثرة أعماله فى هذه الأيام . ولما كنت أود أن أذهب إلى مدينة سوهاج وكانت معه سيارته فقد ركبت معه السيارة إلى أقرب محطة للسيارات العمومية فى الطريق .

وسرنا بالسيارة فى أثناء الليل متمهلين فقد كان الظلام شديدا والطريق وعرا ، وكان الفيضان قد غمر الحقول وارتفع الماء على جانبى الجسر وبدا هذا كخط أسود وسط الماء .

وكنا نسمع طلقات البنادق من بعيد . ونشاهد النيران . . والعزب الصغيرة وقد خيم عليها الظلام ، ونطوى هذا كله ، ونمضى متمهلين أو مسرعين ، إلى أن بلغنا نقطة للمرور عند مفترق الطرق فوقفنا فى انتظار السيارة . وطال انتظارنا لها ولم تأت .

وأخيرا قال الطبيب :

- كانت الصحة تنوى وقف هذه السيارات منذ يومين لانتشار المرض وقد يكون الأمر صدر فى المساء . .

فركبت مع الطبيب إلى المركز لأمضى الليل فى منزله .

وكان المنزل بجوار صف من المنازل المتميزة عن غيرها من منازل المركز بأنها مبنية بالطوب ومطلية من الخارج بالجير ، وفى شارع غير مرصوف ولكنه نظيف نوعا ومن ورائه الحقول .

وجلست مع الدكتور فى شرفة تطل على الحقول ، وكان الظلام مخيما والكلاب تنبح ، والضفادع تنقنق فى ضجيج متصل ، وكان الماء يبدو عاليا وقد طوق القرية ، وبدا الجسر من بعيد متعرجا كثعبان ضخم أسود يسبح فى ماء الفيضان وبدت بعض مزارع الذرة النيلية فى الأرض المرتفعة عند مدخل القرية . وأيقظ الطبيب خادمه وكان هو الوحيد الذى يعيش معه . . وأمره بأن يعد لنا العشاء .

وجلست إلى المائدة معه ولاحظت أنه يشرب كثيرا ويأكل قليلا . ولما فرغنا من الطعام أخذنا ندخن ونتحدث .

وقال الطبيب وقد احمرت عيناه عندما رآنى أنظر إلى ناحية الحقول وأصغى إلى نقيق الضفادع هناك :

- أتحب الريف . .

- لقد أمضيت فيه صباى كله وبعض شبابى . . وكنت أعمل فى الحقول طوال النهار وأشعر بقوة وحيوية لا حد لها . . أما الآن فأنا أخاف حتى من ضربة الشمس ولم أعد أصلح لشىء .

- ولماذا تركته . . ؟
- لأمر خارج عن إرادتى . .
- وتتمنى أن تعود اليه . . ؟
-أجل برغم كل شىء . . برغم الذباب والبعوض والماء الملوث . .
- لو أقمت فيه مدة طويلة الآن لتغير رأيك . .
- لماذا . . ؟

- لقد كنت مثلك . . وعندما جئت إلى هنا لأول مرة منذ سبع سنوات كانت فى رأسى كل أحلام الشباب ومثله العليا . كنت أود أن أفعل شيئا عظيما لهؤلاء الفلاحين المساكين . كنت أود أن أنقذهم من البلهارسيا والانكلستوما وما هو شر من ذلك . . وقلت فى نفسى إن الطبيب يستطيع أن يصنع الكثير لهؤلاء الناس .

وفتحت عيادتى الخارجية على مصراعيها ، ولم أكن أتقاضى أى أجر وكنت أعمل بإخلاص وعزيمة صادقة ، وبرغم هذا كله لم يحضر إلى أحد . ومضى الشهر والشهر وكدت اجن . . ثم بدءوا يأتون فرادى قلائل وهم بين الموت والحياة وكانوا يتركوننى ويذهبون إلى الأضرحة والدجالين والمشعوذين فى القرى المجاورة وكنت أرى على بعضهم التمائم والتعاويذ عند الكشف على جثثهم قبل الدفن . وعلى مدى الأيام عرفتهم ووجدتهم بسطاء أغبياء جهلاء . . ورأيت فيهم المكر والغدر أيضا وطباع اللئام .

واجتمع على الفراغ المطلق والحياة وسط هؤلاء فكدت أجن . كانت معى كتبى وعيادتى وكنت أتسلى بهذا وأود أن أكون شيئا عظيما فى الريف . . أفعل ما فعله كوخ وباستير .

ولكن بعد عام تحطم كل شىء ولم أستطع الصمود .

ووجدت الفراغ والجدة ورأيت كل الموظفين فى الريف يلعبون القمار وهو تسليتهم الوحيدة فى هذا الجو الخانق . . وكنت أذهب لأتفرج باللعب . ثم أصبحت أقامر فى النهار والليل وفى كل وقت أجد فيه الفراغ . .

وصمت الدكتور قليلا ونفث دخان سيجارته ، كنت أرى وجهه وهو يتحدث ، وألاحظ المرارة على شفتيه والأسى وخيبة الأمل .

ونهض من مكانه وعاد بعد قليل ومعه زجاجة من الخمر وكأس ووضعها على مائدة صغيرة وأخذ يشرب .

وقال لى وهو يبتسم فى مرارة :

- لا تؤاخذنى إن أفرطت فى الشراب . . فأنا لا أنام إلا إذا فعلت هذا ، وإنى أسكر

وأنا طبيب يعرف مضار الخمر على الجسم والنفس معا . ولكننى لا حول لى فى ذلك ولا قوة . . أسكر لأننى فقدت نفسى . . وعندما ترد إلى نفسى سأقلع عن الشراب .

- أنا أعرف أنك أصبت بخيبة أمل مرة عندما جئت إلى الريف .

- وكذلك أنت وكل شاب آخر ذهبت آماله وتبخرت أحلامه . . فأنا أعرف والدك الشيخ إسماعيل معرفة وثيقة وكلما ذهبت إلى قريتك حدثنى عنك . . فمكانك الطبيعى كان فى القرية ، ولكنك تركتها إلى المدينة . . وكذلك فعل غيرك . . ولهذا ظلت القرية المصرية كما نراها كوخا منذ خمسين عاما تشرب من ماء الآبار وتعيش فى ظلام دامس . .

والتمعت عيناه وغطت وجهه سحب الدخان المتصاعدة من سيجارته وكان وجهه وجه رجل نفض يده من كل شىء فى الحياة ، وعاش بلا أمل . أو وجه من حاول الانتحار أكثر من مرة وفشل فى كل مرة . . ثم نفض يده من هذا كله أخيرا وأسلم نفسه للمقادير .

وكانت يده ترتعش وهى ممسكة بالكأس على الرغم من أنه لم يشرف على الخمسين . وأفرغ فى جوفه نصف الزجاجة ومع هذا ظل يشرب . . وكانت قطرات العرق تتساقط على جبينه . وعيناه كلما أفرط فى الشراب تزدادان احمرارا وبريقا .

وكنت أحول وجهى عنه ، وأطل من النافذة على المزارع القريبة . . وأستمع إلى نقيق الضفادع ، ونباح الكلاب ودوى الرصاص من حين إلى حين ، وقال لى الطبيب أخيرا :

- عندما تشعر بالنوم تفضل إلى هذه الغرفة لتنام . . أما أنا فلا أنام فى هذه الساعة . إن الطبيب فى المركز لا ينام فى الليل . فمعظم الحوادث تقع فى منتصف الليل عادة . . وفى كل ليلة أجلس هنا فى انتظار الإشارة التليفونية ومعظم الحوادث متشابهة . . قتل للأخذ بالثأر أو سلب بالإكراه . أو ذبح للنساء من أجل الشرف . .

ورأيت عينيه تلتمعان وشفتيه تتفجران عن ابتسامة خبيثة وهو يلفظ هذه الكلمات الأخيرة ، ولعله سر من التعبير نفسه أكثر من أى شىء آخر . ثم استطرد بعد أن نفث دخانه فى جو الغرفة :

- ولكن هذا الذبح لم يمنع المرأة من أن تزنى وتفسق . ومنذ الأزل وهى تفعل هذا .
- تعنى أنها ترتكب الفحشاء . .
- أجل ولا شىء يقف فى طريقها حتى ولو سلختها كما تسلخ الشاة .
وسألنى وهو يميل بوجهه إلى ناحيتى :
- أمتزوج . . ؟
- كنت متزوجا . .
- وطلقتها . . ؟

ـ بل ماتت . .

ـ لقد أراحك الله من شر مستطير ، أما أنا فقد تزوجت مرة واحدة وكأنى تزوجت مائة مرة . .

تزوجت امرأة مرغتنى فى الأوحال . . كانت عصرية من بيئة مثقفة وكانت تلعب القمار وتدخن وتسكر حتى تفقد وعيها وحتى لا تدرى ما يراد بها .

وهممت مرة أن أقطع يدها أو أمزق جلدها . ثم رأيت نفسى أجبن من أن أفعل هذا فطلقتها ، واسترحت وعشت كما ترى وسط البعوض والبلهارسيا والأنيميا ثم الكوليرا أخيرا . .

وقمت واستأذنته لأنام . . وتمددت على الفراش وأخذنى النوم مدة واستيقظت وكنت أسمع نباح الكلاب وطنين البعوض فى الغرفة . . ثم يعاودنى النوم برهة قصيرة . . وأستيقظ مرة أخرى . .

وسمعت طرقا على الباب . ثم صوت خادم الدكتور وهو يقول :

حادثة يا بيه . .

وأخذ الدكتور يسب ويلعن لمدة عشر دقائق على الأقل الريف وسكانه والطب والأطباء والأيام السوداء التى جاءت به إلى هذا المركز . ثم انقطع صياحه فأدركت أنه يرتدى ملابسه !

وسمعت حركته وهو يغلق الباب الخارجى .

واستيقظت فى الصباح . وكان الطبيب قد عاد من الحادث ، ولا يزال نائما وبعد أن ارتفعت الشمس تيقظ . وكان الخادم قد أعد لنا الشاى .

وقال وهو ضاحك السن :

– صباح الخير . . لقد أقلقناك الليلة . .

– لقد سمعتك وأنت تتحدث مع الخادم ماذا جرى . . ؟

– وقعت حادثة فى بلدة صغيرة على مسيرة أميال قليلة من المركز وهى الأولى من نوعها فى هذه المنطقة .

– حادثة قتل . . ؟

– شروع فيه . . امرأة حاولت أن تذبح زوجها فى ليلة زفافها .

استغرق فى الضحك ثم استطرد :

- ركبت سيارتى . وركب معى وكيل النيابة . وركب المأمور ومعه بعض الجنود سيارة المركز . وبعد نصف ساعة كنا فى القرية وجلسنا فى دار العمدة وكان فى انتظارنا . وجاء الخفراء يحملون «فانوسا» نصف زجاجة مهشم ومنضدة قديمة ووضعوهما أمام المحقق . وكان نفر من الفلاحين مجتمعين خارج الغرفة التى نجلس فيها يطلون علينا من النوافذ . وحولهم الخفراء بلبدهم ذات الأشرطة الحمراء وهم أمتع منظر فى القرية . وجلست بجانب المأمور على «كنبة» أكلها التراب . وابتدأ التحقيق ولم تكن إصابة الزوج بالغة . ضرب بسكين فى عنقه . وعندما رأيته طارت الفكرة التى كونتها عنه . فقد تصورته كهلا أو مشلولا وأرادت الزوجة أن تتخلص منه فإذا به شاب فى الثلاثين من عمره قوى العضل مفتول الساعد . وكان أسمر فى حمرة ، وفى إحدى عينيه حول خفيف .

وسئل الزوج وسئل غيره . ثم خيم السكون على الحجرة واشرأبت الأعناق ودخلت امرأة تغطى وجهها بطرحتها ، مشت متئدة ثم وقفت أمام المنضدة ، ورأيت عينا واحدة تبرق ، وجانبا من الخد ، وبعض الجبين ، ورمش العين اليمنى كله ، وكان جسمها يدل على أنها طويلة العود . وكان حياؤها بالغا لا حد له . ودخل معها الخفير ثم تركها فتلفتت وراءها ولعلها كانت تود أن تقول له «لم تركتنى لهؤلاء الغرباء» ، وحاولت أن أرى يدها أو شعرها أو قدمها وهى واقفة هكذا فلم أستطع . كان ثوبها سامريا وطرحتها تغطى كل وجهها . ووجه إليها المحقق أول سؤال ، ورن صوتها فى جنبات القاعة لأول مرة ، كان صوتا لينا ناعما ، وأنكرت ما هو منسوب إليها بالطبع ، وظهر انفعالها بوضوح عندما عاود المحقق السؤال ، وكانت تعانى اضطرابا عصبيا شديدا . وكنت أجلس فى صدر الغرفة ولمحت وجهها لأول مرة وقد اخضلت عيناها بالدمع وبدا الوجه ورديا مشرقا كفلقة الصبح فى الليل البهيم ، كان مشرقا بالغا حد الفتنة . ثم عادت وغطت وجهها .

وتذكرت عندما رأيت هذا الوجه وهذا الاضطراب العصبى ، كل ما قرأته عن أدلر . . وهو فلاند . . وفرويد . .

وجاء دورى لأفحصها . . فأخذتها إلى غرفة مجاورة لأفحص ملابسها وأرى آثار الدم .

وبعد قليل رجعت أهمس فى أذن المأمور :

- لم أستطع أن أزيح طرحتها عن شعرها . . فما العمل ؟

وقال لى المأمور وهو يبتسم وكان حكيما :

- إننا هنا فى الصعيد . . ولو حاولت أن تكشف عليها بالقوة فسيثور أهلها ويحدث

مالا محمد عقباه . . وبعد قليل سنأخذها إلى المركز لأنها متهمة . فأجل الكشف الآن . .

واقتنعت بوجاهة هذا الرأى ، وانتهى التحقيق ونهضنا عائدين إلى المركز .

وسألت الدكتور :

– هل رأيتها ؟ .

– أجل ورأيت كل شئ فيها ، وأنا على استعداد لأن أسجن أو أشنق فى سبيل أن أمضى ليلة واحدة معها . ليلة واحدة ليس إلا .

وظلت صورة هذه الفتاة الرائعة كما رسمها الطبيب تداعب مخيلتى طول النهار . وكانت المواصلات بين القرى لاتزال مقطوعة فبقيت فى المركز وفى المساء قابلت الطبيب وكان على غير عادته متجهم الوجه عابسا ، فرددت ذلك إلى تعبه فى الليالى السابقة وكثرة الحوادث .

وتمشينا قليلا على الترعة ثم جلسنا فى مقهى صغير يملكه رجل يونانى وتناولنا عشاء خفيفا . وأخذنا نتحدث وكانت صورة هذه الفتاة لا تزال فى ذهنى فسألته :

– ماذا جرى للفتاة . . ؟

فقال وهو يعض على نواجذه :

– إنك تنطق بلسان القدر . . لقد جرى لها الكثير . .

وصمت برهة وغامت عيناه . . ثم رجع إلى نفسه واستطرد :

– عندما كشفت على الفتاة لم أجد أى أثر فى جسمها أو ملابسها يدل على أنها ارتكبت جريمة . ولما نظرت إلى وجهها ويدها . قلت فى نفسى إن هذه اليد لا يمكن أن تحمل مدية . إنها تحمل زهرة وأقحوانة . . أما السلاح فلا . . ولاحظت رقة الفتاة ودماثتها ولين طباعها وخفرها الذى لا يصور . . وقلت فى نفسى حرام أن تزج بهذه الزهرة الجميلة فى السجن ، ولابد من براءتها بأية حال .

وكتبت التقرير بأن الجرح الذى فى الزوج من افتعاله هو . . وجاء الطبيب الشرعى فأيد كلامى . ولم يكن هناك شهود رأوا الفتاة وهى تضرب الزوج بالمدية أو بسواها ولهذا أفرج المحقق عن الفتاة .

ولكن مع الأسف لم تصل إلى قريتها . . فقد ضربت بسكين أصابت منها مقتلا وهى فى الطريق إلى القرية .

وقدر لى أن أرى هذه الزهرة التى لم تلمسها يد لامس حية وميتة . . قدر لى أن أراها جثة بعد أن عشقتها امرأة .

وتناولت المشرط لأشرح الجثة ، ووجدت الدموع تتساقط من عينى . . أنا الذى لم أبك على امرأة فى حياتى . . فما أفظع الحياة . . !

بيت الأشـــجان

نزل من الترام عنـد مستشفى قصر العينى ، واتجـه إلى المنيل متلمسـا طريقـه فى الظلام . وكان الظلام شاملا والحرب بين الألمان والإنجليز فى الصحراء على أشدها . وكان الانجليز يتراجعون وروملى يتقدم صوب الضبعة .

وكان شارع قصر العينى يزخر طول الليل بحركة السيارات الكبيرة المحملة بالجنود الذاهبة إلى الميدان والعائدة منه . كان رتل السيارات لا ينقطع فى هذا الظلام الشديد لحظة واحدة .

وكانت السيارات تنطلق فى سرعة فائقة ، ولهذا كان السائر فى هذا الشـارع يسير حذرا خائفا متوجسا من الظلام ومن السيارات ومن الجنود أنفسهم .

وكانت الساعة قداقتربت من العاشرة ليلا وكان الطريق خاليا خلوا تاما من المارة . وعندما بلغ «كوبرى» محمد على وانحرف إلى اليسار متخذا الرصيف طـريقا لـه ، شعر بالوحشة والانقباض فى هذا السكون العميق فلم يسمع حسا ولا صوتا ولا قدم إنسان .

وكانت الأشجار الضخمة القائمة على الرصيف حذاء الترعة تزيد المكـان ظلامـا ورهبة ومرت بجواره سيارة محملة بالجنود ورآها تتوقف على مسافة قريبة منه فشعر بشىء يقبض على قلبه ويضغط ثم يطلقه فى عنف . وظل بصره عالقا بالسيارة إلى أن رآها تتحرك فتنفس الصعداء . وكان قد مر فى هذا الطريق فى الليل مرات عدة فلم يشعر بمثل الخوف الذى ساوره فى هذه الليلة كان خائفا يتوجس . . وكان يسمع صوت أقدامه بوضوح فى هذا الليل الساكن ومرت أكثر من سيارة ملاكى وعربة واحدة من عربات الأتوبيس . وكان يستأنس بنور هذه السيارة وبمن فيها من الركاب . وكان سور المستشفى الجديد على يمينه والمستشفى يبدو من بعيد غارقا فى غياهب الليل . وكان الجو صحوا ونسمات الليل تداعب وجهه ، والنجوم تتألق فى السماء . . والمصابيح الزرقاء تعكس نورها الباهت على الأرض .

وكان قد رفع وجهه إلى السماء وفتح صدره لهواء الصيف وشعر بعليل الهواء ، ولينه وبقوة الحياة وسحرها . فأسرع فى مشيته .

وعاوده الاطمئنان وسكينة النفس . . وفجأة دوت صفارة الإنذار فأحس برجفة هزت أعصابه وانتفض لها قلبه .

وأعقب دوى الصفارة طلقات المدافع المضادة ، وأخذ اللهب الأصفر يخترق السحاب ، والقذائف تضىء وتتهاوى كالشهب .

ونظر حواليه يبحث عن مكان يلجأ إليه فلم يجد . فانطلق يعدو بأقصى سرعته حتى صادف أول بيت فى الطريق ، فوقف على عتبته وجعل ظهره إلى الباب وعينيه إلى السماء .

وكان صوت المدافع لاينقطع فى الجو وأخذت السماء تتلبد بسحب الصيف الخفيفة . وبدأ القمر يرتفع عن خط الأفق وأخذ يبدد ما حوله من ظلمات تدريجاً ، فوضحت معالم الأشياء التى تحيط به .

واشتد دوى المدافع وصوت الطلقات ، وخيل إليه أنه يسمع تفجيرات القنابل الملقاة من الطائرات المغيرة . فشعر بهزة عنيفة واشتد حبه للحياة فتجمع على نفسه . وكان كلما اشتد الضرب من الأرض ومن السماء أغلق عينيه ، ووضع يده على رأسه يتقى بها الصواعق النازلة فوقه .

وسمع صوت طيارة تمر فوق رأسه أو خيل إليه ذلك . .

واشتدت القذائف فى الجو . .

وسمع صوت انفجار شديد وتصور أنه يسمع جدارا ينقض قريبا منه فانكمش وحاول دفع الباب الذى خلفه بكل قوته . .

وقاومه الباب وأحس بشىء ثقيل يحط على صدغه . فصرخ وسقط مغشيا عليه .

ولما رجع إلى صوابه وفتح عينيه ألفى نفسه ممددا على بساط فى غرفة كبيرة مملوءة بالكراسى والأرائك وفى وسطها طاولة رخامية صغيرة وكانت الغرفة مضاءة فأدرك أن الغارة قد انتهت .

ورأى باب الغرفة مفتوحا على الممشى الخارجى للبيت فاستنتج أنه سقط فى هذا المكان ونقل منه إلى هذه الغرفة ، ولكن من الذى فعل هذا ؟ لم يسمع أى صوت فى داخل المنزل أو خارجه ، وعجب لهذا وكان رأسه معصوبا وفى جسمه رضوض شديدة . ووجد بقع الدم تلطخ وجهه وقميصه وملابسه .

وحرك يده اليمنى . وتذكر أنه كان يمسك بهذه اليد كتبه المدرسية فأين ذهبت ؟ وتلفت فى جوانب الغرفة فألفاها موضوعة على كرسى قريب وحاول أن يجمع شتات نفسه وينهض فلم يستطع ، فأخذ يدير رأسه فى سقف الغرفة وجدرانها وأثاثها وكانت حالة الغرفة على العموم تدل على أنها مهملة وشبه مهجورة فلا تستعمل إلا نادراً .

ولاحظ صورة كبيرة معلقة فى صدر الغرفة مجللة بالسواد فأمعن فيها البصر ، فوجد أنها لرجل فى العقد الخامس من عمره . وكانت الصورة كبيرة فبدت ملامح الرجل واضحة . وكان طويل الوجه أبيض ضيق العينين بارز الذقن له شارب ضخم مفتول . وكأن الرجل ينظر إليه ولا يحول بصره عنه . وكان بجوار هذه الصورة صورة أخرى لسيدة مجللة بالسواد أيضا ولم يستطع أن يتبين ملامحها لصغر الصورة . . ورأى ستائر سوداء على النوافذ ، وأغلق عينيه وانتفض لهذا السواد المحيط به وتصور أنه مقدمة نعيه .

ولما فتح عينيه وجد امرأة لابسة السواد واقفة على رأسه . فحملق فيها صامتا . وكانت عجوزا مستديرة الوجه قصيرة القامة ناحلة العود تغطى رأسها بطرحة سوداء ، وتمسك بيدها بطانية وضعتها عند قدمى المصاب وهى تقول :

ـ خذ يابنى فقد تحتاج إليها . . طلبنا لك الإسعاف من بيت الجيران مرة ومرات ولغاية الآن لم يحضر .

ـ أرجو المعذرة لقد سببت لكم المتاعب . . ولقد ساقنى القدر فوقفت على بابكم . . وحدث هذا فى مثل لمح الطرف .

ـ أشكر ربك يا بنى . . الذى وهب لك الحياة من جديد . . رأتك سعدية بعد الغارة وأنت ساقط على عتبة الباب فصرخت . وتصورناك ميتا ولما وجدنا قلبك ينبض وضعناك هنا .

وصمتت قليلا ثم قالت :

ـ أمنزلك قريب من هنا لنخبر أمك ؟

ـ فى محطة الباشا . . ولا داعى لهذا فبعد قليل سأنهض وأروح .

ـ حاول أن تنام يابنى . . النوم يفيدك .

قالت هذا وخرجت .

وسمعتها تتحدث بعد لحظات مع سيدة أخرى وكان صوت هذه ألين وأرق ثم انقطع الصوت ودخلت عليه سيدة أخرى بيدها إناء به ماء ومنشفة ومسحت له الدم العالق بوجهه

فشكرها وأخذ ينظر إليها وكانت فى الخامسة والثلاثين من عمرها بيضاء طويلة القامة مليحة تقاطيع الوجه سوداء العينين متألقة البشرة تلبس رداء أسود وتضع وشاحا على كتفيها .

وسألته وعلى شفتيها ظل ابتسامة حزينة :

ـ جاى من . . السينما ؟

ـ لا . . كنت بذاكر مع واحد صاحبى . .

وسألها بعد برهة :

ـ هل أصابت الغارة شيئا آخر . . ؟

فضحكت وقالت :

ـ أتتصور أنك أصبت فى غارة وتبقى منك لحمة فى عظم .

ـ ماذا أصابنى إذن ؟

لقد أصبت بشظية مدفع مضاد . . ولم تحصل غارات على المنيل وبإذن الله وبركة الست الطاهرة لن تحصل . . .

وأخذت تدعو وتبتهل . . .

وأحس بألم شديد فتأوه . . .

فقالت :

– تعبان ؟

– خالص . . أطلبى الإسعاف من فضلك . .

– طلبناه . . وحالا سيحضر . .

– عاوز أموت . .

– ليه . . أنت لسه صغير . .

– عاوز أقوم وأخرج إلى الشارع وأتعرض لغارة ثانية . . وأموت .

– ولماذا ؟

– لقد كنت فى أثناء الغارة أخاف من الموت . . وأتمنى الحياة . أما الآن فأنا أطلب الموت لأستريح من العذاب . .

- ربنا يشفيك . .

وتناولت الإناء ونهضت . . وكان يود أن يقول لها أرجو ألا تتركينى وحدى احضرى موق على الأقل . . ولكنه خجل من نفسه وصمت ولما ذهبت أغلق عينيه وأحس بطنين فى أذنيه يعاوده من جديد وصداع شديد . وخيل إليه أن طاحونة تدور فى داخل رأسه . فأخذ يتأوه بصوت عال . . ثم تذكر أنه فى بيت أناس هو غريب عنهم وليس من اللائق أن يزعجهم فصمت على مضض . . ولكن الألم اشتد عليه بعد قليل فانطلق لسانه معبرا عن آلامه . .

وسمعت سعدية صوته وهو يتأوه . . وكانت لاتزال مستيقظة إذ إن عمتها توحيدة نامت . وبقيت هى الوحيدة الساهرة فى المنزل وكانت أول من رأى هذا الطالب وهو يسقط على الباب وحوله كتبه متناثرة . . فصرخت وأخبرت عمتها وتركته لها . . لأنها بطبيعتها وتكوينها بعيدة عن الرجال محبوسة عنهم فلما اشتد صوته وألمه رق له قلبها فنهضت مرة أخرى واتجهت إلى الغرفة فلما وقفت على رأسه كان النوم قد أخذ بمعاقد أجفانه وأراحه من العذاب فجلست على كرسى قريب منه وأخذت تنظر إليه . . وكان فتى فى الثامنة عشرة من عمره أو يزيد أسمر الوجه واضح القسمات بديع التكوين يرتدى بذلة رمادية وقميصا أبيض قد سال عليه الدم وكان رباط رقبته مفتوحا وقميصه مفتوح العروة فبدا شعر صدره . . وكان وجهه يعبر عن حاله مستكنة من الألم .

نظرت سعدية إليه وجالت فى عينيها الدموع . . وكانت قد ذكرت أصغر اخواتها وآخر من بقى لها من أسرتها فى هذه الدنيا . . عندما قتل منذ سنوات إذ ضربه الكونستبلات الانجليز بالرصاص وكان على رأس مظاهرة فى الروضة . . وحملوه إليها مضرجا بدمه ووضعوه فى هذه الغرفة . وسالت دموعها مدرارا . . وعادت بها الذكريات إلى الوراء . . فذكرت والدها وقد مات بالسكتة القلبية فى ساحة المحكمة بعد أن فرغ من مرافعته فى قضية من القضايا . . وحملوه إلى أمها وكانت هى صغيرة لا تعرف أحزان الحياة . . ووضعوه فى هذه الغرفة أيضا ثم خرجوا به إلى المقبرة . . وما زالت أمها من بعده فى سواد وحداد عليه إلى أن قضت .

وعاشت سعدية من بعدهم يتيمة حزينة فى هذا المنزل .

وكانت عمتها توحيدة متزوجة من رجل كهل فلما مات دون أن ينجب جاءت لتعيش معها وتؤنسها فى وحدتها المرة . . وعاشت سعدية كل هذه السنوات العشرين وهى لا ترى الدنيا إلا خلال منظار أسود . . فما ذهبت إلى سينما ولا شاهدت ملهى ولا مرقصا ولا أدارت راديو ولا استمعت إلى موسيقى . ولا جلست فى مجلس فيه رجال .

كل هذه كانت من المحرمات التى تسىء إلى ذكرى أعزائها الراحلين الراقدين تحت الثرى . .

وكانت حياتها بين المقبرة - فى أيام الجمعة - والبيت مع هذه العمة المسنة . . وكانت ترى عمتها وهى تتقدم فى السن ، ويشيب شعر رأسها ويتغضن وجهها ويتقوس ظهرها . . وترى فيها صورتها فى الغد القريب فتكاد تجن لهذا الخاطر المعذب .

وكانت عمتها تقية نقية فعلمتها الصلاة منذ صغرها . فكانت تصلى بقلب خاشع . ولكن دعاءها كان دائما يتجه إلى طلب الرحمة لوالديها وأخيها الشهيد . . كانت تذكرهم دائما فى صلاتها وتطلب الرحمة لهم وتنسى نفسها كانوا يستغرقون حياتها . . وكانت تعيش لهم و تفنى فى ذكراهم . . وكانت صورهم لا تبرح مخيلتها أبدا فى ليل أو نهار . . كانت تفكر فيهم أكثر مما تفكر فى نفسها وفى شئون معاشها . . كانت تبخل على نفسها بالثوب الجديد . والطعام الجيد لتعد الرحمة لهم كل يوم جمعة . وتذهب بنفسها لتوزعها على الفقراء فى «القرافة» . وكانت تشعر بلذة وسعادة كبرى وهى تفعل هذا .

وكانت جميلة فى شبابها ولكنها كانت فقيرة . فلم يتقدم أحد لزواجها وانصرفت بمضى الأيام عن التفكير فى الرجل ، ولم يكن هناك ما يدعو لأن تفكر فيه فقد كان بعيدا عن جوها وعن محيط حياتها كله .

وكانت تعيش من إيراد منزل صغير وهو كل ما خلفه لها والدها من ثروة وكانت بهذا الإيراد قانعة فى هذا المنزل .

وبعد هذه السنوات الطويلة يجىء هذا الشاب إلى منزلها تسوقه الأقدار اليها فى ليلة مظلمة مروعة . . ونظرت اليه وأطالت النظر . وكان الدم قد عاد من جديد يسيل من جراحه ويلطخ وجهه ، فأخرجت منديلها من بين طيات ثوبها ، وأخذت تمسح وجهه فى رفق . وشعرت بإحساس غريب لذيذ يساورها لأول مرة فى حياتها . . وعندما لامست يدها عرضا ذراعه أحست بشىء غامض قوى يهز كيانها . . واستمرت تمسح على وجهه برفق وهى غائبة عن وعيها .

وشعرت بأن شيئا فى أعماق نفسها يتفتح لأول مرة كما تتفتح الزهرة وهى تستقبل شمس الحياة ودفأها وتخيلت وهى تنظر إليه أن ذراعيه تدوران حول جسمها ، وشفتيه هاتين تضغطان على شفتيها . . واستغرقها هذا الخاطر فأغلقت عينيها وأصابها خدر لذيذ .

وسمعت صوت المؤذن يؤذن الفجر فى مسجد قريب فانتفضت وخرجت من الغرفة وهى تبكى .

وصلت الفجر . . وابتهلت إلى الله أن يحفظها من الدنس ويصونها . وذهبت إلى عمتها . . وطلبت منها فى حدة وغضب أن تطلب الإسعاف أو العسكرى ليذهب بهذا الشاب إلى أى مكان فليس بيتها مستشفى للغرباء . . وكانت محتدة تصيح بأعلى صوتها وتلوم عمتها لأنها وضعت الشاب فى هذه الغرفة واستغربت عمتها لحالها .

واستيقظ هو على هذا الصوت وسمع الحديث كله والصياح جميعه فتحامل على نفسه حتى استوى على قدميه . . وكان النوم قد أفاده بعض الشىء فاعتمد على الجدار وتحرك حتى اقترب من الباب وخرج يجر نفسه جرا . .

ورأته سعدية من نافذة الغرفة وهو خارج فى ظل الفجر الوردى فأمسكت بمنديلها ووضعته فى فمها لتكتم صرخة ندت من أعماقها وعندما اجتاز الممشى الخارجى إلى الطريق سقط .

وكان جرس عربة الإسعاف قد دوى فى هذا السكون .

الزوجة العصــــرية

عندما تزوج عبد الخالق أفندى الآنسة سنية توفيق شعر بسعادة كبرى فقد كان يحبها قبل الزواج إلى درجة العبادة ويتمنى على الله أن يحقق حلمه الذهبى بالزواج منها . . فلما تحقق له هذا الحلم حلق فى السموات بجناحين وغدا أسعد الناس جميعا .

وحرص فى السنوات الأولى من زواجه على أن يغمرها بحبه وعطفه فكان لا يرد لها مطلبا ولا يرفض لها رغبة . . ولما وجدته أطوع لها من بنانها طوته تحت جناحها وسيطرت عليه بقوة . . وفرضت عليه إرادتها ورغباتها . وما زالت تتمادى حتى أصبح يعيش فى البيت كقطعة بالية من الأثاث .

وكانت تخرج وحدها . . وتعود وحدها . . وترك لها الحبل على الغارب ولما أقبل الصيف أبدت سنية رغبتها فى أن تصيف فى الإسكندرية كما تفعل السيدات من طبقتها .

ولما كان عبد الخالق أفندى لا يستطيع أن يذهب معها لأن عمله لا يسمح بذلك فقد سافرت سنية مع والدتها بعد أن استأجرت شقة فى كليوباترا وودعها عبد الخالق على المحطة وهو يذرف الدمع السخين . . ووعد بأن يزورها كلما سنحت الفرصة .

ولما سنحت له هذه الفرصة بعد شهر من سفر زوجته طار من الفرح وأخذ يتصورها وهى تتزين له ، وتعد العدة لاستقباله فتنظف البيت وتشترى الزهور من السوق وتعد له الطعام الشهى . . وتذهب بنفسها لاستقباله على المحطة .

وظل طول الوقت فى القطار يفكر فى هذا ومثله ، فلما اقترب القطار من محطة سيدى جابر شعر بضربات قلبه تشتد وبجسمه كله ينتفض . وثبت بصره على الرصيف يبحث من بين المستقبلين عن وجه زوجته .

ووقف القطار ونزل على الرصيف ودار ببصره الحائر . . فلم يجدها ولم يجد أحدا غيرها فى انتظاره حتى ولا أحد الخدم . . وأعطى الحقيبة للحمال وسار وراءه وهو يشعر بخيبة الأمل . وطار أول حلم من رأسه .

وعندما بلغ البيت كان يتوقع أن يراها فى النافذة أو فى الشرفة تنتظره فى لهفة . . فلم ير حتى طيفها .

ودخل البيت فلم يجد فيه سوى خادمة صغيرة فسألها عن سيدتها فقالت :

- ستى مع الست الكبيرة على البلاج .

فجرى إلى البلاج دون أن يغير ملابس السفر من فرط ما يعانيه من شوق .

ونزل إلى الشاطىء وأسرع نحو «الكابينة» ولما اقترب منها رأى منظرا صعق له . . وجعله يقترب متمهلا بعد أن كان يسرع كالملهوف . رأى زوجته جالسة مع بعض الشبان الغرباء تلعب الورق فى داخل الكابينة على منضدة طويلة . . ورأى حماته جالسة معها وبيدها الورق أيضا . . وشعر بخنجر حاد يمزق أحشاءه واقترب وقد اسود وجهه وسمع حماته تقول لابنتها بصوت مرتفع :

- زوجك شرف . .

فرفعت سنية بصرها عن الورق لحظة ونظرت إليه ثم عادت إلى اللعب لم تحيه بكلمة أو ابتسامة . . بل لقد لاحظ أنها استاءت لمقدمه وظهر أثر ذلك على وجهها .

وكانت الكراسى كلها مشغولة باللاعبين فظل واقفا أكثر من دقيقتين وهو شاعر أن الأرض تميد من تحته .

وأخيرا قالت حماته :

- نجيب لك كرسى يا عبد الخالق بيه . . واللا تأخذ كرسى من الجيران وتروح تقعد على البحر أحسن . مافيش منك فايدة هنا لا تعرف تلعب ولا حاجة .

فابتسم ابتسامة صفراء . ومشى إلى البحر وهناك جلس على الرمال . . وأخذ وهو جالس يستعرض حياته مع سنية وأدرك لأول مرة أنه ترك العنان حتى جمحت وأنه أفسد حياته بيديه . وكان مجلسه بعيدا عنهم ولكنه كان يسمع ضحكاتهم العالية الصاخبة حتى تحولت إليهم أنظار المصطافين . . وكانت الأم التى صبغت شعرها وزججت حاجبيها ولطخت شفتيها بالأحمر الصارخ أكثر الجالسين مرحا وفجورا .

وأخذ عبد الخالق يسترق النظر إليهم من بين زحمة الجالسين على البلاج . . ورأى الشاب الجالس بجوار زوجته يعابثها ويتحسس فخذها وهى جذلانة طروب . . وكانت الأم تدخن ولاحظ أن زوجته تمسك السيجارة مثل أمها وتقلدها فى كل حركاتها وسكناتها .

واستغرب كيف لم يدرك هذا من قبل . كيف لم يدرك عامل الوراثة . . كيف لم يدرك

الدم الفاجر الذى يجرى فى عروق الأسرة .

وكان الشبان يميلون على الأم ويلقون إليها ببعض الكلمات فى أذنها وهى تضحك فى عهر ظاهر .

وأخيرا طويت الطاولة . ورأى زوجته تقبل نحوه ومعها الشاب الذى كان يجلس بجوارها على مائدة القمار . . وكانت تلبس برنسا وكذلك الشاب . ووقفت بجواره لحظات وهى تضحك ثم خلعت البرنس وأعطته لزوجها . وخلع الشاب برنسه وأعطاه له أيضا .

ونزلت زوجته وعشيقها إلى البحر وابتعدا عن الأنظار وجلس على الرمال يحرس البرنسين .

وشعر بشىء ثقيل يجثم على قلبه . وجلس صامتا كالتمثال لا يرى شيئا مما حوله ثم ثارت رجولته لأول مرة فانتفض واقفا وغادر البلاج . . وفى حمية ثورته ذهب إلى البيت وأخذ الحقيبة وانطلق إلى المدينة يبحث عن فندق يمضى فيه ليلته ، وفى الصباح سيعود إلى القاهرة فى أول قطار .

وكان الصيف فى صميمه والمدينة مزدحمة والفنادق كلها ممتلئة فلم يعثر على غرفة .

وهبط الليل فجلس على مقهى وتقدم إليه غلام لينظف حذاءه فمد رجله بحركة آلية .

وقال له الغلام وهو ينظر إلى الحقيبة :

- عاوز أوده مفروشة يا بيه

فانتفض .

- فيه أوده كويسة فى بنسيون قريب من هنا

ومشى وراء الغلام فى تلك الشوارع الضيقة التى تتفرع من محطة الرمل ودخل شارعا مظلما . واستقبلته صاحبة البنسيون وهى سيدة فى منتصف العمر مرحبة وقادته إلى الغرفة .

وخلع ملابسه ولبس غيرها ونزل إلى المدينة وكان لا يزال على حاله من الغم والتفكير فلم ير فيما شاهده شيئا يسره . فعاد مبكرا إلى البنسيون .

ووجد السيدة وحدها فى الصالة . وابتدرته بقولها :

- يعنى رجعت بدرى . . مفيش فسحة . . ؟

- تعبان .

- فيه إيه . . ؟
- عندى صداع .
- حاعملك قهوة .
- مفيش لزوم للتعب
- لازم . .

ونهضت ورآها وهى مدبرة وكأنه يراها لأول مرة . . كانت طويلة القامة بديعة التكوين كأنما صب جسمها مثال بارع .

وجاءته بالقهوة . . وكان قد دخل غرفته وجلس إلى مائدة صغيرة ووضع رأسه بين يديه وعلى وجهه كل أمارات التعس . ونظرت اليه وسألته وهى تضع أمامه الفنجان :

- مالك . . زعلان ليه . . ؟

واستغرب هذا السؤال وهذا العطف من امرأة غريبة عنه . . وهو المحروم من كل عطف وحنان ورفع وجهه اليها .

وعادت تسأله :

- مالك . . ؟ خسرت فى البورصة ؟

فضحك وتناول الفنجان . . ولما شرب القهوة أحس ببعض الانتعاش . . فسألها وكانت لا تزال واقفة بجوار كرسيه :

- عايشه وحدك . . ؟
- أيوه . .
- مافيش راجل
- مبحبش الرجالة . . كلهم خاينين . .
- والستات . . ؟
- مساكين . .

وشعرت بكل نفسه تتفتح وبجوارحه كلها تنتشى وهى مقبلة عليه بوجهها تحادثه وتعطيه من نفسها . .

ولم يشعر بنفسه الحزينة . وهو يزحف نحوها ويمسك بيدها ثم ينحنى عليها ليقبلها واقتربت منه والتصقت به جدا . . وكان جسمه كله يرتعش . . فقد كان يخون زوجته لأول مرة فى حياته الزوجية .

صـــالح العمـــل

كان عبد الستار أفندى موظفاً صغيراً فى قسم الأوبئة بوزارة الصحة وكان يجلس مع سبعة من زملائه فى حجرة ضيقة رطبة ، على مكاتب قذرة وأمامهم أكداس الأوراق .

وكانوا يعملون فى فصل الصيف ، وهو الفصل الذى تكثر فيه الأوبئة عملا مرهقا متصلا ، وكان عبد الستار أفندى أكثرهم حماسة للعمل واستغراقا فيه ، وتفانيا إلى حد الإرهاق . . ولهذا أصبح موضع السخرية من زملائه جميعا .

وكان فى الرابعة والخمسين من عمره . مقوس الظهر . محطم الجسم قد قضى فى درجته أكثر من عشرين عاما وفى حجرته هذه أكثر من ربع قرن .

وكانت حياته فى البيت والمقهى هى امتداد لحياته فى الديوان ، فما فكر إلا فى الملف ، والأدوية ، والمراقب ، والمدير العام وسعادة الوكيل .

وعندما ينتقل التيفود من الإسكندرية إلى دمنهور يشعر بمغص معوى وارتفاع فى درجة الحرارة وهبوط عام ، ويظل فى مكتبه يتلقى البيانات ويتبع هذه النحلة الدوارة وهى تنتقل من فنن إلى فنن ثم يرسل تعليمات الصحة إلى الجهات .

وكان يظل طوال ساعات العمل مكبا على الأوراق القذرة التى تداولتها آلاف الأيدى ، والتى تحمل بين طياتها مئات الجراثيم ، فإذا حان ميعاد انصراف الموظفين بقى يعمل إلى الغروب ، محطما وكان يفكر وحده وهو فى الطريق فى عمل الغد .

ولم يكن تحمسه الشديد للعمل يصدر عن شعور إنسانى ونفس كريمة فقد كان بليد الحس أنانيا لا يفكر إلا فى أمر نفسه ولا يعنيه من أمر المرضى أو الضعفاء أى شىء ، وإنما

كان لتلذذه المطلق من مجرد حصر الأرقام وانتشار الوباء ليضاعف عمله ويحوز رضاء الرؤساء .

وكانت حياته رتيبة مملة بين المكتب والبيت . وكانت متعته الوحيدة فى أن يذهب مساء كل خميس إلى مقهى فى حى السيدة زينب ويجلس مع زملائه الموظفين يتحدث عن الغلاء وأسعار الحاجات واختفاء الطماطم من السوق . ثم ما يلبث أن ينتقل الميكروب الأبدى إليهم جميعا فيدور الحديث عن الكادر والعلاوات والترقيات إلى ما بعد منتصف الليل . وكان أفق حياته ضيقا فهو لم يقرأ فى حياته كتابا علميا أو أدبيا . . كما أنه لم يشتر صحيفة سيارة بقرش أو بنصف القرش . . وكان لا يعرف من أحوال الدنيا إلا ما يدور على ألسنة العوام .

وكان بؤسه قد حصره فى دائرة مفرغة فهو لا يفكر فى شىء مما يجرى فى العالم الخارجى ولا يعرف شيئا عن أحوال بلده وتروح الوزارات وتجىء وهو لا يدرى متى سقطت هذه وقامت تلك .

وكان لا يعنيه أتقدمت بلاده فى ركب الحضارة أم تأخرت إلى الوراء آلاف السنين ، فقد حطم البؤس نفسه وجعلها عفنة خربة ، وعندما يتحدث الناس أمامه عن الاصلاح والتقدم الاجتماعى والتغلب على الفقر والمرض وكان ينظر إليهم بوجه صامت كأنه يستمع إلى محاضرة عن نظرية النسبية أو إلى حوار عن مشكلة الاسترلينى والبلاد الواقعة فى منطقة الدولار .

وعندما يجىء الصيف . . يحل موسم الأوبئة ويحل موسم الترقيات فكان عبد الستار أفندى يظل طوال الوقت يدور فى الديوان يسأل عن الحركة .

متى تظهر . . متى . . ؟

فإذا وجد أحد الموظفين يحادث زميلا له فى ممشى الوزارة تصوره يتحدث عن الحركة فيقف ليسمع .

وإذا وجد الفراشين مجتمعين تصور أنهم يتحدثون عن الحركة أيضا فيمر بجوارهم ينعس ويسمع ما يدور من حديث .

وكان يخرج من حجرة ، ويدخل فى أخرى ويسأل هذا ، ويحادث ذاك حتى أصابته لوثة من جراء الحركة وغدا كالمخبول .

وبعد طول انتظار ظهرت الحركة ولم يكن فيها . . فصعق واشتدت سخرية رفقائه به . . ثم مرت الأيام وعاوده الأمل من جديد وانتظر الحركة الثانية . . . . ومرت الحركة الثانية . . والثالثة . . والرابعة . . وهو منسى لا يذكره أحد .

وجاء صيف . . وظهرت الكوليرا واشتد نشاطه وعمله وكفاحه ، وظهر هذا الوباء أول ما ظهر فى بلدة القرين . . وانتشر منها فى رقعة الدلتا ثم زحف إلى الصعيد .

وظلت مكاتب الأوبئة تعمل ليلا ونهارا وعبد الستار أفندى على رأسها واقترب موعد حركة الترقيات الجديدة . . وترقب عبد الستار أفندى وقلبه ينتفض . وأخذ يذرع طرقات الوزارة كالمجنون . . وسمع أخيرا أنها ستوقع بعد الظهر فظل فى المكتب من غير طعام . ولم تظهر فى المساء فبارح المكتب .

وفى صباح اليوم التالى نهض مبكرا . . وكان أول من دخل الديوان ووجد ملفا صغيرا على مكتبه . كان ملفه الشخصى فطار قلبه فرحا . . وتصور أن فى الملف كتاب الترقية . .

وتجمع حوله الموظفون . .

وفتح الملف بلهفة وقرأ . .

«نظرا لصالح العمل قررنا نقلكم إلى مكتب صحة القرين . .»

كانت ناهد من أعز صديقاتى كانت صغيرة ويتيمة ومشرقة ، وضاحكة كالشمس وحلوة ندية كورد الربيع .

كانت والدتها تسكن فى بيتى فى غرفتين صغيرتين على السطح ، وكانت فقيرة تعيش عيش الكفاف وقد توفى زوجها ، وبقيت تعيش على ذكراه عفيفة طاهرة . . برغم ما نزل بها من محن . . ورفضت الزواج مع أنها كانت شابة لتربى ابنتها ناهد ولا تذلها .

وكانت ناهد تمضى معظم وقتها فى شقتى تلعب مع أولادى .

وكانت أكثر الأطفال حركة ومرحا . وكانت مثال الطفولة البريئة الحلوة . وكانت تخرج معى كل صباح إلى المدرسة . . وتظل تتحدث فى الطريق فى مختلف الشئون . وكنت ألاحظ أن عقلها أكبر من سنها وعواطفها أكبر من جسمها ، وكنت أسر لهذا النضج المبكر .

وفرغت ناهد من دراستها الثانوية واستكملت أنوثتها ، وأشرقت وسامتها وخافت أمها من الفتنة والغواية فى الطريق فاحتجزتها فى المنزل فى انتظار عريس لها . وكان منتهى آمالها أن تزوجها وتجنى ثمرة غرسها طوال هذه السنين ولكن القدر عاجل الأم قبل أن تتزوج الفتاة وأصبحت ناهد وحيدة ، ولا عائل لها فى الوجود فضممتها إلى كنفى ، وعاشت تحت سقف بيتى مكرمة معززة فقد كنت أحبها أكثر من فلذات كبدى ، وكانت قد ورثت عن أمها الهدوء والجمال والدعة .

وأخذت أسعى لأحقق أمنية أمها فأزوجها وهى فى هذه السن المبكرة وكان لى قريب فى مثل سنها فعرضته عليها . فأطرقت خجلا ثم قالت «عاوزه أشوفه» ورأته فلم يعجبها . . وصرفت الشاب بالحسنى . . وجاء شخص آخر فرفضته كالأول . . وتقدم لها رجل كان يعرف والدها فهزت رأسها رافضة . . وعجبت لكل هذا الصدود . . وقلت لنفسى لا بد أن الفتاة تخص أحدا من الناس بعواطفها ، وترفض الباقين لهذا السبب . . وحدثت زوجتى لتحادثها وتعرف سرها .

وجاءتنى زوجتى فى المساء ، وقصت على خبر الفتاة .

أخبرتنى أن ناهد تحب فعلا ، وتحب ممدوح أفندى . . وممدوح هذا شاب عاطل يسكن فى الدور الأرضى من المنزل . ويدفع الإيجار شهرا ويعجز عنه شهورا . وهو شاب تافه خامل كسول لا عمل لـه . . يستيقظ فى الساعـة العاشـرة صباحـا ليأكـل إن وجد طعاما . . ثم يعود إلى النوم ثانية ويستيقظ بعد العصر ويجلس قرب النافذة بعد أن يسرح شعره ويدعكه ويأخذ فى الغناء وهو ينظر إلى السيدات المارات فى الطريق والمطلات من الشرفات . . فإذا غربت الشمس خرج وجلس على باب حلاق فى الشارع إلى ساعة متأخرة من الليل . . فإذا أغلق الحانوت أبوابه ذهب مع إخوان السوء ـ إن كان فى جيبه نقود ـ إلى ماخور من المواخير . . فإذا كان مفلسا رجع إلى البيت وأمسك بعود وأخذ «يدندن» .

ليس بعد هذا من تفاهة ومع هذا كله فقد أحبته ناهد فكيف أفعل ؟ .

تقدم إلى طالبا يد الفتاة وظلت ناهد طوال الليل تبكى . . وبقيت أسبوعا كاملا لا تأكل ولا تشرب حتى خفت عليها من الهلاك ومع هذا فلم أضعف وظللت رافضا . . ولكنه احتال عليها وأخذها إلى المأذون وتزوجها برغم أنفى .

وبعد شهرين من الزواج هجرها . . ولا تدرك أين ذهب ، وكانت خجلى من فعلتها فلم تشك لأحد وظلت صامتة سـاكنة . وذبـل جسمها وجف عـودها وعصـرتها الآلام عصرا .

ثم ظهر ممدوح فجأة كما اختفى فجأة . . وفى غمرة سعادتها بعودته لم تسأله أين كان ولماذا يتركها وحيدة ؟ لم تسأله عن شىء من هذا وإنما ارتمت فى حضنه وأخذت تبكى . . بكاء الفرح .

ولم يدم فرحها طويلا . . فبعد أسابيع قليلة رأيتها جالسة مع زوجتى وكانت تبكى ! فقد طلقها ممدوح . . ورجعت إلى بيتى وعاشت كما كانت من قبل أن تتزوج مكرمة محبوبة من الجميع .

ولكنها كانت لا تفتأ تسأل عن ممدوح وتتقصى أخباره . .

وكانت تخرج لتبحث عنه وقالت لى ذات يوم إنها رأته فى سيدنا الحسين وأنه نحف وهزل . .

ـ مسكين . .

ولم تقل لى إنها أعطته كل ما معها من نقود فى ذلك اليوم لأنها خافت أن أثور عليها .

وفى أصيل يوم رأيت ممدوحا يدخل المنزل . . وقابلته ناهد ولم يمكث معها أكثر من خمس دقائق . . وذابت تحت تأثير نظراته وخرجت معه إلى مكتب المأذون ورجعت زوجته !

وبعد أيام قليلة سرق حليها واختفى . . فقلت لناهد وأنا أتميز غيظا :

سأبلغ البوليس . . ولأنى أعرف أنك ضعيفة . . فسأقول إن الحلى ملك لزوجتى . . ؟

- وتسجنه . . ؟

- طبعا . . وهل يصلح أمثاله إلا السجن . .

وهممت بالخروج . . فتعلقت بثوبى وأخذت تتوسل وتبكى ، وتقول فى خلال دموعها :

- ليه . . حرام عليك . . دا مسكين . .

ونسيت حليها . . ونسيت بؤسها . . ونسيت مصيرها . . وفكرت فيه فقط .

ولما فرغ جيبه من النقود . . عاد وظهر فى أفق حياتها مرة أخرى واستقبلته بالعناق والغفران ثم عاوده الحنين إلى التشرد والبوهيمية فترك المنزل وبعث لها بورقة الطلاق .

ونزل عليها الخبر فى هذه المرة نزول الصاعقة وأذهلتها الصدمة . . فأصيبت بالشرود ثم أفاقت ورجعت إلى نفسها وأخذت تلعنه وتسبه :

-أنا . . أرجع إلى هذا الصعلوك ؟! أبدا ما دمت حية على ظهر الأرض . . أرجع إلى هذا المتشرد . . أبدا هذه آخر مرة ، كيف كنت عمياء ، كيف كنت مغفلة . حتى أرضى به زوجا . . أتزوج متشردا . . سكيرا حقيرا يقضى النهار والليل نائما ولا يقوم بأى عمل فى الحياة . . الحمد لله الذى رحمنى من ذريته . . وإلا كانت الطامة الكبرى ، ومات الأطفال جوعا وهم فى المهد كيف يعيش مثل هذا الصعلوك . . كيف يعيش ؟ ومن الذى يطيق عشرته . . من . . من . . ؟

ومرت شهور وكانت ناهد خلالها هادئة مستريحة البال وخيل إلى أنها تخلصت من ذلك السرطان إلى الأبد .

ورجع ممدوح إلى بيته ولكنها ظلت بعيدة عنه فلم تنزل إليه ولم يصعد إليها . . وسررت لهذا جدا . .

ثم رأيتها ذات يوم وأنا داخل البيت خارجة من شقته . . فذهلت واضطربت ، وضبطت أعصابى وسألتها فى هدوء :

- كيف تفعلين هـذا ؟ . . تعاشـرينه وأنت مـطلقة ؟ . . لقـد كانت أمـك مثـال الطهر . . كيف يحدث هذا . . ؟

فصمتت ونكست رأسها . . ثم رفعت أهدابها وقالت بصوت خافت :

- ولكنى لست مطلقة . .

- رجعت مرة أخرى إلى هذا الصعلوك التافه ؟

- أجل وأنا أحبه لهذا . . أحبه لأنه صعلوك تافه . . متشرد . .

فى منزل المقـــامر

جلست أمينة فى شرفة منزلها تتطلع إلى النجوم البراقة فى ليلة حالكة الأديم ، وكان الوقت صيفا والجو لايزال حارا برغم أن الليل قرب من منتصفه .

وكانت قد استراحت على كرسى طويل ومدت رجليهـا ، وأغلقت عينيها محـاولة النوم . . ولكن هيهات أن يأتيها النوم وفى بيتهم كل هؤلاء الرجال الغرباء الذين يلعبون القمار مع والدها ووالدتها فى غرفة الطعام . . ويظلون فى لعبهم وصخبهم إلى الساعات الأولى من الصباح . . فى بعض الأحيان ينام منهم اثنان أو ثلاثة فى البيت . . كانوا يأتون كـل ليلة . . وبعضهم كان يصحب معـه زوجته . . وكـانوا يتنـاولون طعـام العشاء ، ويشربون الخمر عن الطعام . . ثم ترفع مائدة الطعام وتوضع مائدة القمار . . وتستمر اللعبة المجنونة دائرة إلى الصباح .

وكانت أمينة تحاول أن تبتعد بكل نفسها وجسمها عن هذا الجو فتجلس فى الشرفة وحيدة . . ولكن والدها كان يطلب فى كل ساعة قهوة . . فكانت تذهب إلى المطبخ وتصنع لهم القهوة لأنه ليس فى البيت سوى خادمة صغيرة تنام من الغروب . وكانت تدخل عليهم حاملة الصينية وتوزع «الفناجين» فمنهم من يشكر ومنهم من يكون لاهيا عنها بما فى يده من أوراق اللعب .

وكانت تشعر بانقباض شديد وهى داخل الغرفة ، وقد تعـاقدت سحب الـدخان الأزرق فى جوها ، وبدت منافض السجاير وزجاجات الخمر والكئوس الفارغة . . متناثرة على المائدة . . وكانت تتنفس الصعداء عندما تعود إلى مكانها من الشرفة .

وكانت أختها الصغرى ثريا لاتزال طالبة . . وكانت أمينة تحرص دائما على راحتها وتغلق عليها غرفة صغيرة فى البيت لتنام وتستذكر فيها . . ولكن الفتاة كانت لاتستطيع أن تستذكر فى هذا الجو . . فكانت تترك منزلها وتعود متأخرة وكانت أمينة تقوم بعمل البيت كله . . فأمها مشغولة بالقمار وأختها ثريا مشغولة بدروسها .

وكانت أمينة أول من يستيقظ فى البكور . . فاذا مشت فى البيت تجد واحدا نائما على الكرسى فى الصالة . . وآخر ممددا على حشية فى غرفة الطعام وثالثا يضع رأسه بين يديه وقد اعتمد بمرفقيه على المائدة وأغلق عينيه وراح فى سبات عميق .

وكانت تنتظر أن يستيقظ هؤلاء الرجال الغرباء . . ويبرحوا المنزل ثم تأخذ فى تنظيف البيت من آثارهم . .

وبعد الظهر يصحو والدها . ويأخذ فى طلباته المتكررة . . شاى اسبرين . . شاى . . اسبرين . شاى . . ثم تنهض والدتها بجسمها المكتنز ووجهها المستدير وقامتها القصيرة . . وتأخذ فى مساعدة ابنتها فى وضع طعام الغذاء على المائدة . وتجلس الأسرة حول المائدة وتأكل فى صمت وكانت أمينة تنظر إلى والديها فى اشمئزاز . . وكانت نظرتها أشد كرها إلى والدها فهو الذى جرأ والدتها على أن تجلس مع هؤلاء الرجال الغرباء وتلعب القمار حتى نسيت شئون البيت ونسيت نفسها وانساقت إلى الهاوية .

ويشرب الأب القهوة . . وتأخذه نوبة سعال حادة . . فيطلب جرعة من الدواء . . ثم يأخذ فى الشجار مع زوجته لأنها كانت السبب فى خسارته الليلة الماضية . . لأنها منحوسة . . ولأنها غبية . . ولأن نهارها كليلها كله سواد فى سواد . .

وفى الغروب تتزين ثريا وتخرج . . ولا أحد يسألها إلى أين ذاهبة ! . وبعد الليل تعود .

وكان شر مايصيب أمينة أنها لاتستطيع أن تنام ليلة واحدة فى فراشها ! كانت حجرتها مشغولة دائما . . وكان النعاس يأخذها وهى جالسة فى الشرفة فاذا أحست بالتعب الشديد انتقلت إلى أريكة فى الردهة ونامت إلى الصباح .

ولم يكن والداها يحفلان بها ولا كانا يحرصان على شىء فى البيت سوى ورق اللعب ومائدة القمار .

وكانت تحزن لأن أختها ثريا تتأخر فى العودة من الخارج ، وقد ترك لها الحبل على الغارب . .

وكانت ثريا تكذب وتنتحل الأعذار لتأخيرها . . ولكن أمينة لم تستطع أن تفعل شيئا لأن والدها قد نفض يده . . ولم يعد يعنيه اى شىء يتعلق ببناته .

وكان لها أخت ثالثة أكبر ومتزوجة . . ولكن زوجها منعها من زيارة هذا البيت المنحط ، ومنع والديها من دخول بيته .

وكانت أمينة تعرف أن أمها انزلقت وجرفها التيار . . وأختها ثريا تقف على حافة الهاوية . . أما هى فلا تزال بعيدة عن الدنس برغم كل ما يحيط بها من أخطار . وبرغم ما فى جو حياتها من يأس . . فقد كبرت وتعدت سن الزواج . .

وذات ليلة جلس اللاعبون حول المائدة الخضراء كالعادة . . واستمر اللعب الى الهزيع الأخير من الليل . . حتى انقطعت المواصلات فى تلك الضاحية . . منشية البكرى . . وطويت المائدة ونام اللاعبون حيثما اتفق على الأرائك ، والمراتب المفروشة على الأرض . . وعلى البساط .

واستيقظ مدحت وهو أحد اللاعبين المترددين على المنزل ومن أصدق أصدقاء الوالد ، وكان شابا فى الأربعين من عمره طويل الجسم وثيق التركيب وفى وجهه آثار جرح قديم وكان من أكثر الموجودين حماسة للمقامرة وأشدهم خسارة . .

استيقظ وهو شاعر بالعطش ، فنهض واتجه إلى دورة المياه ليشرب من الثلاجة ، وكان يعرف مكانها . . وأشعل نور الردهة ورأى وهو يجتازها أمينة نائمة . . على أريكة هناك . . وكانت مستغرقة فى النوم . . وقد ارتدت قميصا أبيض . . انحسر عن الساقين والذراعين والنحر العاجى ورماها بنظرة عابرة ثم دخل المطبخ . وشرب وخرج وعبر الممشى . . وعندما بلغ الطرقة توقف . . واستقرت عيناه على الفتاة النائمة . . وأحس بمثل التيار الكهربى يسرى فى جسمه . . ووجد يده تزحف على الحائط وأغلق النور ، ووقف فى الظلام يتصورها فى مكانها من الفراش . . وقد خيم السكون واشتد الظلام واستغرق جميع من فى البيت فى النوم العميق .

كان يرى أمينة ذاهبة آيبة فى البيت وكلها أنوثة وفتنة ولكنه كان فى شغل عنها بالشىء اللذيذ الذى يستغرق حواسه كلها ويأسرها بالقمار . . أما الآن بعد أن فرغ من القمار فقد شعر بمثل النار تسرى فى ألياف لحمه .

واقترب منها . . وتحسس بيده ذراعها العارية . . ثم انحنى ووضع فمه المخمور على فمها فتنبهت الفتاة مذعورة . . وحدقت فيه فى الظلام . . وكادت تخرج من فمها صرخة . . ولكنه وضع يده على فمها وطوقها وهمس :

-أنا مدحت . . والكل نايمين وستفضحين نفسك . .

- يا مجرم . . ياكلب . . سيبنى . .

- من زمان . . وأنا أتمنى هذه اللحظة . . من زمان .

- يا مجرم . . سيب . . حاقول لبابا . . يدبحك . .

- بابا . . هيه . . هيه . . أنت حسنة الظن خالص . . إنه يبيعك بريـال واحد ليلعب به القمار . .

واشتد ضغطه عليها فقاومته بعنف . . وأمكنها أن تتخلص منـه وصرخت بـأعلى صوتها . .

واستيقظ من فى البيت وهرعوا إليها . . ووجدوها واقفة بجوار الفراش وقد تمزق قميصها . وإلى جانبها مدحت منكس الرأس ووجهه ناطق بفعلته .

ونظر والدها إليها وإلى الرجل ولم يقل شيئا كان يتصور أن كل شىء يمكن أن يحدث فى البيت إلا هذا . . فلم يخطر له قط على بال . . ووقف شاردا مصعوقا لحظات وعيناه تحدقان فيما حوله ولكنه لايبصر بهما شيئا . . ثم انسحب من مكانه ودخل غرفته وأغلق بابه .

وتسلل الرجال الغرباء إلى الخارج فى سكون دون أن ينطق واحد منهم بحرف .

وخيم سكون القبر على البيت مرة أخرى ومضت دقائق . . ودقائق ثم سمع دوى رصاصة فى الغرفة المغلقة .

وسمع بعدها سكان الحى صياح الأرملة وبناتها على الرجل الضائع

سارق النساء

عدت إلى «كونستنزا» بعد رحلة قصيرة فى الدانوب وذهبت إلى الكازينو القائم على جسر البحر كعادتى فى كل ليلة . فقد كان هو الملهى الوحيد فى المدينة الذى يباح فيه القمار بكل ضروبه وأشكاله كما كان ملتقى الحسان من غانيات الدانوب ، وفاتنات بخارست .. وفينا ووارسو . . فى ذلك الفصل من السنة ، ولم أكن أذهب إلى الكازنيو لأقامر . . وإنما كنت أذهب لأشاهد صرعى هذه اللعبة الجهنمية . . الروليت . . وأجد السبيل إلى الاختلاط بالفتيات اللواتى يعز على لقاؤهن فى غير هذا المكان .

ووقفت على مائدة من موائد الروليت . . أرقب العجلة الدوارة وأتكهن فى صوت كالهمس بالأرقام الرابحة . وفى معظم المرات كانت تصدق فراستى . فتحولت إلى الأنظار ، وتقدم إلى شاب كان يقف حول المائدة مثلى فى اللعب وسألنى بلهجة الرجل المؤدب :

- لماذا لا تقامر . . مادمت تتكهن بالأرقام الرابحة دائما . . ؟
- إننى لا أحب القمار .
- ألم تجرب حظك . . ؟
- أبدا . .
- لو لعبت لاستهويت من ترى حولك من النساء الفاتنات فلا شىء يأخذ بلب المرأة كالرجل المقامر .
- فى هذه الحالة سأغدو مقامرا . . وسيصيبنى النحس الذى يلازم المقامرين عادة .
- هذا صحيح إلى حد بعيد ولكن جرب حظك مرة . .

وأخرجت ورقة بخمسمائة لاى ووضعتها على رقم ٧ وربح الرقم ثلاث مرات متتاليات ، وقلت لصاحبى وأنا أضع الأوراق المالية فى جيبى :

- يكفينى هذا الليلة . .

وظل فى مكانه مدة . . ثم مضى إلى مكان آخر فى القاعة .

ولاحظت أنه حسن الهندام أنيق المظهر متئد الخطى . . وكان طويل القامة جميل المحيا . .

ولما دخلت قاعة الرقص عند منتصف الليل وجدته هناك . وكان يرقص مع أجمل من رأيت من النساء . وكانت المرأة واضعة رأسها على صدره وعيناها مغمضتان كأنها فى غيبوبة . وهو يدور بها فى كل اتجاه . ولما اقترب منى وأنا جالس وحدى حيانى بإيماءة خفيفة من رأسه . . وابتسامة مشرقة من فمه . . فرددت التحية وعيناى لا تفارق السيدة التى تراقصه فقد كانت تحلى جيدها بعقد من الجواهر النادرة . . وأنا مولع بهذه الجواهر أكثر من أى شىء فى الحياة ، وكنت أود لو أدعوها للجلوس معى لأفحص هذا العقد عن قرب وأتبين ما فى صنعه من روعة . . ولكن بعد أن كفت الموسيقى عن العزف وانتهت الرقصة . . خرج بها من القاعة وغاب فى أروقة الكازينو .

وفى صباح ذات يوم بينما كنت أهبط درجات الفندق رأيته يغادر غرفة فى نهاية الطرقة . . فأدركت أنه يقيم فى الفندق نفسه . . وأصبحت أراه بعدها فى الكازينو . . وفى بلاج (ماميا) . . وفى كارمن سيلفيا . . وكنت أشاهده كل يوم بصحبة حسناء جديدة .

وفى ليلة من الليالى لعب الروليت فى الكازينو وخسر كثيراً . . ولكنى لاحظت أنه لم يبتئس . . وكان يضحك كعادته ، ويرقص مع فتاة نمساوية من المضيفات الجدد . . ولما انتهى الرقص خرج بها إلى الفندق .

وبعد يومين شاهدته وأنا جالس فى شرفة الفندق داخلا من الباب الدوار . . ولما لمحنى أقبل نحوى باسما . . فسلمت عليه ودعوته للجلوس فجلس وشرب القهوة . . وأخرج علبة ذهبية أنيقة وقدم لى سيجارة . . فأشعلتها وسألته :

ـ السيد رومانى . . ؟

ـ مجرى . . من بودابست . . ومن بودا بالذات . . ولكننى تركتها منذ عشرين عاما فى غير رجعة . . ولست من الآسفين . . على بودا . ولا بست ، إننى الآن جواب آفاق . . وربما أقمت فى هذا الفندق ليلة واحدة . . وغدا أرحل . . إلى نيس . . إلى مونت كارلو . . إلى تريستا . . إلى أى مكان أجد فيه الخمر والنساء . .

ـ ألم تذهب إلى الشرق . . ؟

ـ مع الأسف لا . . ومن الصعب على أن أذهب لأنى لا أعرف لغتكم

ـ ألا تكفيك المشاهدة . . ؟

ـ لا . . فإنى أود دائما أن أصل إلى أعماق الأشياء . . وعلى فكرة أتمكث هنا طويلا . .

ـ سأسافر بعد أسبوع .
ـ ألا تود أن تبتاع هدية جميلة لزوجتك . . ؟
ـ إنى غير متزوج .
ـ لصديقتك إذن . .

ووضع يده فى جيبه وأخرج عقدا من اللؤلؤ . . ولاحظت أنه العقد نفسه الذى شاهدته فى عنق السيدة التى كانت تراقصه منذ أيام . . فأدركت أننى أمام لص خطير من لصوص الفنادق . . يستغل وسامته ووجاهته ليوقع فى حبائله من يشتهى من النساء . .

فقلت له فى هدوء وعيناى لا تتحولان عن العقد :

ـ إننى آسف فليس لى صديقة . . ولا حبيبة . . ولا أستطيع أن أبتاع هذه الأشياء الثمينة .

ـ أنت كريم . . وأنا لا أشتط معك . .
ـ آسف فلست فى حاجة إليه إطلاقا .

إذن خذه رهينا . . وأعطنى عشرين ألف لاى . . وسأردها لك بعد غد . . فأنا فى انتظار تحويل على البنك . . .

فأخرجت محفظتى وأعطيته المبلغ ورفضت أن آخذ العقد كرهين .
وقلت له :
ـ خذ المبلغ كقرض ورده حين تشاء . .

فشكرنى بحرارة ووضع المبلغ فى جيبه . . وأعدت محفظتى إلى مكانها ولاحظت أنه ينظر إليها جيدا كأنه معجب بشكلها !!

وذات ليلة رأيت نزيلة جديدة فى الفندق . . وكانت جميلة باسمة الثغر وتقيم فى غرفة ملاصقة لغرفتى فسعيت إلى معرفتها . . وعرفتها وكانت بولندية وأخذتها معى إلى الكازينو . . وبعد منتصف الليل عدنا إلى الفندق وأمضت معى ما بقى من الليل فى غرفتى وفى الصباح الباكر خرجت . . ونمت إلى الضحى ونهضت وأنا شاعر بنشوة المغامرة التى مرت بى . . وأخذت أرتدى ملابسى ولاحظت وأنا أضع يدى فى جيب سترتى . . ضياع المحفظة . . فأدركت أن الحسناء البولندية سرقتنى .

وخشيت الفضيحة فكتمت الخبر وأنا أفكر فى مخرج . . من هذا المأزق . .

فكرت فى أن أذهب إلى القنصلية المصرية وأقترض مصاريف السفر وأرحل عن هذه البلاد . . أو أن أطلب مبلغا من القاهرة بالتلغراف . . وأخيراً رأيت أن ألجأ إلى صديق فنلندى التقيت به فى إستامبول وجاء معى إلى كونستنزا ويقيم فى فندق قريب من المدينة فلما

ذهبت إليه علمت أنه سافر إلى بوخارست وأنه سيعود بعد يومين . ورأيت الانتظار إلى أن يعود . . ولا شيء يدعونى إلى القلق مادمت أكل وأشرب فى الفندق . . وأدفع الحساب فى نهاية المدة ويكفى ما فى جيبى من عملة فضية وبرنزية للجلوس على المقاهى المتواضعة فى المدينة إلى أن يأتى الله بالفرج .

ومر يوم . . ويوم آخر . . وأخذ القلق يعاودنى . . وجلست فى شرفة الفندق وأنا شاعر بالكرب . . ولمحنى المجرى فأقبل نحوى وعلى فمه ابتسامته المعتادة . . فقلت فى نفسى إن هذا الأفاق جاء ليطلب منى مبلغا آخر وقد أغراه كرمى الشرقى على ذلك . . وجلس وشرب القهوة وأخرج علبته الذهبية وقدم لى سيجارة فتناولتها وأنا صامت . وأخذ هو يدخن وينظر إلى الدخان الأزرق المتعاقد عند رأسه . . ثم يحول نظره إلى . . دون أن يتكلم . . وأخيراً فتح فمه وقال :

هل يسمح لى السيد مراد بأن يقرضنى عشرين ألف لاى أخرى . . وسيأتينى المبلغ غداً . . وأرد له نقوده جيعا وأنا له من الشاكرين . . فنظرت إليه فى غيظ . . وعجبت كيف عرف هذا الأفاق إسمى . . وكرر طلبه .

فقلت له فى هدوء :

- آسف . . ليس معى ما أعطيه لك . . وأنا غريب كما ترى . .
- إذن أعطنى عشرة آلاف فقط . .
- ولا ألف . . آسف جداً . .
- لقد تغيرت . . ويبدو عليك أنك مستاء . . ولماذا . . ؟

فصمت ولم أجب . . ونظر إلى مبتسما مدة طويلة . . ثم وضع يده فى جيبه . . ووضع شيئا على المائدة وقال :

- تفضل . .
- ماذا . . ؟
- محفظتك . .

وتناولت المحفظة ووجدتها محفظتى بعينها وعليها اسمى منقوشاً بماء الذهب وفتحتها فوجدت أن جميع ما فيها من أوراق مالية كما هو لم يمس . .

ونظرت إليه فى إعجاب !!

وقال وهو مزهو بعمله :

- كان لا بد أن أرد لك المعروف على أى وجه من الوجوه . . وأظننى الآن راضيا عن نفسى .

وتركنى ونهض . . وشيعته بنظرى وهو يسير متئدا بقامته ووجهه الوضاح الذى يفتن النساء . .

حدث ذات ليـــلة

حدث ذات ليلة من ليالى الصيف فى عام ١٩١٩ وكانت الثورة المصرية مشتعلة فى طول البلاد وعرضها أن نشبت المعركة بين المصريين والإنجليز فى مدينة أسيوط . . وبدأت بإطلاق النيران على معسكرات الإنجليز عند الخزان . واحتملت قرية «الوليدية» وهى قرية صغيرة مجاورة للخزان كل أعباء المعركة . على أن القرى المجاورة لم تتركها وحدها بل أرسلت اليها أحسن رجالها الشجعان .

كان الرجال يأتون إليها من كل صوب على ظهر المراكب الشراعية الصغيرة والكبيرة . ويخوضون غمار المعركة مستبسلين .

وكنا نحارب كما يحارب الثوار فى غير نظام ولا قيادة . . ومع هذا فقد فكرنا فى أن نفعل ما يفعله المحاربون فى الميدان حقا . فكرنا فى أن نقطع الخط الحديدى عند قرية «منقباد» لنمنع المدد والمؤ ن عن الأعداء وبذلك نميتهم جوعا .

واجتمع فى قرية صغيرة على الضفة الشرقية للنيل أكثر من خمسمائة رجل من مختلف القرى مسلحين بالبنادق القديمة والحديثة والخناجر والعصى والحراب ومعهم خيولهم وجمالهم وحميرهم .

ونحرت لنا الذبائح . . وجلست نتناول العشاء فى العراء على « الطبالى » خمسة . . خمسة . . وكنا نتحدث فى حماسة بالغة ، ونلتهم الطعام على ضوء المشاعل . ونسمع صهيل الخيل وهدير الفحول . . . وعواء الكلاب فى القرية وكنت أرى عيون الرجال تبرق فى الظلام . وأشاهد فى دائرة الضوء لحاهم وشواربهم الضخمة وأجسامهم الطويلة . . وكانوا يرتدون الجلابيب السمراء والزرقاء ويعصبون رءوسهم . . ويتمنطقون بالأحزمة الجلدية المليئة بالرصاص والخرطوش .

وكانوا يمسون أفواههم بأطراف اكمامهم ، ويشعلون لفائف التبغ ويشربون القهوة . . ويتحدثون عن الليل والرجال .

وكنت مأخوذا بسحر حديثهم وبقوة شخصيتهم . وبجبروتهم الذى لاحد له . كان أكثرهم من الرجال الشجعان الذين يقطنون فى الجبل الشرقى وقد نشئوا احراراً أشداء .. يأبون الضيم ويدافعون عن العرين . وعندما وقف واحد من الطلاب وأخذ يتحدث عن الاستعمار والبلاء الأسود النازل بالبلاد رأيتهم ينصتون فى سكون ، وعيونهم تلمع ووجوههم منفعلة من فرط الغضب . ثم أخذوا يعمرون البنادق ويشحذون الأسلحة !! .

وتركنا الخيل والجمال والحمير مع الغلمان . . . وعبرنا النيل إلى الضفة الغربية وهناك انقسمنا إلى فرق صغيرة اتجه بعضها إلى الخزان . . وذهبت مع فرقة مكونة من ثمانية عشر رجلا من الرجال الأشداء إلى «منقباد» لقطع الشريط الحديدى وكنت على رأس الفرقة . وسرنا حذاء النيل على الرمال الناعمة . . وكان الليل فى أخرياته والظلام شاملا والسكون رهيبا ثم انحرفنا عن الطريق السوى وسرنا وسط الحقول . وكانت السماء كابية والريح تزأر فى أخصاص «البوص» التى مررنا بها . . ولما صعدنا المنحدر واقتربنا من الخط الحديدى بدأ صوت أقدامنا يسمع بوضوح فى هذا السكون العميق . وتقدمنا فى قلب الليل ولما بلغنا الجسر كان الشريط يلمع ملتويا فى الظلام . وكانت أعمدة البرق وأسلاك التليفون تهتز والريح تصفر فى جنبات الوادى المقفر . وعندما أخذت أرجلنا تضرب الحصى الذى يتخلل القضبان شعرت بعظم المهمة الملقاة على عاتقى وانتابتنى الرهبة . . وأخذت المكان بنظرة خاطفة وأعطيت الإشارة للرجال . . وبدأت المعاول تعمل وبعد قليل فرغنا من مهمتنا وقفلنا راجعين .

تفرقنا فى قلب الليل كالذئاب بعد أن تنفض مخالبها من الفريسة . وسرت وحدى وسط الحقول . وكان الليل ساكنا وأشجار النخيل تخيم من بعيد على قرية «الوليدية» وتغرقها فى لجة من الظلام الشديد ، وكانت الكلاب لا تزال تنبح فى الحقول . . والديكة تصيح فى أكواخ الفلاحين معلنة طلوع الفجر . . وعندما بلغت طرف القرية الشمالى شعرت بالجوع والنعاس فتمددت فى ظل شجرة كبيرة من أشجار السنط . . وأخذنى النوم واستيقظت على دوى الرصاص . . وكان اليوم الثالث للمعركة بيننا وبين الإنجليز . . فذهبت إلى الميدان وظللت أقاتل حتى المساء

وفى اليوم الخامس ظهرت طائرة فى السماء . . وأخذت تلقى القنابل على غير هدف . . وذعر الناس ولم يكن لنا بها عهد . . وحملنا بنادقنا فى أيدينا وأخذنا نهيم على وجوهنا فى الأرض . وأخذت المراكب الشراعية تعود بالمحاربين إلى ديارهم . . وكان الوجوم والتعس والخيبة المرة ، مرتسمة على الوجوه ، وكنا نحن الشبان الأشداء نغلى غيظا فلم نكن ندرى علة هزيمتنا . لقد بدأنا المعركة كجنود من الطراز الأول وعندما كففنا عن النار خيل إلينا أننا قد انتهينا . . ولكننا مع هذا لم نلق السلاح .

وخمدت الثورة فى القاهرة وأرسل الإنجليز فرقة جديدة إلى أسيوط وكانت ترابط عند الخزان فى حدائق كبيرة هناك . . وكانوا يخرجون من معسكراتهم فى الليل سكارى ويشتبكون فى عراك مع الأهالى .

وكنت قد هجرت قريتى وأخذت أمضى الليل فى بستان صغير قريب من «الوليدية» لأن الإنجليز انطلقوا يفتشون القرى فى الشرق ، باحثين عن الأسلحة ورجال الثورة .

وذات ليلة جلست كعادتى فى البستان . وكان بجواره طريق صغير ينحدر إلى النيل ومنه تنزل الفلاحات لملء جرارهن . . وكن يحملن الجرار على رءوسهن وينزلن إلى الماء . . ويشمرن عن سواعدهن ويرفعن أطراف ثيابهن ، وتبدو سيقانهن البلورية وهى تغوص فى اللج . . وعندما يملأن الجرار ويطلعن على اليابسة يتركن ثيابهن تنسدل وشعرهن يهتز فى ضفائر على ظهورهن . والخلاخيل الفضية فى السيقان الممتلئة وهن صاعدات المنحدر .

ومر فى الطريق بعض الجنود الإنجليز . . . وأخذوا فى معابثة النساء الخارجات من الماء . . وطار هؤلاء مذعورات وتركن الجرار تسقط وتتهشم ، وأمسك واحد منهم بواحدة من يدها ورأيته يعابثها وهم بتقبيلها وهى تصرخ وتستغيث ، وتملكنى غيظ مستعر وأنا أشاهد هذا المنظر ، وتجمع الأهالى واشتبكوا فى عراك دموى مع الإنجليز ورأيت أحد الجنود يخرج مسدسا ويطلق النار كالمجنون . . وكان الأهالى عزلاً من السلاح . . فأخرجت بندقيتى من مكمنها . وسددتها وسقط . . . . وأطلقوا النار فى كل اتجاه . . فأصابتنى رصاصة فى ساقى ولكننى تحاملت على نفسى وزحفت فى الظلام .

وفرغت الشوارع من المارة بعد دقيقة واحدة . . وخيم سكون القبور على كل شىء وأخذ الظلام يشتد ، وسمعت وأنا ممدد فى مكمنى حركة فى طرف البستان . ثم ظهرت عن بعد دورية إنجليزية تفتش فى كل مكان وبدا لى أنهم أخذوا يطوقون البستان . . فأسرعت وربطت ساقى بقطعة من القماش نزعتها من ثوبى بعد أن حشوت الجرح بالتراب . . وزحفت فى حذر . . ودارت عيناى فيما حولى تبحث عن ملجأ فى هذا الظلام . وشاهدت منزلا صغيرا على النيل فاتجهت نحوه وأنا مدفوع بقوة لا قبل لى بها . .

ودفعت الباب ودخلت . . وسمعت صوتا نسائيا يقول :

– مين . . ؟

– أنا . .

ورأيت امرأة فى صحن الدار . . وكانت تلبس جلبابا أسود وعلى رأسها منديل أسمر . . ونظرت فى هلع وأنا داخل بيتها وبيدى البندقية وعلى وجهى الشر .

وقالت بصوت مرتجف :

ـ مالك . . ؟

ـ جريح . . وعطشان .

ودخلت ومشيت إلى الداخل دون أن تنبس ، وعادت بعد قليل «بكوز» فتناولته منها ورفعته إلى فمى مرة واحدة . . وسمعت حركة شديدةولغطا فى الشارع . . فانزويت خلف الباب وأمسكت البندقية فى يدى . وتهيأت لكل الطوارىء . ووقفت المرأة تنظر إلى من بعيد وهى مضطربة واجمة .

وسمعت طرقاشديداعلى الباب . . فلم يرد أحد . . وخيم السكون لحظات . . ثم سمعت من يقول بصوت عال :

دا بيت حميدة . . يا شيخ الخفر . . وهيا مسافرة . .

مسافرة . . ؟

أيوه . . مسافرة بحرى . . من مدة . .

وبعد الصوت . . خيم السكون من جديد فتنفست الصعداء ورجعت إلى صحن الدار وأنا أتحامل على نفسى وتمددت هناك . . ونظرت إلى المرأة طويلا ولم تقل شيئا . . فقلت لها :

- لا تخافى . . سأستريح قليلا ثم أذهب . . متى فرغوا من التفتيش . .
- ولماذا تخاف أنت . . ؟!
- البندقية . . وأنت تعرفين الأحكام العسكرية . .
- هاتها . . وأنا أخبئها فى مكان لا يعرفه أحد . .

فقلت لها وأنا أبتسم :

- إنها سلاحى . . وأنا لا ألقى السلاح . .

فهزت كتفيها ووقفت ساكنة وبعد قليل تحركت نحو الباب الخارجى .

فقلت لها بصوت هادىء :

- إلى أين ؟
- سأشترى بعض الأشياء من السوق . .
- مكانك . . لن تبرحى هذا البيت مادمت أنا فيه .
- إنك مجنون !

قالت هذا واحمر وجهها غضبا . . وظلت واقفة فى مكانها بجانب الباب ثم استدارت ومشت الى الداخل . وقد عاد إليها بعض الهدوء .

وقالت مبتسمة بصوت رقيق :
- ألا تعرفنى . . ؟
- أبدا . .
- أنا حميدة الغربية . . بياعة القماش . . وأنت من بنى مر . . وأنا أعرفك جيدا . . واسمك عبد الرحمن المرى . .
فذهلت . . كيف عرفت اسمى . . واستطردت :
- لقد ذهبت إلى منزلكم فى غرب البلد مرارا . . ألا تذكرنى . . ؟ وتذكرتها بخالها الأسود على خدها الأيمن . . وبعينيها العسليتين وابتسامتها الحلوة . .
- عرفتنى . . ؟
- أيوه . .
- سيبنى أطلع بره . .
- لأ . .

وجلست على الأرض أمامى . . وكان المصباح البترولى الصغير تهتز ذبالته وبريق الضوء على وجهها الصبوح ، وكان ثوبها الأسمر يلف جسمها الممتلىء ومنديلها يغطى جزءا من شعرها . وأخذنا نتحدث حتى مضى جزء كبير من الليل . وكنت أتصور أنها تمهلنى لأنام . . ومتى نمت خرجت ولهذا ظللت ساهـرا لاتغمض لى جفن . . وذهبت هى إلى فراشها . .

وفى الصباح ابتدرتها بقولى :

- حميدة . . هاتى مفتاح الباب الخارجى . .

فأعطتنى المفتاح وهى صاغرة ووضعته تحت رأسى .

ومكثت معها ثلاثة أيام . . وظلت محبوسة قلقة مضطربة وزادها الحبس اضطرابا وعصبية وكاد ما فى البيت من خبز وإدام أن ينفذ وجعلها هذا أكثر قلقا . . وكانت ترمينى بنظرات نارية وتبتعد عنى ما أمكن . . ولما نفد معين صبرها قالت بصوت خافت :

- أنا عارفة . .
- عارفة إيه . . ؟
- القاتل . .
وانتفضت . . ومضت تقول فى خبث ظاهر :
- لقد رأيته بعينى هاتين من سطح البيت . . وكان فى البستان .

وتحركت من مكانى أزحف على قدمى ، وعيناى ترميانها بنظرات ملتهبة واجتاحتنى موجة من الغضب جارفة عارمة . . عندما تبينت أنها تعرف سرى كله . . وأننى معلق فى حبل المشنقة ، وهى التى تمسك بيدها الحبل . . وإن شاءت جذبته وطوقت به عنقى . .

وأمسكت بقبضتها وجذبتها نحوى .

وقالت بصوت راعش :

– سيبنى يا مجرم . . سيب . .

ودارت يدى حول رسغها . . وشددتها إلى . . وكنت قد نهضت نصف قومة . . فدفعتنى بيدها إلى الوراء بقوة . . وقد تدحرجنا على الأرض فطوقتها بذراعى ، وأخذت أضرب وجهها وجسمها ضربا مبرحا ، وأخذت تبكى بصوت مكتوم وتضربنى ما وسعها الضرب .

واشتبكنا فى عراك طويل . . ولم تعد بى قوة على الإمساك بها فأطلقتها . . . فنهضت وعيناها مخضلتان بالدمع . . . وكان شعرها منفوشا ووجهها محتقنا . . ودارت فى صحن الدار كالمجنونة ثم بصرت بقالب فى (الكانون) فأسرعت ورمتنى به . . وحط القالب على صدغى وغبت عن الوجود .

ولما فتحت عينى كان الظلام يخيم . . . وكان الدم يلطخ وجهى وثوبى وكانت حميدة جالسة عند رأسى تمسح الدم بمنديلها ! ولما شعرت بأننى تنبهت حركت يدها فى لين ورفق على جبينى ، ثم أخذت تتحسس ذراعى وقربت وجهها من وجهى ونظرت طويلا فى عينى . . ثم ارتمت على صدرى ، وطوقتها بذراعى ورحنا فى عناق طويل .

ولما التأم الجرح وقويت على السير خرجت فى ظلام الليل وودعت حميدة وكانت فى لباسها الأسود وعلى رأسها منديلها وخرجت معى إلى الزورق الذى أعدته لى . .

ولما تحرك الزورق بى وقفت على الشاطىء تمسح عبراتها . . . فتحولت بوجهى عنها ، وأنا أغالب عواطفى واتجهت إلى الشرق . .

المايســترو

صعدت إلى الطابق الثانى من سينما ريفولى فى ليلة من ليالى الشتاء ، وكانت الساعة لم تبلغ التاسعة بعد ، فأخذت أتمشى فى البهو الخارجى وأنظر إلى الحسان الصاعدات فى السلم إلى الشرفات وهن فى حفل من الزينة . وكانت الليلة الثانية من ليالى فرقة فينا فيلها رمونيك ، وكان الزحام على أشده فقد كانت هذه هى المرة الأولى منذ سنوات التى تأتى فيها فرقة من هذا الطراز إلى القاهرة . . كما كانت الحفلة أحسن معرض للسيدات لعرض أزيائهن وأناقتهن فى هذا المجتمع الحافل .

وأخذت أروح وأجىء فى البهو حتى سمعت رنين الجرس المتواصل يؤذن بابتداء الحفلة فهرع الناس إلى القاعة ومشيت معهم . ورأيت وأنا داخل وجه رجل أعرفه يدخل القاعة من الناحية الأخرى فى مواجهتى واتجهت نحوه حتى اقتربت منه . ومددت يدى مسلما ووجهى ناطق بالسرور للقائه فقد كان زميلى فى المعهد الشرقى للموسيقى وأقرب الناس إلى وألصقهم بى فرفع إلى وجها صامتا كأنه ينكرنى . ثم عاد فتذكر ومد يسراه مصافحا وعلى فمه ابتسامة خفيفة ، وقال وهو يدقق النظر فى وجهى :

- لقد مضت سنون . . فاعذرنى إن أنكرتك .

فرحبت به وأعربت له عن سرورى الزائد بلقائه فى هذه الحفلة وقلت له بعد أن رأيته يجلس فى مكان بعيد عنى :

- سنتقابل فى الاستراحة . .

وجلست على مقعدى . . ورجعت إلى الوراء أتذكر لقد مضت سنوات حقا أكثر من عشرين عاما منذ تركنا المعهد الموسيقى معا . وذهب كل فى سبيله يشق طريقه فى الحياة . ولقد فشلنا جميعا كموسيقيين لأننا كنا نتصور أن الموسيقى ملهاة ، ولم تكن جذورها متأصلة فى نفوسنا

وكانت الفرقة قد بدأت فى عزف المقطوعة الأولى . . وكان النغم يتجاوب فى جنبات القاعة فيهز النفس ويستغرق الحواس .

ولما انتهى عزف القطعة وأضيئت الأنوار . . أسرعت إلى حيث يجلس صاحبى (أمين) وخرجنا من القاعة وأخذنا نتمشى فى البهو ونتحدث عن السمفونية الناقصة لشوبير . والسمفونية الخامسة لبيتهوفن التى ستعزف الفرقة قطعة منها فى هذه الليلة . . ثم تحدثنا عن استراوس وتلميذه كراوس أستاذ الفرقة التى تعزف الآن .

وقلت لصاحبى وأنا أمازحه :

- لقد كنت المايسترو لفرقتنا ولعلك لو مضيت فى الطريق لأصبحت كراوس آخر من طراز هذا الكراوس !

فنظر إلى وقد غامت عيناه قليلا وقال وهويشير إلى ذراعه اليمنى :

- ولكن المايسترو لا يستطيع أن يقود الفرقة بيده اليسرى !

فنظرت إلى ذراعه المتدلية بجانبه ، وصعقت من هول الصدمة وأدركت لماذا سلم على بيده اليسرى . فقد كانت ذراعه اليمنى مشلولة تماما . . ميتة لا حراك لها ولم أتبين ذلك إلا بعد أن حركت أشجانه وحز فى نفسى الأسى ، فحولت مجرى الحديث إلى شىء آخر غير الموسيقى . ولكننى كنت قد نكأت الجرح فأخذ ينزف ولم يكن إلى وقفه من سبيل .

فقد رأيت وجهه يعلوه الأسى وتكاد عيناه تدمعان .

فأمسكت بذراعه وأشرت إلى مقعد خال فى البهو وقلت فى صوت هادىء :

- تعال نجلس . . وندخن لأن التدخين ممنوع فى داخل القاعة .

وجلسنا . . وأشعلت له سيجارة . . ورأيت الدخان الأزرق يتصاعد ملتويا .

وسألنى وهو ينفض الرماد :

- ماذا تفعل الآن ؟
- لا شىء . .
- متعطل !

- لقد تركت الموسيقى إلى الرسم . . وأنا أرسم الآن بعض اللوحات وأعرضها ولكن من الذى يشترى !؟ أنت تعرف قيمة الفن فى هذا البلد !

- هذا جيل . .

وسألته وأنا أنظر إلى جانب وجهه :

- وأنت ؟

- إننى أعيش فى ضاحية من ضواحى القاهرة (الكوم الأخضر) فى الهرم . . وسط المزارع . وكأننى فى الريف . .

- أتزرع ؟

- شيئا أشبه بذلك . . ولقد سمعت عن الفلهارمونيك . . وجئت لأراها الليلة . وسأعود بعد الحفلة إلى بيتى . .

- ألا تبقى معى الليلة فى القاهرة وتعود غدا ؟

- آسف جدا . . فأعصابى لا تحتمل جو القاهرة ساعة واحدة . . أعذرنى . .

ودق الجرس فنهضنا .

وتقدم أمامى صاعدا الدرج ولاحظت ذراعه المشلولة جيدا وقد ألقيت بجانبه كشىء ليس من جسمه . . ورجعت أتذكره منذ عشرين عاما عندما كان يقف على المنصة فى مكان المايسترو . . ويمسك بالعصا الصغيرة ويقود فرقتنا المكونة من ثلاثة عشر غلاما فى سن المراهقة . . وكانت الحماسة تبلغ به أشده ، ويتصور أنه يقود فرقة كاملة مكونة من مائة عازف فيهتز جسمه كله وتتحرك ذراعه فى الهواء وتلتمع عيناه . . ويبدو شعره فى نهاية العزف منفوشا ، ووجهه محمرا كأنه خارج من ساحة معركة .

لم يكن هناك من هو أشد منه حماسة للموسيقى ، وكنا نسميه جميعا المايسترو . ونسينا أن اسمه (أمين) وكان يقول لنا إنه سيسافر إلى الخارج بعد أن يتم دراسته فى المعهد ليدرس الموسيقى فى معاهد فينا على يد أساتذتها الأفذاذ . وكان كل شىء يدل على أنه سيفعل ذلك .

وعندما حرك كراوس عصاه السحرية ولوح بها للفرقة وابتدأ النغم العذب يهز المشاعر ويحرك شجوننا . . تصورته واقفا هناك كما كنت أقدر له .

ولما انتهت الحفلة خرجت مع (أمين) إلى شارع فؤاد . . وسرنا فى الشارع قليلا . حتى اقتربنا من موقف السيارات الذاهبة إلى الجيزة فركب وهو يقول لى :

- لا تنس أن تزورنى فى الهرم . . نصف ساعة بالترام من الجيزة .

- سأزورك قريبا بإذن الله . .

وركب . . وأخذت الترام إلى بيتى .

وفى صباح يوم ضاحك . فكرت فى زيارة أمين فركبت الترام إلى الهرم وسرت فى طريق طويل بين المزارع ، وكان البرسيم على الجانبين يكسو الأرض بالسندس ، والجو صحوا والشمس تبعث الدفء والحياة فى كل الكائنات .

وبلغت منزله بعد سير طويل وسط الحقول . . وكان المنزل أنيقا مبنيا بالحجر الأبيض ذا طابقين ، وكان يخيم عليه السكون وتحيط به المزارع . ونوافذه جميعا مغلقة حتى تصورته خاليا من السكان .

وقرعت الباب ، وسمعت نباح كلب . ثم حركة فى الداخل . انفرج الباب ولاح أمين على العتبة يرتدى ملابس البيت . واستقبلنى مرحبا وقادنى إلى الداخل .

وجلست فى غرفة فسيحة تطل على المزارع . . وكان بها بعض الكتب والنوتات الموسيقية لمشاهير الموسيقيين وكان بها جرامافون . . وراديو وكان على مكتبه صورة لسيدة فى مقتبل العمر رائعة الحسن جذابة الملامح . وكتاب مفتوح لم أستطع أن أقرأ عنوانه . .

وكان على مائدة صغيرة زجاجة من الفرنيه وكأس . فجاء بكأس أخرى ووضعها أمامى وأخذ يصب من الزجاجة . . فقلت له وأنا أبتسم :

- أرجو معذرتى فأنا لا أشرب الخمر أبدا . .

فاستغرب وقال وهو يملأ كأسه :

- وأين ذهب الخيام . . ؟

- إنى كنت أحب شعره فقط وليس مذهبه فى الحياة !

- إننى أشرب الفرنيه فى الصباح . لأنه يصلح معدتى . ويفتح شهيتى للطعام . وقد اعتدت على ذلك . . ! سأصنع لك فنجانا من القهوة إذن . .

- لا داعى لأن تتعب نفسك . . ودعنا نتحدث ونستمتع بهذا الجو الجميل . .

- لابد من القهوة . .

ومشى إلى المطبخ . ولم أسمع صوتاً ولا حساً فى البيت كله . فتصورت أن عائلته قد ذهبت إلى القاهرة لبعض شئونها كما يحدث غالباً لسكان هذه الجهة . . .

وعاد بعد قليل يحمل صينية القهوة . .

وشرب فنجانه . . وقال لى مبتسما :

- لابأس بها . . لقد أتقنت صنعها على ما يبدو لى . . فالخادم يذهب إلى السوق فى

الصباح ولا يعود إلا متأخراً . . . ولهذا أعمل دائماً القهوة بنفسى وهذا تسلية لى .

فمنذ وفاة المرحومة زوجتى وأنا أعيش هنا وحيداً ولا أنيس لى فى هذه الوحدة .

ولم أكن أتصور أن زوجته ماتت . وصمت ولم أحر جواباً . .

وتحرك من مكانه وادار الجرامافوت وقال :

ـ أتذكر السمفونية التاسعة لبيتهوفن التى كنا نسمعها معاً فى المعهد سأسمعك المقطع الأول منها . .

وأصغيت إلى اللحن الخالد العبقرى بكل جوارحى وقلبى . وكان النغم يتصاعد فى طبقات الجو إلى السماء . ليس فى الكائنات ما هو أبدع من هذا .

ووضع الأسطوانة الأخيرة جانباً وقال :

ـ أما زلت تعزف الكمان . . ؟

ـ أجل . .

فنهض من مكانه وجاءنى بتلك الآلة الحبيبة إلى نفسى . فتناولتها وعالجت أوتارها وقوسها .

ووضع أمامى قطعة موسيقية كتب عليها بخطه :

ـ صراع مع القدر . .

وقال لى وهو يبتسم :

ـ اسمعنى

فتناولت القوس وابتدأت فى العزف . وشعرت بجوارحى تنتفض ورأيت فى النوتة خلقا جديداً ولحناً عبقرياً لم أسمع قبله لموسيقى مصرى فى حياتى .

ولما انتهت القطعة مددت يدى إليه مهنئا .

وقال وهو يشعل سيجارة . . وقد بدا على وجهه الزهو :

ـ إننى مؤمن بعدالة الله . وبكل ما يأتى به القدر . .

ولقد أدركت بعد أن شلت ذراعى الشىء الذى كان ينقصنى كفنان الشىء الذى خلق من بيتهوفن أعظم موسيقى فى العالم . . إنه ليس الخمر ولا النساء ولا دراسة الهارمونى . . ولا التمرغ فى النعيم . .

وإنما هو شيء أعظم من هذا كله . .

وصمت قليلاً وهو ينفض الرماد ثم استطرد :

ـ تعرف شدة شغفى بالموسيقى . ولقد تركنا جميعاً المعهد فى سنة واحدة . لأننا شغلنا بالامتحان النهائى للدراسة الثانوية ، ولكننى لم أترك المعهد لهذا السبب . بل تركته لأننى كنت أعرف أننى لن أتعلم فيه شيئاً حتى ولو مكثت بين جدرانه خمسين سنة . . ولهذا قررت أن أفعل شيئاً يحقق آمالى . . قررت أن أسافر إلى فينا بعد امتحان البكالوريا وأقول لوالدى إننى سأدرس الطب . ولكننى كنت فى الواقع سأذهب لأدرس الموسيقى . .

وسافرت إلى فينا عام ١٩٣٤ . ومكثت هناك عامين وكنت أتقدم فى الدراسة بسرعة مدهشة ، وكانت أوربا فى ذلك الحين تعانى أزمة إقتصادية بالغة ، وكان الرخص والكساد فى كل مكان فانتهزت فرصة عطلة الدراسة الصيفية وأخذت أجوب الآفاق . . وكانت الرحلة لاتكلفنى إلا القليل .

وأخذت أذرع أوربا غاديا رائحا . . فذهبت إلى بودابست وجورجيو وبخارست . واستانبول وسمعت موسيقى الغجر . التى تأخذ بالألباب والبشارف التركية التى تملك الفؤاد . ورأيت أن كل الشعوب لها موسيقى عظيمة . . عدانا نحن . . فكان قلبى يذوب ألما . كيف يعيش شعب من أعرق الشعوب فى الحضارة من غير موسيقى . وكنت أفكر فى سيد درويش وأقول إن هذا الموسيقى كان ولاشك سيبعث الموسيقى ويخلق أعظم شيء لو عاش ، ولكن القدر عاجله . . وخبا بموته ذلك البصيص من النور الذى كان يلوح فى الأفق . ورجعنا إلى موسيقى مريضة وألحان مبتذلة . كنت أرى فى البلاد التى شاهدتها أن الموسيقى تحتل المكان الأول من بين الفنون جميعاً فأخذت منى الحماسة مبلغها وقلت لنفسى لابد أن نخلق ألحانا رائعة ونذيعها على العالم أجمع .

ولكن القدر عاجلنى بالضربة البكر وأنا فى أول الطريق . . فقد مات والدى ، ولم يترك ما يساعدنى على مواصلة الدراسة من بعده فى هذا البلد الغريب . . فاضطررت إلى العودة إلى الديار . .

وكان الكساد عاماً والأزمة الاقتصادية تأخذ بخناق الناس . فلم أستطع أن أكمل تعليمى ففتشت عن عمل ، وبعد تعطل وتشرد وفقت إلى عمل تافه فى بنك من البنوك ، وكنت أعمل طول النهار كالآلة الصماء .

ولكن حنينى إلى الموسيقى كان يعاودنى من حين إلى حين . فكنت أحضر كل حفلات الفرق الموسيقية الكبيرة القادمة من الخارج . . وأجلس فى أعلى التياترو وأتحسر وأتألم !

ثم فكرت بعد أن اقتصدت بعض المال أن أواصل دراسة الموسيقى وعلمت أن هناك رجلا موسيقياً مغموراً من أصل تركى يسكن فى شارع البستان ، ويعلم الكمان بأجر زهيد . وهو أستاذ بارع . فذهبت إليه وكان يقيم فى شقة صغيرة . . وقد بلغ منه الكبر وفقد زوجته منذ سنين وكانت تقوم على خدمته ابنته الوحيدة وهى فتاة فى الخامسة والعشرين من عمرها . وكانت هادئة صامتة ذات جمال حزين . . وكنت أراها فى كل درس وهى تحمل القهوة إلى والدها . وكنت أرفع وجهى إلى وجهها فى كل مرة . وأشعر بارتياح وسرور بالغين .

ومضت الأيام فازداد تعلقى بها وحبى لها .

وذات مساء ذهبت إلى الدرس كعادتى فوجدت والدها مريضاً ، وكانت نعمات جالسة بجانب سريره حزينة مبتئسة وهى تفكر فيما يجىء به الغد .

وجلسنا نحن الثلاثة صامتين . . كان الرجل يدير عينيه فى سقف الغرفة ويهذى ، وكانت الفتاة ساكنة مطرقة برأسها تتلقى ضربة القدر فى وجوم .

وكنت أفكر فى مصيرها . فى مصير فتاة فقيرة فى فجر أنوثتها . . وشبابها سيقذف بها القدر إلى عرض الطريق . وأدركت ما سيحدث . . وأغمضت عينى !

وقررت أن أفعل شيئا مهما كلفنى الأمر . وعددت القروش التى فى جيبى وأسرعت إلى أقرب طبيب فى الحى .

وكشف عليه الطبيب وحدثنى بالانجليزية . وكانت الفتاة تنظر إلينا ووجهها مصفر وشفتاها ترتعشان . .

وأعطيته أجره وخرج . . وعلمت منه أن الرجل سينتهى فى المساء ولا بأس من هذا الدواء كمسكن للألم إلى أن يحين حينه !

وعندما نزلت لأجىء بالدواء من الصيدلية تعلقت بى نعمات وهى ترتجف وقالت :

ـ لا تتركنى وحدى . إننى أخاف . .
ـ سأعود حالاً . . ولن أتركك وحدك أبداً . .

وانتهى الرجل فى صباح اليوم التالى . وانتقلت نعمات إلى بيتى ، وبعد شهر تزوجتها .

ودفعنى حبى الشديد لها على أن أعمل لإسعادها ، وأجعلها تعيش فى بحبوحة من العيش الرغيد . فواصلت جهودى فى عملى . وانتقلت من عمل إلى عمل ، وكافحت

كفاح الأبطال وانتصرت ، وأقبلت على الدنيا بوجهها الضاحك . وجرى بين أنامل الذهب ! فانتقلنا إلى بيت أنيق فى أحسن أحياء القاهرة . وأصبح لنا سيارة وخدم . وكنا نصيف فى الإسكندرية ولبنان واستانبول .

وكانت زوجى ترتدى أفخر الثياب . وتتمتع بكل ما تتمتع به الأنثى ولكننى مع هذا كنت ألاحظ أنها تفكر فى شىء ينقصها لتكمل به سعادتها كانت تود أن تصبح أما ! .

وشاء الله أن يحقق أمنيتها وحملت . . فطارت فرحاً . . ولكن إلى حين . . ففى الشهور الأخيرة من الحمل ابتدأت المخاوف والوساوس والأوهام تدور فى رأسها ولا تبارحها ليل نهار .

وكنت أتنبه فى الليل على صوتها وهى تبكى . ولما سألتها عن سبب بكائها كانت تطوقنى بذراعيها وتنشج ، وتنظر إلى فى سكون ولا تقول شيئاً ولكنى كنت أعرف علة بكائها كانت تخاف من الوضع . . وتتوجس منه شراً .

وجاءها المخاض ليلاً فحملتها فى سيارة إلى المستشفى . .

وقالت لى وهى خارجة من البيت :

ـ أشعر بأننى لن أعود إلى هذا البيت أبدا . .

وكانت عيناها مخضلتين بالدموع .

وحولت وجهى عنها لأخفى دمعة فى محاجرى . وهبطنا الدرج صامتين وفى السياره أخذت أحدثها عن عشرات حالات الولادة التى مرت بسلام ولكنها كانت تخاف وتبكى .

وفى المستشفى كشف عليها المختص . وقال إن الطلق سيأتيها فى آخر الليل وهيأ لها غرفة خاصة . . وتمددت على السرير . . وظللت بجانبها ممسكاً بيدها . .

وجاءت الممرضة لتعطيها بعض الحقن وتغير ملابسها . فخرجت من الغرفة . ولما رجعت إليها وقع نظرى على رقم السرير وكنت لم أره من قبل وكان رقم ١٣ فهبط قلبى بين ضلوعى .

ولما اقترب ميعاد الوضع حملوها على عربة صغيرة إلى حجرة الولادة ومشيت بجانبها ، ويدى اليمنى تمسك بيدها ، وسرنا فى ممر المستشفى الطويل وأنا ممسك بها . وكانت تقول لى بصوت خافت :

«لا تتركنى وحدى . .

فكنت أطمئنها وأضغط على يدها . .

وأمام باب غرفة الولادة وقفت العربة وفتح الباب . .

فقالت وهى تشد على يدى :

ـ لا تتركنى وحدى . .

ونظرت إلى الممرضة . . فتركت يدها . . ودفع الممرضات العربة إلى الداخل . وأغلق الباب وبقيت وحدى .

وكانت ساعة المستشفى قد اقتربت من الثانية صباحاً . فأخذت أذرع الممشى وحدى . وكان السكون يخيم . . وكنت أتمشى وأعود وأقف على باب الغرفة وأتسمع الطبيب وهو يحادث الممرضات ، وأنظر إلى الساعة المعلقة فى نهاية الممر . . وأتصور . . وأود أن أحمل أشعة أكس لتنفذ إلى ما وراء الجدران ، وأرى نعمات المسكينة وهى تتألم .

وكنت فى حالة من التوتر العصبى لاتصور . ولكنى كنت كلما وضعت أذنى على الباب وسمعت صوتها وهى تتوجع كان يعاودنى الاطمئنان فأسير فى الممشى داعياً إلى الله أن يتولاها برعايته .

وكنت أود أن أكون أول من يسمع الصوت الحبيب الذى تحبه والذى جاءت إلى المستشفى من أجله . . وهو صرخة الطفل الوليد .

وبلغت الساعة الثالثة صباحاً . وبلغ منى القلق منتهاه فوقفت مسمرا على الباب فقد ماتت رجلاى وكل حركة فى جسمى .

ولم يكن هناك من أتحدث إليه . وكنت أود أن أعطى أى إنسان كل ما أملك فى سبيل أن يحادثنى فى تلك الساعة المعذبة دقيقة واحدة .

كان الصمت والسكون اللذان يخيمان على المستشفى يطيران بلبى .

ووضعت أذنى على الباب وتسمعت فلم أسمع صوت نعمات فى هذه المرة . لقد انقطع صوت الأنين . فماذا جرى . كان سكون القبر يطالعنى فى كل مكان . فدفعت بقبضتى الباب . . ولكنه كان موصدا فهززته وصرخت . . وانفتح الباب وطالعنى وجه الطبيب الصامت . وحبات العرق على جبينه ونظرت إلى نعمات المسجاة على الطاولة وكان وجهها ساكناً أبيض .

وكان بجوارها هناك شىء صغير قد مزقته آلة الطبيب . وكان فلذة كبدها .

واقتربت من نعمات وأنا صامت مذهول من وقع الصدمة .. ووضعت فمى على جبينها وكان بارداً كالثلج !

ولما خرجت من المستشفى فى الصباح .. وسرت وراء النعش حاولت أن أحرك ذراعى اليمنى فلم أستطع كانت قد شلت كلها .

كنت أتصورها لاتزال ممسكة بيدى اليمنى وهى تقول لى بصوت خافت :

لا تتركنى وحدى ..

ولقد عرفت بعد هذا الشىء العظيم الذى ينقصنى . الشىء الذى يخلق الفنان المبدع «الألم» .

الفهـــرس

الأعرج فى الميناء وقصص أخرى ١٢٥

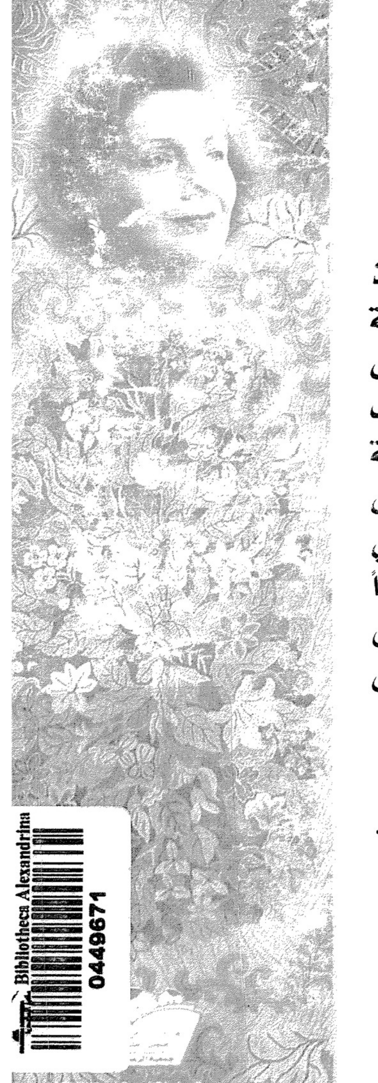
حدث ذات ليلة وقصص أخرى ٢٤٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٦٣٦/١٩٨٥

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٠٨٤٠ - ٥





لقـــد أدركنا منذ البداية أن تكوين ثقافة المجتمع تبدأ بتأصيل عــادة القــراءة، وحب المعـرفـة، وأن المعـرفـة وسيلتها الأساسية هى الكتــاب، وأن الحق في القــراءة يماثل تمامــاً الحق فى التعليم والحق فى الصحـة.. بل الحق فى الحياة نفسها.

سوزان مبارك